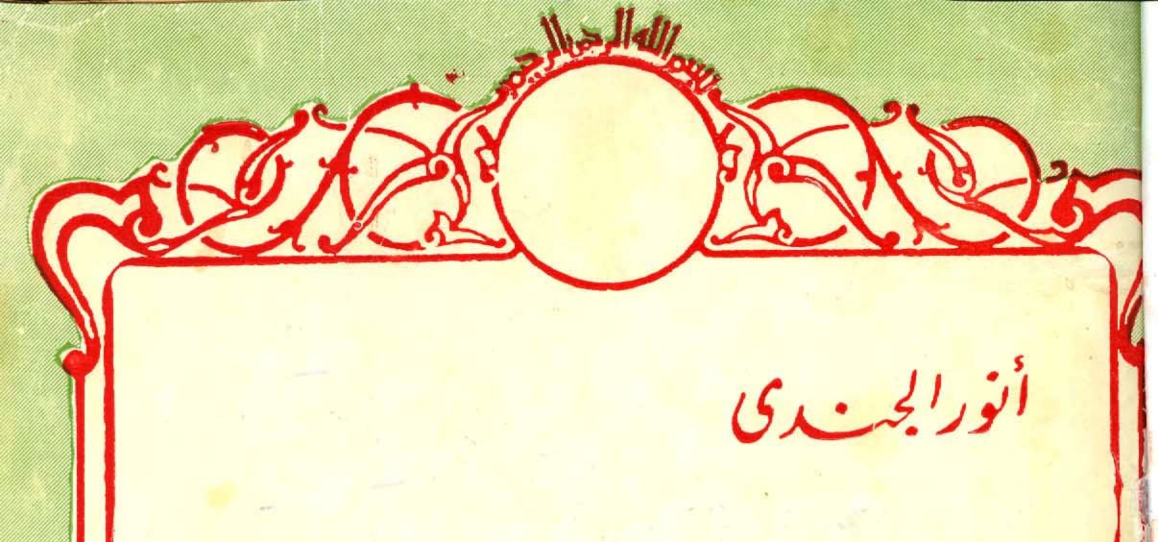


أنور الجندى

التفسير الإسلامى للفكر البشرى

الأيدلوجيات والفلسفات المعاصرة

فى ضوء الإسلام

دراسة جامعة

الفلسفة المادية ـ العلمانية ـ التفسير المادى للتاريخ
البرجماتية ـ الأجناس ـ النفس والجنس لفرويد
النسبية ـ الوجودية ـ الهيبية ـ الروحية ـ البهائية

دار الاعتصام

سرى

التفسير الاسلامى للفكر البشرى

الأيدلوجيات والفلسفات المعاصرة في ضوء الإسلام

أنور الجندي

دار الاعتصام



مدخل إلى البحث

انتقل الفكر البشرى مرحلة بعد مرحلة فى طريقه الطويل ملتقياً بمفهوم التوحيد ومعارضاً له . وقد كانت الفلسفات الثلاث الكبرى التلمودية واليونانية والغنوصية قد سبقت ظهور الإسلام ثم تحركت من جديد فى محاولة لإخضاعه واحتوائه على النحو الذى حدث بالنسبة للأديان السماوية السابقة له .

واستطاعت التلمودية الصهيونية فى العصر الحديث أن تستوعب الفكر الغربى المسيحى وأن تسيطر عليه ، بدأ ذلك منذ وقت بعيد وكشفت عنه مقررات الماسونية وبروتوكولات صهيون . وتحركت الفلسفة الحديثة فى طريقها خلال مرحلتين اسلمت أولاهما إلى الأخرى ، أما الأولى فهى الفلسفة المادية أو الوضعية أو دين البشرية الذى وصف بأنه بديل للمسيحية وفيه تحولت الأفكار والتيارات حثيثاً نحو التخلص الكامل من مفهوم الألوهية والتوحيد والإيمان بالبعث والجزاء . ثم جاءت المرحلة الأخيرة بظهور الماركسية والفرويدية والمدرسة الاجتماعية ثم الوجودية ، وكلها مذاهب ودعوات تتحرك خارج نطاق الإيمان بالله تحركا صريحاً ، وبدأ من خلال هذه الفلسفات طابع التلمودية العنيف فى استيعاب الفكر الغربى كله ومحاولة استيعاب الفكر البشرى وتدميره ، وكان أن طرحت هذه الفلسفات كلها فى محيط الفكر الإسلامى رغبة فى تحقيق غاية كبرى هى محاولة استيعاب هذا الفكر ، باعتبار ذلك هو الهدف الأخير للمحاولة التى رسمتها بروتوكولات صهيون من خلال مخطط التلمود .

وقد أحسن تصوير هذا المعنى كاتب كبير من كتاب الإسلام حين قال : « إن جميع الفلسفات التى نادى بها مفكرو العصر تعمل على تقويض دعائم الاعتقاد بوجود إله واحد ، بغض النظر عن البديل المقترح ، فمنها من يقترح ألوهية المادة ،ومنها ألوهية الإنسان ومنها من يجعل الغريزة محور تفسير الوجود (والمعروف) أن الدين الوحيد الذى صفت منه عقيدة الوحدانية من شوائب الشرك إنما هو الإسلام .

« والمبادىء والأفكار الحديثة تركز جهدها لهدم العقيدة التى تمثل فى نظر أصحابها جوهر رسالات السماء ، والإله فى عرف اليهود إله قومى لهم وحدهم دون غيرهم من الأميين ، وعند النصارى واحد من ثلاثة ، وإذا كانت الماركسية فى حقيقتها تدميراً لفكرة الألوهية وربط للإنسان ومصيره بمصير المادة المحسة وتفسيراً لحركة التاريخ بعوامل ليس منها إرادة الله وخلقه على أية حال ، فإن عداءها الصريح لم يتوجه فى الحقيقة إلا إلى الإسلام باعتباره معقل الفكر الدينى ، ورمزاً يجسد العلاقة بين الله الواحد والمخلوق ، وهى تعد بذلك أحرج حملة وجهها الفكر الحديث إلى معقل الوحدانية وإن بدت عاجزة عن تحقيق أهدافها بعد أن شاخت . وهناك محاولة أقل علواً ولكنها أشد كثيراً هى مجادلة الفلاسفة الوضعيين الذين يهولون من شأن الإسلام وحركته التاريخية ، فقد أشبع (أوجست كونت) الإسلام مدحاً وتمجيداً ، ولكنه لم يزد على أن عده مرحلة كانت ضرورية كحلقة من سلسلة تطور البشرية نحو الدين الجديد والنهائى : «الوضعية» .

(٢)

ولقد تكشفت بعد الحرب العالمية الثانية حقائق كثيرة وطرحت وثائق كثيرة من شأنها أن تلقى الضوء على كثير من الفروض التى كانت سابحة فى أفق الفكر الإسلامى مما طرحه الغزو الثقافى فى محاولته الخطيرة فى إخراج العقلية

الإسلامية عن أصولها وقيمها ، وقد أوضحت هذه الحقائق والوثائق مدى الأخطار التى اختفت وراء كثير من الأبحاث التى كتبها رجال التغريب واتباع المستشرقين والمبشرين وخاصة فيما يتعلق بالاهتمام الوافر بنظريات التحليل النفسى والعنصرية والعالمية والجنس والإباحية وتجديد تراث أبو نواس وبشار وتجديد تراث ابن عربى والحلاج وتحريف بعض مقررات التاريخ مما جاء به القرآن وخاصة فيما يتصل بأبى الأنبياء إبرهيم ونبى الله إسماعيل . وما يتصل بالاهتمام الوافر بالثيوصوفية والبهائيـة وتقديم الدراسات الواسعه عن نيتشه وسبنسر وماركس وميكافيلى ودوركايم وداروين وفرويد وسارتر ، ثم ذلك الاهتمام الباذخ بالتراث اليونانى الإغريقى الهلينى الذى تفرغ له كثير من الكتاب وجرى الحرص البعيد المدى على ترجمة آثاره التى رفض المسلمون ترجمتها فى القرن الثالث والرابع الهجرى . ولقـد صبغت كل الدعوات والمذاهب التى حاولت أن تفرض وجودها على الأمة العربية والعالم الإسلامى بذلك الغرض الدفين الذى تخفيه النصوص [قد بدت البغضاء فى أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر] ومن هذه الحقائق التى تكشفت ما كشفه اليهود أنفسهم عن صلتهم بفرويد وماركس ونيتشه وداروين وما عرف عن الصلة بين هرتزل وفرويد .

(٢)

استخدمت مخططات التغريب فى سبيل غايتها مؤسسات التعليم والثقافة وكلها تشرف عليها القوى الاستعمارية وتوجهها، فطرحت هذه النظريات والأيدلوجيات فى مجال الفكر الإسلامى وحاولت عن طريق رجالها أن تقيم له دائرة ذات نفوذ، وكان منطلقها مناهج التربية والاجتماع والنفس والأخلاق ووسائلها فصل الدين عن الدولة فى أنظمة الحكم وتأصيل منهج الربا عن طريق المصارف التى استوعبت المال الإسلامى وإخراج الشريعة وإقامة القانون الوضعى

والتماس مناهج التعليم الغربية التى تفصل بين التعليم والتربية وتعزل العلم عن الأخلاق والعقائد . ومن حيث كانت سيطرة الغزو الغربى كاملة على مقدرات العالم الإسلامى ، فقد أمكن طرح هذه المفاهيم فى مجال الثقافة عن طريق الصحافة والجامعات وهى ذات شقين ، الشق الأول تفريغ النفس الإسلامية والعقل الإسلامى من مفاهيم الإسلام الأصيلة وشغله بالقشور البسيطة ، وإثارة الشبهات فى نفس الوقت حول التاريخ واللغة والنبى والقيم جميعاً على نحو يمكن الأيدلوجيات والفلسفات الوافدة من السيطرة والتمكن ، وبذلك بدا الفكر الإسلامى بعيداً مهجوراً متجمداً توجه إليه الطعنات وينظر إليه على نحو من الازدراء ، واستعلى الفكر الغربى وقيمه المادية الوثنية ، وحاول السيطرة على النفس الإسلامية والعقل الإسلامى جميعاً .

هذا المخطط وضعته قوى كثيرة ، نجح كلها على أمر واحد هو السيطرة على عالم الإسلام ، وامتلاك مقدراته دون أهله . وقد انطلقت هذه القوى إلى غرض أصيل هو إزالة شخصية العالم الإسلامى والأمة العربية جزء منه وتفريغ ذاتيته وإذابته فى الأممية والعالمية واحتواء مفاهيمه وقيمه حتى يصبح تابعاً ، ليس من ناحية مقدراته وثروته فحسب بل من ناحية وجوده وكيانه وشخصيته . وقد جرى تنفيذ هذا المخطط منذ وقت بعيد ، وشاركت فيه القوى الاستعمارية والدولية والصهيونية واتخذت من التبشير ومعاهد الإرساليات وخريجيها المسيطرين على الصحافة والثقافة أداة واسعة النفوذ قادرة على أن تطرح أمام الأجيال شبهاتها ومذاهبها ودعواتها . واستطاعت سموم هذه الشبهات أن تسرى بعد أن حطم الاستعمار الحصانة النفسية والروحية التى كانت تحمى النفس الإسلامية من الغزو حين سيطرت قوى الاستعمار على مناهج التعليم وأفرغتها من مفاهيم الإسلام وباعدت بينها وبين منهج القرآن الفكرى والتربوى والاجتماعى . ومن ثم اختلطت مفاهيم الاسلام بمفاهيم الوثنية والمادية والأديان الأخرى وخرجت عن طابعها الأصيل ووجودها

الفرد المتمثل فى التوحيد القائم على الفطرة الذى لا يتماثل مع فكر أى أمة أو ثقافة أو حضارة والمتميز بطابع الأصالة المستمد من وحى السماء ومن رسالة النبوة ومن كلمات الله المنزلة .

(٤)

واجه الفكر الاسلامى ما يمكن أن يسمى بموجة الفلسفة مرتين : المرة الأولى فى القرن الرابع الهجرى عندما ترجم المسلمون الفلسفة اليونانية ، ومن ثم تشكل تيار جديد لم يلبث أن اتسع نطاقه فأضاف إليه فلسفات مختلفة منها مذاهب الفلسفة الغنوصيه الشرقية المستمدة من المجوسية الفارسية ومنها مذاهب زردشت ومانى ومزدك وفلسفات البرهمية والكنفوشيوسية وغيرها .

وقد علا موج هذا التيار واتصل بالاعتزال والكلام والتصوف ، ونشأت عنه مدرسة تابعت الفلسفة اليونانيــــة وحاولت تطويقها للفكر الاسلامى ، وإدخال التراث اليونانى فى إطار التوحيد ، كانت ترجمة الفلسفة فى هذه الفترة تجرى بإرادة أهل الفكر الإسلامى ، وكانت تستهدف أساساً ترجمة الفلسفات الطبيعية والرياضية ، كمقدمة لبناء منهج علمى إسلامى فى مجال الطب والفلك والعلوم . غير أن المترجمين وجلهم من النساطرة لم يلبثوا أن توسعوا فى نقل الفلسفة الإلهية الوثنية التى كان يطلق عليها (علم الأصنام) ومن ثم بدا الفكر الإسلامى يواجه مفاهيم تختلف أصـــلا عن جوهره ومضامينه . ومن ثم دارت معركة واسعة امتدت عصراً طويلا إلى أن استطاع الفكر الإسلامى استيعاب هذه المحاولة وامتصاصها وإعادة تشكيل مفاهيمه على النحو الذى تحقق له ، التحرر الكامل من نفوذ أى قيم وافدة .

ونجح الفكر الإسلامي فى هذه المعركة وخرج منها أصفى ما يكون

جوهراً وأشد أيداً وأعمق اتصالا بقيمه الأساسية وأصوله الأصيلة ، ومن ثم شكل مفهومه الذى أطلق عليه مذهب أهل السنة والجماعة[١] .

* * *

أما المرة الثانية فقد قامت فى القرن الرابع عشر الهجرى أى فى خلال المائة عام الأخيرة ، وهذه الجولة تختلف اختلافاً كبيراً عن الجولة الأولى من جوانب عديدة ، فقد جاءت فى أعقاب نفوذ الفكر الغربى الذى فرض على العالم الإسلامى والذى سيطر على مدارس الفكر الإسلامى فى مرحلة من مراحل الضعف والتخلف ، وصدر عن مدارس الإرساليات الأجنبية التى نشرها النفوذ الاستعمارى فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى ، ثم سيطرت مناهجها على المعــاهد والجامعات الوطنية التى نشأت فى العواصم العربية والإسلامية ، واستقدم لها عــدد من المستشرقين المبشرين الذين قاموا بوضع مناهجها ودراساتها ثم استطاعوا خلق طبقة من الموالين لهم سافروا إلى بلاد الغرب وعادوا يحملون أعلى الدرجات ويتولون العمل طبقاً للبرامج المرسومة ويقومون بأعمال الترجمة والتدريس ، ويتصدرون مراكز الثقافة والصحافة والفكر جميعاً ، وللحق نستثنى من هؤلاء الذين سافروا إلى الغرب ، نماذج كريمة استطاعت أن تكتسب بالتحدى قوة جديدة على مقاومة التغريب . ومن هنا بدأت عملية ترجمة الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة العربية الحديثة ، وهى ترجمة تمت فى إطار الولاء والتقبل والتبعية ، ولم تتم فى إطار النقد أو الرشد الفكرى أو الأرضية الإسلامية الصحيحة . نعم ، قامت هــذه الخطوة من وراء إرادة الفكر الإسلامى ومشيئته ، وفى وقت ضعفه وتخلفه ، لذلك

---

(١) راجع كتابنا (القيم الأساسية للفكر الإسلامى) .

فقد سيطرت قوة التغريب واستطاعت أن تفرض ترجمة فنون من الفلسفات كان المسلمون العرب فى الجولة الأولى قد رغبوا عنها ووجدوا أنهم ليسوا فى حاجة إليها ، ولو كانت إرادة الفكر الإسلامى حرة فى هـذه الجولة لما قبلت ترجمتها إلا فى إطار نقدها والنظر فيها ومعارضتها بأصول الفكر الإسلامى الأصيلة . ثم جاءت ترجمة الفلسفات الغربية ومذاهبها الحديثة ، وكانت المحاولة هى تلقين المسلمين والعرب هذه الفلسفات كأنها حقائق مقررة وقوانين علمية ثابتة ، وأصول تحقق صدقها وثباتها ، وليست كذلك الفلسفة فى أى عصر أو زمان ، ذلك أن الفلسفة فى حقيقتها ليست إلا فروضا من نتاج عقل بشرى يعيش فى تحديات عصره وبيئته ، فهى محـدودة بمجتمعها ، ومحدودة بعقلية صاحبها ، ومحدودة بأنها تجارب قد تخطىء وقد تصح وقد تتجاوزها الأحداث ، وقد تختلف من بيئة إلى بيئة ، ولذلك فإن أغلب هـذه الفلسفات قد تصدعت وأصبحت فى حاجة إلى إضافات وتصحيحات ، بل إن بعضها قد فقد قيمته فى بيئته الأصلية التى ظهر فيها ، ومن هنا فان نظرة الفكر الاسلامى والثقافة العربية إلى هذه النظريات يجب أن يكون ناضجاً ويقظاً وراشداً إلى هـذه الظروف كلها ، وأن ينظر إليها من خلال فكره الأصيل ، وفى نطاق منهجه الاسلامى المتكامل المرن ، ولذلك فإن طرح هذه النظريات منذ بدأه شبلى شميل وغيره فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر واستمر حتى الآن ، لم يجد قبولا ، وإنما وجد معاودة للنظر ومراجعة للفكرة ، فإن العقل الاسلامى والمزاج والذاتية والطابع الاسلامى ، وهو القائم على الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، لا بد أن يجد الحرج فى مواجهة فكر تصوغه طوابع مختلفة ومناهج قائمة على المادية الخالصة ، ولذلك لم تلبث حركة اليقظة الاسلامية أن أخذت تعيد النظر فيما طرحته الموجة الجديدة من مترجمات الفلسفات الغربية ولتكشف عن

موقفها الصحيح منه ، ولعل هذه الرسالة واحدة من مثل هذه المحاولات الكثيرة ، التى تقوم على أساس الانطلاق من القرآن نفسه ، ومواجهة الفكر البشرى الوافد على أسس الاسلام وأصوله الأصيلة ، رغبة فى دحض الشبهات ودفع الزيف والتخلف من محاولة إخراج الفكر الاسلامى عن مقوماته القرآنية .

ويمكن أن توصف هذه المرحلة بمثل ما وصفت به المرحلة السابقة التى واجهت منطق أرسطو والفكر اليونانى والتى استطاعت أن تحقق تحرر الفكر الاسلامى وانتمائه الأصيل للقرآن وعجز الموجات العاصفة من الفكر الوافد أن تحتويه أن تصهره فى بوتقتها . ومن هنا بدأت المحاولات فى الكشف عن الفوارق الدقيقة بين مفاهيم الفكر الاسلامى ومفاهيم الفكر الغربى فى مختلف المجالات من خلال مفتاح التوحيد .

(٥)

فى خلال الخمسين عاماً الأخيرة تبلور الفكر الغربى أن سيطرت عليه التلمودية اليهودية فى مجموعة من النظريات شملت ميادين :

(أولا) مقارنات الأديان .

(ثانياً) العلم والعلمانية .

(ثالثاً) فلسفة الاستعمار والتفسير المادى والليبرالى للتاريخ .

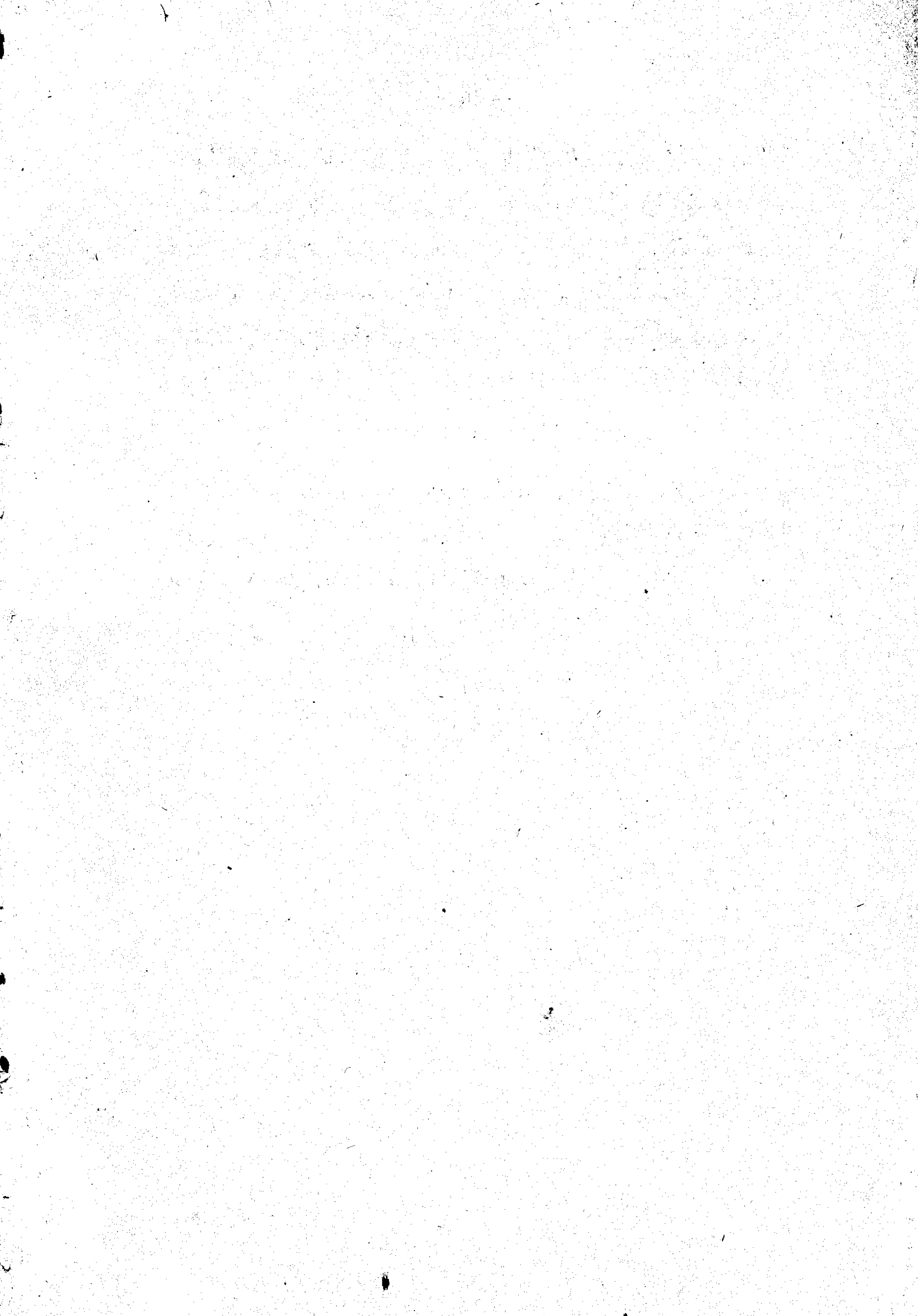
(رابعاً) فلسفة الأجناس .

(خامساً) فلسفات النفس والأخلاق والمجتمع .

(سادساً) فلسفات الحضارة والروحية الحديثة والتربية .

ولقد طرحت هذه النظريات فى أفق الفكر الاسلامى وترجمت معالمها ترجمة التبعية وفرضت فرضاً فى مجال الجامعة والصحافة والثقافة دون أن يكشف مقدموها عن الصلة التى تجمعها بالفكر الاسلامى أو تفصلها عنه، وكان لا بد من أن يقام ميزان جديد : [هو منهج الفكر المقارن] للنظر من خلال الاسلام إلى هذه المناهج والنظريات ، وقد جرت محاولات كثيرة فى هذا المجال ، لإلقاء هذا الضوء ، ولكنها كانت محاولات متفرقة لا يجمعها رابط ولا تتحرك من خلال منهج أصيل أو إطار واضح .

لذلك كان لابد أن توضع هذه الفلسفات والنظريات فى ميزان الاسلام وتدرس من جديد فى ضوءه،وهذه محاولة متواضعة فى هذا المجال، أحسب أنها خطوة تتلوها خطوات والله من وراء القصد .



الباب الأول

الفلسفة المـادية

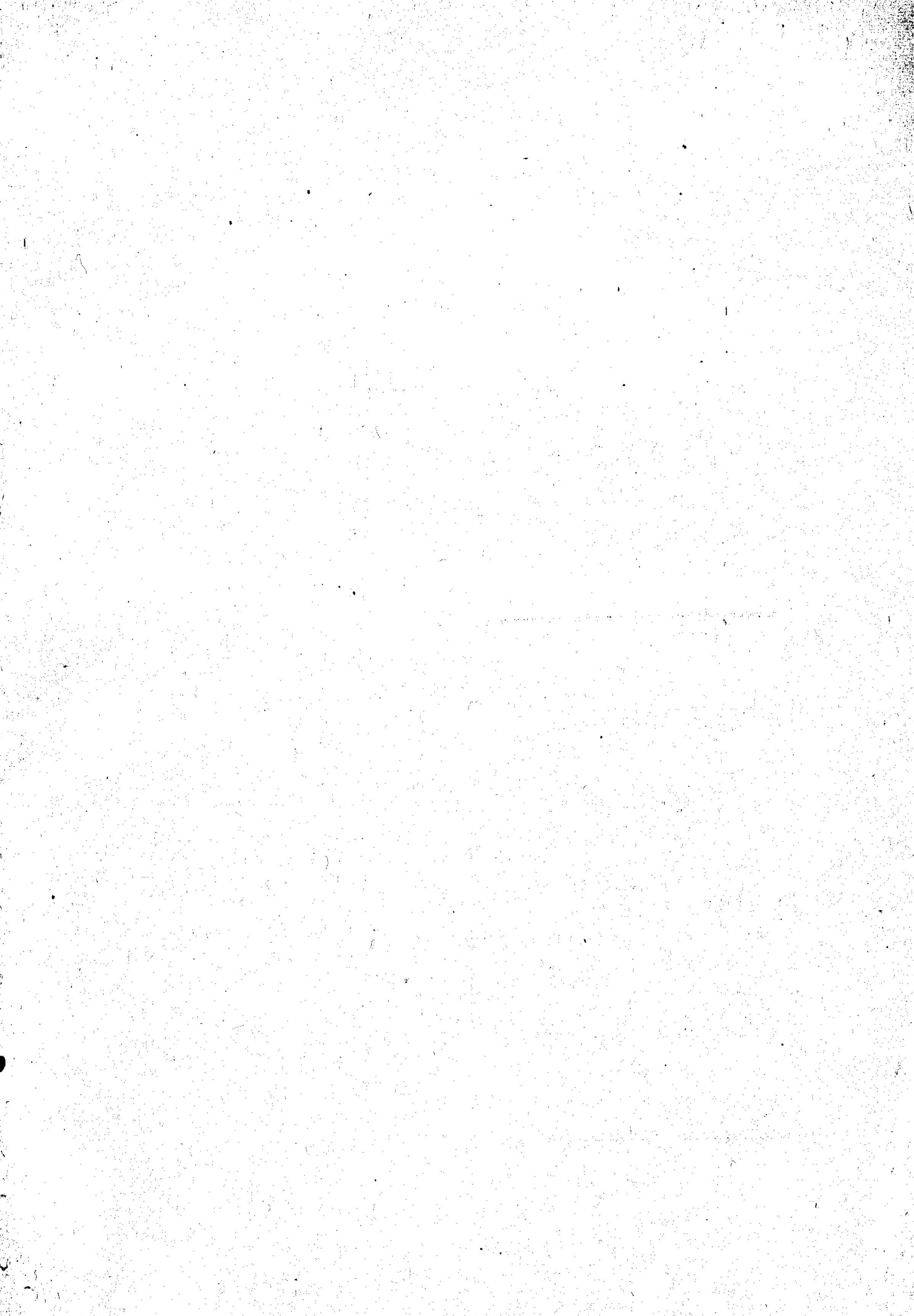
(١) الفلسفة المـادية

(٢) العلم والعلمانية

(٣) العلمانية

(الحق) :

ضوء الاسلام على الفلسفة المـادية



(١)

الفصل الأول

الفلسفة المادية

هناك نظرية فى تقسيم الفكر البشرى تضعه فى ثلاث قوالب مستقلة :

الفكر الشرقى وهو فكر غيبى (غنوصى) يقوم على أساس الوجدان والبصيرة والأشراق .

الفكر الغربى وهو فكر مادى (هلينى) يقوم على أساس العقل والمحسوس وبينهما الفكر الإسلامى وهو فكر قرآنى : جامع بين العقل والوجدان يربط بينهما برباط التوحيد .

ولقد كان الفكر الغربى منذ وقت بعيد ، منذ أربعة آلاف سنة قبل الاسلام فكراً مادياً غيبياً يقوم على أصول واضحة فى الفلسفة اليونانية الهلينية والحضارة الرومانية ثم جاءت المسيحية فغزت أوربا ولكنها وصلت اليها بمفهوم رجل غربى رومانى هو بولس ، فاختلطت بالفكر الوثنى اليونانى الرومانى فأثمرت طابعا جديداً من الفكر ، اختلف عن الفكر الهلينى واليونانى ثم جاء الإسلام فأهدى إلى البشرية مضموناً جديداً للألوهية والكون والحياة والإنسان لم يلبث أن تبلور فى فكر وحضارة ، شرقت وغربت حتى وصلت قلب أوربا فكانت بعيدة الأثر فى تحريرها من قيود كثيرة فى العقيدة والحياة وفتحت الآفاق أمام فكر جديد وأمام نهضة علمية بعيدة المدى كانت مصدراً للحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة .

غير أن صراعا قام من جديد أحيا الفكر القديم كله من ركام البابلية والأشوريه والمجوسية والهندية الشرقية ومن اليهودية والمسيحية ومن طوابع الاسلام وحملت قيادات فكرية قادرة هذه التيارات كلها فصهرتها فى فكر جديد لم يلبث أن تشكل من خلال تحديات العلم الحديث للكنيسة والمسيحية ومن خلال تطلعات اليهودية التلمودية فكان ذلك مولداً لما أطلق عليه من بعد: [الفلسفة المادية] .

ولقد اختلط مفهوم المادية بين العلم والفلسفة . فبدأ فى أول الأمر وكأنه علم خالص ، غير أن العلم سرعان ما كشف موقفه من قضايا الكون والغيب كله وأعلن أنه لايستطيع أن يقتحم هذه المجاهل ، ثم لم يلبث أن اعترف بأن هناك كون وراء المادة وأن هناك بوادر تدل عليه وان كان العلم غير قادر على أن يخوض فيه .

ومن هنا فقد كانت الفلسفة أولا وآخراً حاملة لواء المادية والداعية اليها فى محاولة تمويه ضخمة لتصنع باسم العلم،والمذهب المادى فلسفة لاعلم فيها،وفرق كبير بينهما فالعلم يرود بوسائله مجاهيل هذا الوجود الضخم ويدون العلاقات الموجودة بين ظواهره منها ، ويضم الأشياء إلى نظائرها ، ثم يبذل وسعه ليجد النواميس العامية فى كل طائفه منها وهو كما عرف عن نفسه ومهمته « الكشف عن ظواهر الأشياء » وتحليل المواد لمعرفة عناصرها الأولية « أما الفلسفة فهى محاولة عقلية من أجل إدراك حقيقة الوجود ، فقد رفض الفلاسفة الاقرار بميتافيزيقا الكتب السماوية ، وعدلوا عن الوصول إلى الحقيقة عن طريق جهازهم المحدود « العقل » وقد دخلت الفلسفة منذ نشوئها إلى اليوم فى أطوار كثيرة فبعد أن كانت تعتمد على العقل وحده ، أصبحت اليوم تعتمد عليه وعلى العلم أيضاً .

---

(١) العلامة محمد فريد وجدى ــ مجلة الأزهر

ومن هذا الطريق وصلت الفلسفة إلى ماوصفت نفسها بالطبيعية ، وهى التى يعتمد عليها المذهب المادى إلى الحكم بأن الوجود مادة محضة ، وأن مايسمى عقلا وروحا وعواطف ماهى إلا حالات راقية من المادة .

« ولكن العلم فى الخمسين سنة الأخيرة دخل فى طور جديد من التشكيك ودفع أقطابه إلى أن يضعوا تقنيناته فى الميزان من جديد وتغيرت لهجة ممثليه فأصبحوا يكثرون من قولهم أن الوجود مشحون بالمجاهيل فيما ندعى أننا فرغنا من بحثه » .

(٢)

أشتبكت المادية فى صراع حاد مع العقائد القديمة [١] منذ ظهور أول المذاهب الفلسفية التى تدعوا لها ، ذلك لأن الأفكار الدينية الوثنية التى كانت سائدة فى الشرق القديم وفى العقائد اليونانية المختلفة كانت خليطاً مضطرباً غامضاً غير أن الفلسفة المادية قد غالت فى معارضتها للأديان فى أمرين خطرين هما وجود الخالق والبعث والموت وأن أدنى مراجعة للفلسفة الماسونية ومفاهيم اليهودية التلمودية ليكشف بوضوح أن بذرة هـــذا الشك . قد بدأت من الفلسفات الوثنية القديمة ثم تجمعت فى بؤرة هـذا الفكر مستهدفة القضاء على الأديان وعلى المفاهيم المرتبطة بالفكر الربانى الذى جاءت به الأديان المنزلة ، مع إعلاء العقل إلى درجة لم يعرف العالم الحقيقى لها مثل هذه المكانة ، ومن الحق أن يقال فى تبرير الاتجاه العلمى أن مفاهيم الدين فى الغرب كانت مما لا يقر أغلبه العقل وأن الدين ومؤسسة الكنيسة قد عارضا نهضة العلم وحركة الحرية وأن نصوص كثيرة فى الكتب المقدسة مما كتبه بعض الكهان قد تعارض مع ماستطاعت العلوم أن تحققه وتقيسه بمقاييسها الحديثة

---

(١) لانجة : تاريخ المادية .

غير أن هذا كله لم يكن ليدفع الفكر البشرى إلى هذا التجاوز الخطير لجانب ضخم وأساسى من تكوين الإنسان وهو جانب الروح والبصيرة والغيب بكل مقوراته حتى يصل إلى الإنكار الكامل للخالق والمعارضة لحقائقه اليقينية التى جاء بها الوحى

(٣)

« المادية فى الفلسفة نظرية فكرية ترى أن جميع ما فى الكون مؤلف من المادة ولا وجود لشىء غير مادى فى هذا العالم وتضم الفلسفة المادية مفاهيم عديدة : قديمة وحديثة كلها ترى أن هذا الكون مكون من المادة »[1] وليست النظرية المادية من منتوجات العصر الحديث ولكنها قديمة قدم الفكر البشرى نفسه ، وأن ديمقريطس اليونانى هو أول من قال : بأن لاشىء موجود إلا المادة وذلك فى القرن الخامس قبل الميلاد. والواضح أن مختلف المذاهب الفلسفية الأدبية ، وكذلك الآداب والنظريات التى طرحها أصحابها فى علم النفس أو التربية أو الأخلاق إنما استمدوها من هذه النظريات القديمة وخاصة الأساطير . وقد قامت هذه النظاريات فى مواجهة التحديات التى قام بها المفكر المسيحى الغربى بطرح النظرية الروحية التى تؤمن بوجود الروح بوصفها عنصراً قائماً بذاته فى هذا الكون فجاءت النظرية المادية معارضة لها ومن هنا قام الصراع بين الفلسفة المثالية والفلسفة المادية ومن هنا كان إصرار الفلسفة المادية على أن المادة هى الوجود الأصلى للأشياء غير أن الفلسفة المادية لم تقف عند هذا الحد بل كشفت عن موقفها فى صراحة حين عارضت الدين جملة وقالت أنه نظام من وضع البشر لأنه لا يتفق مع النظرة المادية أو لأن النظرة المادية إنما كانت منطلقاً لإنكار وجود الله والحياة الأخرى بعد هذه الحياة .

---

(١) دكتور أحمد حسن عبد الرحيم (١ — ١٩٦٩ الأقلام) .

(٤)

انطلق المذهب المادى من نقطة المعارضة لمفاهيم الدين وعلى عكسها تماماً فقال أن الوجود قديم وان المادة هى مصدر كل كائن ، وأن لها خصائص ونواميس عاملة لا أثر للتدبير فيها وقال دعاة المادية : أن ما أتت به الأديان من وجود مدبر حكيم وراء هذا العالم فهو من الزخارف الكلامية التى ولدها الخيال وتمسك بها الجهال وأن الدين يقومون عليها رجال لهم مصالح ذاتية وتقاليد وراثية وقد أعلنت الفلسفة المادية اعتماداً على بعض النظريات العالمية أن المادة لا تنقسم إلى ما لا نهاية بل تقف عند الجوهر الفرد غير أن العلم لم يلبث أن تخلى عن هذه النظرية بعد أن اكتشف أن الذرة قابلة للتجزئة وبذلك سقطت النظرية المادية نتيجة ذلك سقوطاً بشعاً : لقد تعثر مفهوم المادة القديم وأصبحت المادة طاقة .

لقد أثبت العلماء أن الذرة قابلة للتجزئة وأن ما أسموه الجوهر الفرد ليس إلا «فرض» من الفروض التى قدمها العلم فى فترة من فترات البحث .

يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : إن أخطر النتائج العلمية التى نشأت عن التقدم فى البحوث الفيزيقية هو إفساح المجال للحرية حتى فى عالم الفيزيقا وهو أول درجة من درجات المادة، ذلك أن الطاقة التى تتبدد من الذرة عند انفلاقها فتذهب يميناً أو شمالا لا يمكن تحديد مسارها .

وقد كانت معارضة المادية القديمة للأديان من هذا الوجه ، نعنى من جهة القول بالحتمية المستمدة من طبيعة الأشياء ، حتى ذهب غلاة المادية إلى القول بأن المادة هى كل شىء وهى أصل العقل والشعور وليس العقل إلا إفرازات المخ كما تفرز الكبد الصفراء .

* * *

وقد أشار العلامة هالدين فى كتابه المادية فقال : « لقد ماتت النظرية المادية بالنظرية القائلة بأن الذرات مركبة من الكهرباء وبروتونات موجبة والكترونات سالبة .

« وطغت عليها نظرية (الكوانتم) التى تقول أن الكهربائية تجىء شحناتها من المجهول وتذهب إلى المجهول . إن نظرية الكوانتم قد قضت قضاءاً مبرماً على النظريات الميكانيكية . ومن هنا لم يعد المذهب المادي يستطيع الإجابة على السؤال .

« إن الحقيقة التى ظل الإنسان يبحث عنها دهوراً مديدة : روحانية فى جوهرها والروح لا يدركها العقل » .

* * *

ولا ريب أن القول بإنكار عالم الميتافيزيقا : عالم ما وراء الطبيعة لم يقل به العلم وإنما قال به الفلاسفة الماديون وحدهم ، ذلك لأنه المنطلق الوحيد إلى الغاية التى قامت على نظريات ومذاهب مختلفة منها المادية الجدلية والمادية التاريخية .

(٢)

نظرية التطور : والتطور الاجتماعى

لم يكن دارون أول من نادى بالتطور فقد سبقه فى الغرب (لامارك)ومن قبله بأكثر من ألف سنة قال به كثير من علماء المسلمين : وأسبقهم فى ذلك ابن مسكويه الذى قال فى كتبه : « إن النبات أسبق فى الوجود من الحيوان » وقسم النباتات إلى ثلاث مراتب . . أولاها ما نجم من الأرض ولم يحفظ نوعه ببذر ، ذلك أنه فى أفق الجماد ، والفرق بينهما هذه الحركة الضعيفة فى قبول

الحياة وقال ابن مسكويه : بنشوء الحيوان من النبات وإن الإنسان ناشيء من آخر سلسلة البهائم ، وإنه بقبول الآثار الشريفة من النفس الناطقة وغيرها يرتقى حتى رتبة أعلى من مراتب البشر كما عرض ابن خلدون تسلسل بعض الأحياء من بعض غير أن دارون حاول أن يقول بتطور الإنسان من نوع سابق له من الكائنات ويستدل على ذلك بأدلة من التشريح المقارن ولم يزعم دارون أن الإنسان قد انحدر من القرد مباشرة ولكن من نوع من الكائنات أبسط منه تركيباً . ثم اجتاز مرحلة تطور فائقة . ويمكن القول أن نظرية دارون قد اكتشفت عدداً من الحقائق العلمية الهامة أهمها أن جميع الكائنات الحية يختلف بعضها عن بعض حتى أفراد النوع الواحد وإن لم يكن ذلك فى كل التفاصيل . كما استنتج إردن أن بعض الأفراد والسلالات يتفوق على غيرها بالتنازع على البقاء وهى تلك السلالات والأفراد التى لها من الصفات ما يجعلها أكثر ملائمة لظروف البيئة التى تعيش فيها وهذا ما عبر عنه دارون بالانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح .

* * *

ونظرية دارون فى مجال البحث العلمى هى مجموعة من الفرضيات القابلة للخطأ والصواب ، غير أن محاولات جرت لحمل النظرية إلى غايات أخرى لخدمة الفلسفة المادية والهدف الذى يقوم من ورائها ، وقد كشفت بروتوكولات صهيون عن هذا الاتجاه فى إحدى البروتوكولات بالنص : « إن دارون ليس يهودياً ولكنا عرفنا كيف ننشر آرائه على نطاق واسع ونستغلها فى تحطيم الدين] ويمكن القول أن ماجاء فى مذهب دارون ينافى صريحاً ماجاء فى الكتب المقدسة عن الخليقة وأصل الإنسان ومن هنا كانت معاونة رجال الدين له بينما جاء فى الكتب المقدسة لم يكن نصاً سماوياً وإنما كان من اجتهادات البشر . غير أن الخطر بدا منذ أن أخذ هربرت سبنسر هذه النظرية البيولوجية ، وحولها إلى

مفهوم (تطور اجتماعى) ومن هنا نشأ مفهوم مادى خطير يفرض نفوذه على الاجتماع والتاريخ والنفس والأخلاق .

ومن تلاميذ دارون : توماس هكسلى والفرد ولاس وأرنست هيكل وهم الذين أذاعوا النظرية مع شيء من التحوير « فقد باتت النظرية وكأنها أخرجت لرجال السياسة وعلماء الإجتماع أكثر مما أخرجت لعلماء الأحياء ، وتركت أثر الصراع من أجل البقاء فى أوساط السياسة والحرب « وكان مبدأ بقاء الأصلح أثره فى الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها ، وظهرت من خلال ذلك نظرية القوة والتمييز العنصرى والشعوب المختارة كما صنعت نظرية القوة عند نيتشة ومن ذهب مذهبه من علماء الجرمان » «ومنها وجدت الاشتراكية سلاحها فى حين وجدت الارستقراطية أيضاً سلاحها فأعلنوا عن أنهم أنفسهم الممتازون والمختارون الذين ورثوا مزايا الأجداد سادة البشر ومالكو العروض وصانعو التاريخ » «وقد تلقف نظرية التطور معلنو الحرب على الأديان فأفاضوا فى الادعاء بهزيمة الدين وانتصار العلم وبأن الإنسان وحده صاحب القداسة والاتصال بالملأ الأعلى وأن الكون قد خلق من أجله ولخدمته » إن هربرت سبنسر هو الذى نقل نظرية التطور من الميدان العلمى إلى الميدان الفلسفى لقد رأى سبنسر أن التطور الاجتماعى تطور حتمى لاشعورى وإنه لا يسير لأغراض معينة بل إنه ينمو نمواً طبيعياً وأن المجتمع وحدة عضوية متجانسة وتقول أحدث الدراسات عن نظرية سبنسر[1] إن النظرية التى جاء بها سبنسر سابقة للتجربة . وأن سبنسر انتقى من المصادر ما يدعم نظريته وأغفل قصداً سواها ، وأنه قام بتعميمات سريعة وأنه لم يفرق فى تأديته للحوادث والظواهر بين معنى الظاهرة الحقيقى ومعناها المجازى وأنه تعمد أن يقول أن أساس الدين هى عبادة القوى الطبيعية وعبادة الأرواح .

---

(١) مارسيل عيسى ـ جامعة باريس ١٩٤٤

(٣)

التطور الفلسفى

حاول مصممو نظرية التطور الاجتماعى القول بأن كل شىء يتطور وأنه لا يوجد شىء ثابت على الإطلاق وإن التطور يجعل كل طور أفضل من الطور الذى سبقه ، وقد كان واضحاً أن صياغة النظرية على هذا النحو هى محاولة من محاولات متعددة لإنكار عنصر الثبات الأصيل القائم فى الكون والوجود ، ومعارضة الأديان والحقائق الكبرى والنواميس الأساسية التى يعترف بها العالم وكذلك انتقاض مفاهيم المحافظة والقديم ووصفها بأنها مفاهيم جامدة وقد كشف العلم عن أخطاء نظرية التطور الفلسفى التى أريد فرضها على المجتمعات والثقافة فى معارضتها الأساسية لقوانين التوازن والتكامل بين الجديد والقديم والمحافظة والتجديد وبذلك خرجت نظرية التطور الفلسفى عن مفهوم العلم الذى يقرر أن القديم والجديد عنصران هامان من عناصر الحياة وأنهما متلازمان وضروريان لبقاء الحياة . وأنه لا سبيل لظهور الجديد إلا من القديم كما كشف العلم عن الفارق بين التطور والتطوير . وأن التطور قد يكون تحسنا ورقيا وقد يكون تأخرا وانتكاسا .أما التطوير فهو الذى يعنى التغيير التصاعدى الذى يهدف إلى الترقى .

(٤)

أن أخطر ماحاولت نظرية التطور الإجتماعى الوصول إليه لخدمة أهدافها هو القول بأن التطور قانون أخلاقى يفرض نفوذه على القيم الإنسانية ويعرضها لخطر التغير مع الأزمنة المختلفة كان يقال أن لكل عصر أخلاقه وأن ليس للأخلاق مقاييس ثابتة أو أحكام ثابتة .

وأن علاقة الإنسان بالإله تعتبر من مفاهيم الأخلاق .

وقد ثبت زيف هذه الفرضية ومجافاتها للحقائق العلمية الأصيلة .

(٢)

الفصل الثانى

العلم والعلمانية

بدأ منطلق العلم الحديث من الخطوط الذى رسمها المنهج العلمى التجريبى الذى شكله المسلمون ثم ساروا به شوطاً وحققوا به نتائج هامة ، فى ميادين العلوم الطبيعية والكيميائية ثم انتقل ميدان العلم إلى أوربا فاتخذ طابعاً مغايراً ؛ كان فى العالم الإسلامى يتحرك داخل إطار القيم الاسلامية وأبرزها التوحيد والأخلاق والإيمان بالغيب ، وكان موجهاً إلى الخير والبر والتقدم الجامع بين الروح والمادة غير أن أوربا لم تقبل غير مفاهيم العلم وحدها وأغضت عن أطارها ، وطوابعها الإسلامية ومضت بها شوطاً من خلال إطار يختلف : قوامه مفاهيم المسيحية والكنيسة وقيودها ونصوصها التاريخية والجغرافية المسبقة التى أخذت طابع القداسة ومن ثم أخذت تتعارض مع مقررات العلم . ولقد كان لحملة الكنيسة على العلم أثرها فى إندفاع العلم إلى الخروج من نطاقها وقيودها ، ثم كان لمنجزات العلم التى هزت النفس البشرية أثرها البعيد فى الإستعلاء بالعلم عن كل ماعداه من قيم ، فلما زادت حملة إضطهاد الكنيسة للعلم كان ذلك دافعا للعلم إلى الخروج نهائياً من ساحة القيم كلها وإقامة نفسه فوق القيم عالما مستقلا خالصا لايخضع بل يخضع سواه . ومن هنا كان ذلك الانفصام بين القيم التى يجمعها الفكر فى إطار واحد ، دافعاً إلى التمزق الذى وصل إليه العلم بعد سنوات طويلة حين نما عقل العالم نموا كبيراً بينما ظل جسمه ضامراً نحيلا ، وبدأ صراع عنيف مخيف كان كله على حساب الدين الحق ، وعلى حساب قيم الفكر الدينى

الذى سيطر عليه الفكر البشرى وحاربه فى عنف . ومن الحق أن يقال أن الحرب كلها كانت موجهة إلى مفهوم الدين الذى عرفته أوربا ، لا إلى مفهوم الدين الحق ، وأن قوى كبرى أرادت تمويه الحرب وتوجيهها إلى الدين كله بحسبانه هو تلك المفاهيم التى كانت تعرفها أوربا من خلال الكنيسة ، ذلك أن تلك القوى كانت تستهدف ضرب الدين كمقوم إنسانى أصيل ، للقضاء عليه وتزييف مفاهيمه وإثارة الشبهات حوله حتى يتحقق لها الوصول إلى أضخم هدف من أهدافها : إنكار الألوهية والحياة الأخرى .

* * *

وخير مايصور هذا المعنى ماذكره الأستاذ أبو الحسن الندوى :

كانت الكنيسة تحارب العلم لأن الجهالة سندها الأكبر فى الاحتفاظ بسلطانها على الجمهور وماتلقنه الكنيسة كان مجموعة من الأساطير لاتثبت لضياء العلم ، فقد كانت تحارب الحرية ، لم تقدم المسيحية للنهضة طريقا ولكن النهضة بدأت بعيداً عن المسيحية والكنيسة .

وبدأت النهضة على أساس غير دينى (secular) وارتكزت على محور يبتعد فى دورانه رويداً رويداً عن الدين والعقيدة وماحولها. وعادت إلى منابعها قبل المسيحية إلى التراث اليونانى والرومانى القديم ، وتنكرت لأساتذتها الذين علموها العلم فى محاكم التفتيش وطرد المسلمون من الأندلس بعد أن تعلمت منهم المنهج التجريبى وعاشت أوربا قرونا كاملة بشخصية مزدوجة: مسيحية ووثنية » .

ومن هنا نشأت تلك المعركة التاريخية التى أطلق عليها الصراع بين الدين والعلم ، وهو صراع استمر زمنا ثم خفت حدته عندما عدل العلم موقفه ، وتخفف من غلوائه ، ومن ثم تحولت المعركة إلى صراع بين الدين والفلسفة .

* * *

ذلك أن العلم لم يلبث بعد أن قطع شوطا يتبين له أنه لم يصل إلى ما كان يحاول وخير مايصور هذا ما ذكره عالم من كبار العلماء حين قال : « كان العلم فى أذهان واضعيه الأوائل يراد به تفسير الوجود ، وكان العلماء فى أول عهدهم بالعلم يهتمون بمعرفة (لماذا) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها . فلقد ترك العلم للفلسفة منذ عهد بعيد مهمة الإطلاع ببحث العلل النهائية للوجود بعد أن عجز فى هذا المضمار ولم يسفر بحثه فيه عن شىء البتة » .

والعلم لايفسر شيئاً وإنما هو يربط وينسق ويلاحظ ملاحظة منهجية وبالتالى يصف ويقرر ، وأن هذا ليس فهما للأشياء ولكن تعرف عليها » .

ومعنى هذا أن العلم عجز ، ، وأن الفلسفة مع الأسف لم تستطع أن يحتفظ بالطريق الذى التمسته فغلبتها المادية وسيطرت عليها .

ذلك أن النزعة المادية حين برزت كانت القوى التى تدفعها قوية ، إلى الحد الذى مكنها من السيطرة ، بينما ضعفت النزعة المثالية والروحية نهائياً وحوربت وبعنف حتى توارت .

وقد بدأت الفلسفة المادية منطلقها من احتقار الإنسان وتهديم القول بأنه سيد الخليقة والتشكيك فى أن الروح هى ميراث الإنسان دون سواه من سائر الخلائق .

(٢)

يؤكد أميل بوترو فى كتابه العلم والدين : ان النزاع فى القديم لم يكن بين العلم والدين بل بين الفلسفة والدين وأن هذا النزاع قد استمر زمنا طويلا منذ فجر الفلسفة فى القرن السادس قبل الميلاد حتى نهاية عصر النهضة . وعنده أن ديانة قدماء اليونان لم يكن إلا مجموعة من الأساطير والشعائر والطقوس التى

يمارسها المواطنون ، وقد نشأت الفلسفة اليونانية نفسها من الدين ، ولكنها ما أن استقلت عنه حتى راحت تحاربه وتسخر منه وتذهب إلى أن البشر هم الذين خلقوا الآلهه ، وكان الدين (اليونانى) يؤمن بالضرورة العمياء فجاءت الفلسفة اليونانية فآمنت بالعقل البشرى وحل العقل المتسامى محل الإله .

وأصبح عند أفلاطون هو (الصانع) وعند أرسطو (المحرك الذى لايتحرك) .

وعند الرواقيين (زيوس) وجاء أفلوطين فنادى بوحدة الوجود » .

ويمضى أميل بوترو فى تصوير قصة الصراع بين الفلسفة والدين فيقول : « ولما ظهرت المسيحية اضطرت إلى اصطناع الفلسفة اليونانية لمحاربة الوثنية فقدمت المسيحية من جانبها الايمان بالوحى السماوى والاحساس ببؤس الانسان وحرمانه ، والإيمان بإله المحبة الذى تجسد مسيحاً لخلاص البشر ، ثم يشير إلى حركة الاصلاح الدينى التى انبثقت من البروتستانتية فيقول : هذه الحرية الدينية شملت كذلك الحرية العلمية التى لجأت إلى المشاهدات والتجارب لا الاعتماد على الأوهام والسحر . وكان ماوضعه جاليلو من أسس العلم التجريبى ارهاصا لما ظهر بعد ذلك على يد بيكون وديكارت ، ومن هنا ظهرت مشكلة الصلة بين العلم والدين فى ثوب جديد ورأى ديكارت فى « العقل » الرابطة التى تجمع بين الانسان والله ، وبين الله والعالم .

« ثم أخذ العلم يتقدم بسرعة معتمداً على التجربة الموضوعية وحدها ، فشرع يؤمن بمناهجه ويتجاهل الدين ، ثم أشار إلى ماتطورت اليه الصلة بين الفلسفة والدين حين جاء أوجست كونت صاحب المذهب الوضعى وقرر أن اللاهوت والميتافيزيقا وهميان ، ودعا الى سيادة العلم واخضاع الدين تحت جناحه وجاء سبنسر فقال أن الدين يخضع لقانون التطور كأى ظاهرة أخرى .

ودعا هيجل : إلى عبادة الحق والخير والجمال التى تمثل ثالوثاً جديداً يحل محل المسيحية ، فالحق هو العلم والجمال هو الفن والخير هو المحبة وقال أن الفلسفة العلمية تحل محل الأديان ، وعلت أصوات الفكر المسيحى لتواجه هذه الحملات الضخمة التى شنتها اليهودية التلمودية فدعا رجاله الى تطهـــيره من العناصر الدخيلة عليه . كالفلسفة والميتافيزيقا واللاهوت والسلطة الكاثوليكية .

وقال ولهلم هرمان أن الصيغ اللاهوتية فى الكتب المقدسة إنما تمثل تجارب دينية تخص صاحبها كالقديس بولس مثلا . ودعت البروتستانية إلى إلغاء سلطة الكنيسة . وحاولت التمييز بين الايمان والعقيدة .

(٣)

لم يلبث هجوم الفلسفة على الدين أن توسع وعمق حين سيطر المفكرون اليهود :

فقال ماركس أن الدين أفيون الشعوب وأنه مجموعة من الأساطير ابتدعها الاقطاعيون الرأسماليون لتخدير الجماهير الكادحة، وقال فرويد أن الدين ناشىء عن الكبت وقال دوركايم : أن الدين ليس فطرة ، وكذلك عمق الهجوم على الأخلاق ، فقال ماركس : ان الأخلاق مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى المتطور على الدوام ، وقال : فرويد : أن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى فى صورتها العادية .

وقال دوركايم . الأخلاق شىء لايمكن الكلام عنه ككيان ثابت وكان هذا التطور مصداقا لما جاء فى بروتوكولات صهيون : «أن دارون ليس يهوديا ولكننا عرفنا كيف ننشر آرائه على نطاق واسع ونستغلها فى تحطيم الدين . لقد رتبنا نجاح (دارون ـ ماركس ـ نيتشه) بالترويج لآرائهم ، وأن الأثر الهدام

للأخلاق الذى تلتشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد».

(٤)

الغيبيـــات

كان انكار الفلسفة لوجود عالم آخر خلف هذا العالم المحسوس هو أكبر الأخطار التى واجهها الصراع بين الفلسفة والدين ، فقدذهبت الفلسفة الوضعية إلى القول بما أسمته «خرافة الميتافيزيقا» فهى تذهب إلى أن جميع قضاياالميتافيزيقا والمطلقات فى المعرفة والأخلاق، هى أشباه قضايا وخرافات باطلة ، إذ أنها لاتخضع للتحقيق العلمى ولا تقع ضمن نطاق التجربة الحسية» ، ولاريب انفكرة انكار الغيبيات هى قضية فلسفية وليست قضية علمية : فالعلم لا ينكر الغيبيات ولا يبحثها والعلماء بعد تحطيم الذرة آمنوا بأن هناك عالماآخر ، ويقول العلماءأن الحواس ليست هى الحكم الأول والأخير فى قضية الغيب ، وأن هناك محاولات متعددة تعمل على تحطيم الحواجز على عالم المجهول ، وأنه ليس هناك عدم مطلق وراء عالم الشهادة ، وليس معنى عجز الحواس عن استكناه عالم الغيب هو عدم وجوده ، وهناك أمثلة كثيرة على التلقى من عالم الغيب كسماع الأصوات الصادرة من بعيـــد ، يقول كريسى موريسون . رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك : إن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم تثبت وجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة .

* * *

ولاريب أن محاولة الفلسفة فى انكار عالم الغيب إنما يستهدف إلى إقرار مذهب من مذاهب اليهودية التلمودية وهى انكار البعث والجزاء والعالم الآخر وأن الإلحاح على تشكيك الفلسفة للناس فى هذه الحقيقة إنما يهدف إلى دحر مفهوم المسئولية والجزاء .

يقول أحد الباحثين : أن فكرة انكار الميثولوجيا والغيبيات هى وسيلة لتحطيم القيم الأخلاقية أساساً ولإلغاء مسئولية الفرد عـــلى أعماله فى المستقبل .

وأن معنى انـكار الغيب هو تدمير لرسالة الإنسان ومسئوليته ،وجزاءه، ومحاولة لالغاء حقيقة أكيدة هى أن الموت ليس نهاية الانسان وأن الحياة فى هذا الكون ليست إلا مرحلة إلى حياة أخرى .

(٣)

الفصل الثالث

العلمانية

لم يشتق مصطلح العلمانية من العلم وإنما اشتق من (معارضة الدين) أو من اللادينية ذلك أن كلمة علمانى إنما هى ترجمة لكلمة Secular ومعناها لادينى وهو ينصب أساساً على مبدأ واضح : هو فصل الدين عن الدولة وهو هدف أصيل من أهداف الحركة التى تدافعت بقوة لتحطيم نفوذ الخلافات المسيحية التى قامت على أساس وضع الحواجز بين المجتمع المسيحى والجيتو اليهودى المعزول بقوة ، وفى عشرات من الأوضاع عن الإرتباط بالمجتمع أو السياسة أو غيرها .

وقد استهدفت الثورة الفرنسية التى قامت أساساً فى محافل الماسونية وفق الفلسفة اليهودية التلمودية . دعم حركة دخول اليهود إلى المجتمع الأوربى واعتبرت فصل الدين عن الدولة كأساس لهدم الحواجز التى كانت تحول دون تسنم اليهود مراكز الصدارة فى المجتمعات والمحافل السياسية . وعزل مفهوم الدين (بمفهومه المسيحى) عن التربية والتعليم والسياسة وتحطيم السدود الأخلاقية التى تحول دون استشراء الإباحة والإلحاد .

يقول الدكتور محمد رضوان : هذه الفكرة لم تنشأ فى أوربا إلا كرد فعل على الأخطاء التى ارتكبت من رجال الدين باسم الدين كاضطهاد الأقليات الطائفية مثلا . فالتاريخ يحدثنا عن الحروب بين الطوائف الدينية إذ كانت

الأكثرية الساحقة تحاول فرض معتقدها على الأقليات . فمن هنا كان اضطهاد الكاثوليك للبروتستانت ، وكذلك كان اضطهاد اليهود من قبل الدول المسيحية عامة : بروتستانية وكاثوليكية .

ولكن هذا الاضطهاد لم يكن ليحدث لو أن التسامح الديني وحرية المعتقد كانا قاعدتين من قواعد الدولة الحاكمة . غير أن الأمر الذى ساعد أكثر فأكثر على نجاح فكرة العلمانية فى أوربا هو عجز السلطات الدينية عن مسايرة حضارة العصر بشكل جعل بعض المفكرين لم يترددوا فى نعت الدين عندهم نعتا محقراً . (وأشار إلى وصف أوجست كونت وليفى برول الدين بأنه جاء لينظم الشعوب البدائية) وكذلك فان فكرة كارل ماركس بأن الدين أفيون الشعوب هذه الفكرة لم تكن لتكون لو أن رجال الدين كانوا على المقدرة الكافية لمواجهة الحضارة الحديثة بمشكلاتها العديدة المختلفة . فالدين برجاله فى أوربا وقف وقفة المتفرج خلال الفترة الأولى من نشوء وإنتشار الأفكار والتيارات الفلسفية المعاصرة، وقد فات الباحثون أن أوجست كونت وليفى برول وماركس كانوا جميعاً من فلاسفة الماسونية التى قامت لنقض المجتمعات المسيحية لحساب اليهودية التلمودية .

وأنهم نقـــلوا مخططات الإنقـلاب العالمى والمؤامرة التى كشفتها البروتوكولات من بعد ، إلى صعيد العمل الصريح الواضح الذى ظهر أولا فى رجال الموسوعة وفولتير ثم تحقق عملياً فى الثورة الفرنسية والثورات الأوربية التى اقتلعت جذور الحكومات المسيحية الأوربية . ومن الحق أن نقول مع الباحثين أن « الذى ساعد على نشوء العلمانية فى أوربا : جاء نتيجة الأخطاء التى أرتكبت باسم الدين فأثارت بعض المفكرين عليه وسمحت لهم باغتنام الفرصة لمحاربته والسعي لهدمه » .

ذلك أنه من الحق أن المسيحية الغربية والكنيسة عجزت عن التجاوب مع النهضة ولكن القوى القادرة استغلت هذا فى سبيل تحقيق أهدافها .

* * *

فمن الحق أن نقول أن علمانية الدولة أو لادينية الدولة هى هدف صهيونى أساسى يفسح المجال أمام اليهود حتى لاتقف قوائم الدين أمام نفوذهم وانبثاثهم فى مختلف البيئات .

(٢)

كان مقرراً أن يكون هدف « العلمانية » هو فصل الدين عن الدولة ، والتفريق بين المجتمع الكنسى والمجتمع المدنى وإعطاء كل منهما استقلاله دون أن يخضع أحدهما للآخر ، غير أن الذى حدث فى أوربا لم يكن كذلك وإنما كان إعطاء الدولة القدرة على إخضاع الدين وضربه ، فان العلمانية القائمة على أساس على الفلسفة المادية لم يلبث أن فاضت عن المذهب اللادينى الذى جعل غايته محاربة الدين وإقصائه عن مختلف مجالات الحياة العامة وكذلك إقصاء رجاله ، والحد من تأثيرهم بعزله عن المعاهد الثقافية والعلمية ومنع التعليم الدينى من المدارس ومصادرة أملاك الكنيسة وسيطرة العلمانية على الحكم والمدرسة واستطارت الحملة على ما يسمى بالحكومة الثيوقراطية واستهدفت بالحملة إبعاد الدين ومقرراته عن تكوين الثقافة أو الفكر السياسى والإجتماعى .

(٣)

هل حققت العلمانية فى أوربا أهدافها وهل استطاعت أن تهزم الدين :

من الحق أن يقال أن التجربة التى استمرت الآن ثلاث قرون لم تستطع أن تحقق هدفها فى هدم الدين فى المجتمعات الأوربية أو تخرجها إخراجاً كاملا

من مضامينه وقيمه ، بالرغم من حملتها الضخمة على الألوهية والأخلاق والبعث .

وأن المجتمعات الأوربية بعد إنسحاب الدين من التوجيه السياسى ثم التوجيه الاجتماعي ما تزال متدينة . أما الأهداف التى دعت العلمانية إليها فإنها قد عجزت عن تحقيقها وأهمها المساواة وإحلال الوطنية والقومية والأيدلوجيات السياسية ، فقدفشلت هذه المذاهب تماماً .

فالعلمانية — كما يقول الدكتور محمد رضوان لم تنجح فى تحقيق غايتها وهى إقامة دولةومجتمع ينحصر فيها الدين على الصعيد الفردى و«لم تستطع العلمانية أن تحصر الدين فى الفرد فقط ولم تستطع أن تجعل أبناء الطوائف المختلفة الذين يعيشون فى بلد واحد يشعرون أنهم أخوة فى الوطن بصرف النظر عن كونهم غير أخوة فى الدين» و «العلمانية يشق عليها أن تنجح فى بلد يكون فيه الشعور الدينى يقظاً ، والواضح اليوم أن الشعور الدينى لم ينجح حتى فى البـــلاد التى تدين بالإلحاد رسمياً » . « لقد قامت الدولة العلمانية لكنها فى الواقع لم تقم الدولة العلمانية والمجتمع العلمانى إلا بشكل صورى .

أعنى أن هذه الدول لم تتخل عن دينها وأن الدين لا يزال له نفوذه وهنا واضح حالياً فى عدة ميادين ، لذلك نرى أن العلمانية تظهر كل يوم وجهاً جديداً من أوجه عجزها وتقف مكتوفة الأيدى إزاء المشكلات التى يعانيها المجتمع الذى ولدت فيه .

(٤)

ويرى الدكتور فاضل الجالى أن هدف العلمانية الأول هو إحتواء التربية والتعليم للسيطرة على إخراج أجيال لا تعرف الدين أو الأخلاق ، يقول : لا نعتقد أن العلمانية حققت أهدافها في البلاد التي طبقت فيها بل وقعت فى

تناقضات واضحة ولا سيما في حقل التعليم ولا شك أن الهدف الأول من العلمانية فى العلم ، ولأجل هذا أبعدت الثقافة الدينية عن المدارس العامة فى كل من فرنسا والولايات المتحدة ولكن أبناء الشعب الذين يؤمنون بأهمية الثقافة الدينية اضطروا إلى إرسال أبنائهم إلى مدارس دينية خاصة بدل إرسالهم إلى المدارس العامة » .

(٥)

حاولت الصهيونية العالمية والاستعمار طرح قضية العلمانية فى المجتمعات الإسلامية من خلال نفوذ الإحتلال الذى فرض على البلاد العربية والإسلامية أنظمة غربية كما فرض عليها أن تقتبس قوانينه وتشريعاته من القوانين الغربية التى تقوم على أساس فصل الدين عن الدولة أساساً . غير أن البلاد العربية والإسلامية لم تجد نفسها من خلال هـــذه الأنظمة وعاشت حياة سياسية واجتماعية وتربوية مضطربة قلقة نتيجة للفصل بين الإسلام والمجتمع ، أسوة بالمجتمعات الغربية التى فصل بينها وبين الدين وكان الخطأ فى ذلك هو عدم تقدير الفوارق الدقيقة بين الإسلام وبين الأديان الأخرى . حيث لا يوجد للاسلام مؤسسة كالكنيسة الغربية ، وليس هناك تاريخ دام فى الصراع بين الفرق ، ولا اضطراب فى المفاهيم ، ولا صدام بين الدين والعلم بل على العكس من ذلك فقد جاء الإسلام ديناً ومنهج حياة ، وكان مصدر أساسياً للمنهج العلمى التجريبى .

ومن هنـــا فلم توجد ضرورة حقيقية لأن يعتنق الفكر الإسلامى أو المجتمعات الإسلامية مبدأ العلمانية إذ أن العوامل التى كانت سبباً فى أوربا لاعتناقه لم توجد إطلاقا فى المجتمع الإسلامى ولا فى الفكر الإسلامى .

وفى العالم الإسلامى لم تقع خلافات ولا معارك دموية ، وكانت روح الإسلام قابلة لتغير الأزمان والبيئات ، وكان منهج الإسلام بطبيعته مرناً حياً

قادراً على التحرك والتجارب مع الأحداث على نحو يكشف عن أنه دين الإنسانية الحق الذى يمثل الفطرة الإنسانية فى شمولها وتكاملها وفى الاعتراف بنوازعها ومطالبها والاستجابة لها ولم يكن الإسلام موضع صراع أو جدل أو خلاف على النحو الذى عرفته أوربا ولم يشارك الاسلام فى الاستبداد وظلم الملوك والأمراء بل على العكس من ذلك كان دائماً ضد الظلم والاستبداد وقد كان الإسلام قادراً على استيعاب كل تقدم علمى وصناعى وفكرى وفى نفس الوقت فإن الفكر الإسلامى استمداداً من مصدره القرآنى الأصيل لا يستجيب للفصل بين الدين والدولة أو بين الدين والمجتمع، لاختلاف طبيعة الإسلام كدين ونظام مجتمع عن المسيحية فى أصلها وهى مجموعة وصايا وبالنسبة لها كتطبيق فى المجتمعات الرومانية التى كان الدين فيها لله والحكم لقيصر بينما كان الدين والحكم فى الإسلام منذ أول اليوم تشكل فيه المجتمع الإسلامى لله خالصاً هذا فضلا عن الإسلام لا يقر حرية الإلحاد ولا يقبل أن تكون منفصلة عن التربية الدينية والأخلاق. ومن حق أن يقول الدكتور محمد رضوان أن الدعوة إلى العلمانية فى عالم الإسلام تكشف عن الجهل بحقائق الإسلام وتاريخه الفكرى الناصع وقدرته على استيعاب كل تقدم علمى وصناعى وفكرى بل وحثه اتباعه على إحراز هذا التقدم، فقد كان الاسلام قادراً بمرونته وقدرته الكامنة على إعطاء الحياة المتجددة قوتها، ولاريب أن الصهيونية العالميـة إنما تريد أن تخرج المجتمعات الاسلامية والعربية من معايير القانون الأخلاقى وذلك بطارح مختلف هذه الدعوات الهدامة التى فشلت فى مجتمعاتها الأساسية ولم تستطيع أن تحقق شيئاً، وأثبتت أن الحكومة العلمانية عاجزة عن تحقيق الوحدة الاجتماعيـة، أو مقاومة التحديات المختلفة التى تواجهها. هذا فضلا عن أن «الصلة المحكمة التى تربط الدين بالسياسة والتى هى من خصائص الاسلام ومميزاته لا تحظى بالقبول عند كثير من المسلمين الذين تلقوا ثقافتهم عن الغرب والذين نشئوا على أساس الاعتقاد بأن لكل من مسائل الدين والحياة العلمية عالمها الخاص»

ذلك أن تعاليم الاسلام إنما تعمل أساساً على « تنظيم العلاقة بين الانسان وخالقه ، وفى نفس الوقت بين الانسان والانسان وذلك » بوضع نظام محدد للسلوك الاجتماعى والأخلاقى يجب على المسلم اتباعه .

(٦)

ومن الشبهات التى اتصلت بالعلمانية : شبهة أن الدولة الاسلامية هى دولة ثيوقراطية :

يقول أحد الباحثين : إن الجواب يكون بالنفى القاطع إذا كنا نعنى بالثيوقراطية : ذلك النظام الذى نقله التاريخ عن أوربا فى القرون الوسطى عندما حاولت طبقة رجال الدين أن تتمسك فى يدها بأزمة السلطة السياسية العليا ، وذلك لسبب بسيط هو أنه لا وجود فى الاسلام للكهانة ولا لطبقة ممتازة تدعى رجال الدين ولهذا يستحيل أن يوجد فى الاسلام مؤسسة تشبه الكنيسة المسيحية التى تختص بأسرار الدين وطقوسه . ولما كان كل مسلم بالغ له الحق المطلق أن يمارس بنفسه شعائر الدين فليس هنا شخص أو هيئة اجتماعية تستطيع أن تزعم لنفسها نوعاً من القداسة اكتسبتها عن طريق شعيرة دينية أو طبقة كهنونية اختصت بها من دون الناس . ومجمل القول أن تعبير الثيوقراطية كما يفهمه الغرب لامعنى له على الاطلاق فى البيئة الاسلامية . وأن للفكرة الاسلامية نظاماً اجتماعياً متميزاً خالصاً لها وحدها يختلف عن غيره من عدة وجوه عن الأنظمة السائدة فى الغرب « إن الاسلام أكثر من نظام سياسى : إنه منهاج كامل للعقيدة والقيم الأخلاقية ، إنه نظرية اجتماعية شاملة ودعوة إلى الاستقامة والاعتدال فى كل الأمور الشخصية ، إنه ايدلوجية تامة تعتبر كل مظاهر الحياة الأدبية منها والمادية والروحية والعقلية ، الفردية والاجتماعية كلا لا يتجزأ . » ولما كانت ايدلوجية الاسلام تامة مستقلة بذاتها عن سواها فإن معتنقيها لا يمكن أن يعيشوا حياة إسلامية صحيحة بمجرد اعتناقهم لعقائد الاسلام .

ويقول الدكتور فاضل الجمالى : ان تطبيق العلمانية فى البلاد المسيحية أسهل منه فى البلاد الاسلامية وذلك لما جاء فى إنجيل متى من أن « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، قد يكون لأهم من ذلك : أن المسيحية لم تشمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والجماعة ، أما الاسلام فبالاضافة إلى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق فإنه جاء بنظام شامل يمس حياة الانسان فى شتى نواحيها من المهد إلى اللحد ، وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الانسانية : وقد أكد غير واحد من أساطين علماء الشريعة فى العالم أهمية الشريعة الاسلامية وما تحويه من ثروة ذاخرة واستعداد لمجابهة الظروف والأحوال المتطورة « فعلمانية الدولة فى البلاد الاسلامية معناها تنصل الدولة من الشريعة الاسلامية إلى أهم عامل من عوامل توجيه حياة الشعب اليومية » ولئن كانت العلمانية لاتلائم الشعوب الاسلامية بصورة عامة فإنها لاتلائم الأمة العربية بصورة خاصة لأن الأمة العربية مدينة للإسلام فى تكوينها الحاضر ، ويجب أن تكون حاملة رسالة الاسلام إلى الانسانية جميعاً ، فالفصل بين الدين والدولة معناه تجرد الحكومة العربية من أهم مقوماتها . « فالأمة العربية منفصلة عن الاسلام وعن رسالته تصبح كجسم منفصل عن حياته وعن روحه ، والفصل هذا يجعل من الجسم قشراً فارغاً لالب فيه وما أسهل دخول المبادىء الوافدة على اختلاف أنواعها لتملأ الفراغ فى القشر الفارغ » .

(٧)

ولقد استطاعت موجة العلمانية أن تجرف المجتمع الاسلامى وتصيبه فى الصميم فى مجال التعليم وفى مجال الشريعة والقضاء وفى المجتمعات والنظم والحكم .

وقد تشكلت الأجيال المختلفة فى معاهد الارساليات ووفق الأنظمة التى رسمها الاستعمار وكانت النزعة العلمانية أو اللادينية بالأحرى موجهة إلى

الاسلام وحده من دون الأديان الأخرى ، ذلك أن مدارس الارساليات والكليات المختلفة التى أنشأتها قد أعات من شأن مفاهيم الأديان والتاريخ الغريب عن الاسلام وأثارت الشبهات حول الاسلام ولغته وقرآنه ورسوله هذا فضلا عن أن مؤسسات كثيرة اجتماعية وسياسية قامت فى البلاد العربية والعالم الاسلامى تركز على علمانية الدولة . أو تقدم القومية الضيقه القائمة على العلمانية ومن كان منها ذا طابع إسلامى أو عربى حاول أن يقصر مفهومه على الاسلام الحضارى .

ملحق

ضوء من الاسلام على العلم والفلسفة المادية

لاريب أن القرآن هو الذى دفع الانسان المسلم إلى اكتناه الآفاق الكونية وهو الذى دعا الانسان إلى السيطرة على الحياة ودفعه إلى الابداع العلمى ،ومن ثم اندفع المسلمون الأولون إلى التماس منهج القياس والتجريب،وفكرة القياس لاريب من أهم الأفكار التى عرفها تاريخ الانسانية كلها،وذلك للنتائج التى حققتها من بعد بإنشاء المنهج العلمى التجريبى . فليس المنطق اليونانى بل هو المنهج التجريبى الذى فتح آفاق العلم . وفكرة القياس وضعت فى عصر النبى وفى عصر صحابته وتحت تأثير القرآن نفسه لقياس الأشباه بالنظائر والأمثال بالأمثال ، بل ولقد وضعت أيضاً فى العصر القرآنى قواعد القياس وشرائط العلوم . يقول الزركشى صاحب البحر المحيط : إن الصحابة تكلموا فى زمن النبى فى العلل . ويقول ابن خلدون : إن كثيراً من الواقعات لم تندرج فى النصوص الثابتة فقاسها الصحابة بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط من ذلك الالحاق ومن ذلك تصحيح المساواة بين الشبيهين أو المثلين ، حتى يغلب على الظن ان حكم الله فيهما واحد وصار ذلك دليلا شرعياً بإجماعهم عليه وهو القياس ، ويتميز العلم الاسلامى بأنه حى واقعى تجريبى ، خال من عنصر الخيال والقصة والتفسير اللاشعورى أو الشعرى لأنه مقيد بالملاحظة والتجربة كما أنه تميز بأنه ناقد ، ولا ريب أن « الفكر الاسلامى كان ثمرة علمية نقد كبيرة وعملية تصفية للفكر السابق ، وتجديد وبناء استغرق قروناً زاهرة فى حياة العقل فى الاسلام » .

وقد اعتمد العلماء المسلمون على العقل والحس ، مطالبين أنفسهم وغيرهم بالدليل والبرهان وقد استطاعوا بعد أن يطلعوا على معارف الأمم أن يصححوها ويسيروا بالمعرفة خطوات هائلة ، وكان تجديدهم للعلوم الطبيعية والكونية من طرق شتى تبدأ بدراسة المحسوس لا المجردات الذهنية ، وإدراك فكرة الحكم والمقدار فى نظام الطبيعة والاهتمام بمعرفة الحقيقة ووجوه الحكم والابداع فى صنع العالم . وتحديد فهم المعرفة العلمية بالاعتماد على الملاحظة والتجربة بعد أن غلب على اليونان الاستنباط النظرى فصححوا معارف القدماء وابتكروا علوماً خاصة بهم . وجاء جابر مؤسس علم الكيمياء بمعناه الحديث ووضع الحسن ابن الهيثم علم الضوء بالمعنى الحديث والتبانى مجدد علم الفلك « وقد أقام جابر علم الكيمياء على التجربة التى جعلها وسيلة كشف وتمحيص يسبقها مالا بد منه قبلها من تصور أو تخطيط فكرى يقود التجربة »[1] .

* * *

وفى الاسلام لا يوجد صراع بين الدين والعلم : « لا يوجد فى الاسلام تلك المشكلة الموجودة عند غير المسلمين وهى مشكلة أن الدين يقابل العلم والفلسفة أو يعارضهما ، فالاسلام مبنى على العقل والعلم وكتابه كتاب علم وحكمة ، وإذا كانت هذه المشكلة قد ظهرت بين المسلمين قديماً أو هى تعرض لبعض المفكرين حديثاً فإنها « دخيلة » وآتية من محاولات أخرى ولا ينبغى أن تعرض لمن يعرف الإسلام أصولا وروحا ومنهجاً ، ويعرف معنى العلم وحقيقة العقل وطريقته واليقين ومقياسه . وقد تميز الإسلام عن غيره من الأديان بأنه نبه العقل واعتمد عليه وجعل العلم أساس العقيدة والبرهان سياج الإيمان ، وقد اعترف العلماء الغربيون بمحدودية العلم وقال بوترو فى كتابه العلم والدين :

---

(١) « من بحث للدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده » .

[لقد عجز العلم عن حل المشاكل ، وأن العلم مهما تقدم فهو محدود ، وبذلك لا بد من الرجوع إلى ما يسد الفراغ عن طريق الدين بروحانيته واعتماده على القلب والعاطفة : أن العلم والدين هما أساس الحياة الإنسانية ، أن كل منهما مستمد من الآخر ، ولن يستطيع أحدهما القضاء على الآخر] .

ويضع المسلمون العلماء تحفظات أكثر حول دعوى العلم التى تطلق على الفلسفة وعلى كل ما يجرى مجرى الفكر . والحق « أن ليس كل ما ينسب إلى العلم ينتمى إليه ، ولا كل ما ينتمي إلى العلم مفروغ من إثباته ، بل كما أن فى العلم الحقائق التى لا شك فيها ، فان فيها أيضاً القضايا المفتقرة إلى الإثبات ، وهناك فرض باطل مسلم به ضمنا وهو أن العلم الحديث مبنى على البرهان الحسى فما يقال باسمه لابد أن يكون قد ثبت وقام عليه لدى العلماء البرهان فهم يتقبلون كل ما ينسب إلى العلم لأنهم يسلمون بقيام البرهان عليه »[1] .

* * *

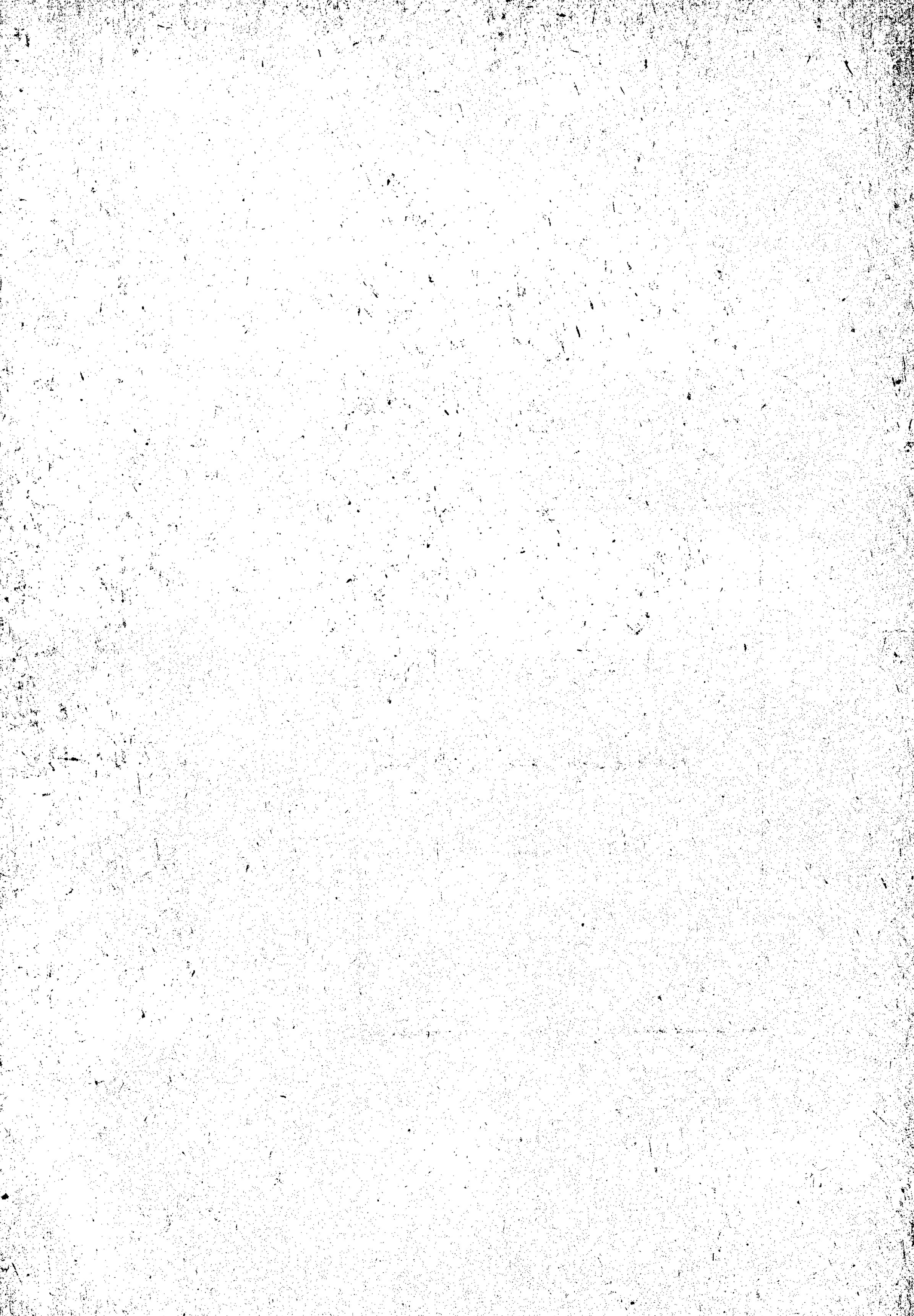
أما نظرية التطور فهى نظرية ناقصة ولكى تكون كاملة لا بد أن يدمج معها قانون الثبات الذى هو وعاء لحركة التطور مع تحديد الآفاق والافلاك التى يدور فيها التطور ولا يتعداها . ونظرية التطور قامت على عدد ضخم من الفروض والتخمينات ولم يقبلها الماديون الذين يرفضون كل ما هو محسوس حتى ولو كان ذلك لمجرد الترابط بين المحسوسات .

---

(١) عن بحث للدكتور محمد أحمد الغمراوى .

الباب الثانى

تفسير التاريخ



الفصل الأول

التفسير المادى للتاريخ

نشرت الفلسفة الأوربية بساط المادية فأصبح أساساً لكل النظريات العقائدية والاجتماعية (بما فيها الاقتصاد والأخلاق).

وهكذا أصبحت النظرية المادية أساساً لكل مقــررات الفكر الغربى بشقيه : الليبرالى والماركسى . وإذا كانت النظرية المادية قد أصبحت أساساً للفكر الأوربى ، فإن التفسير المادى للتاريخ أصبح أساساً للفلسفة الاجتماعية حتى أطلق عليها اسم المادية التاريخية .

وبذلك يكون المنحنى الخطير الذى اتجه إليه الفكر الغربي خلال عصر التنوير قد حقق هدفه فى تغليب الفكر البشرى بكل مقدراته القديمة وابتعثها من جديد ، وفرضها فرضاً حتى لم يجعل للفكر الإنسانى الأصيل الذى قدمته الأديان المنزلة إلا خيطاً رقيــقاً أصبح فى كل وقت معرضاً للزوال . ومن هنا يرى توينبى أن الماركسية انحراف فى الحضارة الغربية المسيحية .

وتقوم النظرية على تفسير الحياة الإنسانية من خلال التفسير المادى والاقتصادى ، فالتفسير المادى للتاريخ يقوم على : تفسير يجعل للقوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله ، فالقوى المادية والاقتصادية هى العنصر الفعال فى تاريخ البشرية .

وإن عوامل الإنتاج المادي هي أساس التغييرات الاجتماعية والإنسانية

والروحية والفكرية ، وإن الفنون والتشريع وغيرها من مظاهر الحضارة غير المادية هى نتائج ملازمة وصيغ إضافية للمادية التاريخية .

ويرى ماركس أن المادة تفسر كل شىء فى الكون وفى المجتمع الإنسانى . وإن العامل الحاسم فى حركة التاريخ هى علاقات الإنتاج وإنه حين يحدث التناقض بين علاقات الإنتاج يؤدى ذلك إلى الانفجار وإلى تغيير نوعى وجذرى فى هذه العلاقات ، ولذا فإن التاريخ صراع بين طبقات تريد الاحتفاظ بالعلاقات القديمة وطبقات تريد التغيير ، وإن التاريخ لهذا صراع طبقات .

وتقول المادية التاريخية : إن التاريخ من صنع البشر ، وإن أفكار البشر انعكاسات للظروف الاقتصادية . وإن الحالة الاقتصادية التى تعيش فيها الأمة هى مصدر الانقلابات والحروب وتطور الأخلاق والجماعات .

وقد وجد ماركس أن التاريخ يمثل صراعاً عنيفاً بين الطبقات الاقتصادية، وإن جميع أنواع الصراع فى التاريخ سواء فى ميدان السياسة أو ميدان الدين والفلسفة والإجماع ما هى إلا تعبير عن الصراع الطبيعى فى المجتمع ، وهدف التاريخ عنده هو الوصول بالبشر إلى مجتمع لا طبقى ، وقال ماركس إن الشعور الإنسانى تتحكم فيه الظروف الاجتماعية ، واعتبر تطور الإنتاج المادى هو القوة المحركة للتاريخ البشرى ، وعند ماركس إن المادية هى الأساس والفكر ظل لها . وبالجملة فإن ماركس يرى كل ما يقع فى التاريخ مرجعه إلى الأسباب الاقتصادية وما دامت الأسباب الاقتصادية دون غيرها هى التى تملى على التاريخ حركته وتسيره حيث تشاء فلا مجال هناك للاعتراف بإله خالق أو قوة وراء الغيب توجه البشر إلى مصائرهم .

(٢)

ومن منطلق التفسير المادي للتاريخ يتشكل مفهوم الفلسفة الماركسية :

* ليس للكون خالق بل الكون مادة .
* الأديان مخدر للعقول يجب التحرر منه وإنقاذ الإنسانية من شره .
* الدعامة الأساسية هي إنكار الله والبعث .
* المادية هي التي أنشأت الحضارة الصناعية الحديثة .
* الطوابع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية طوابع مادية .
* الفرد وسيلة وليس غاية ، وهو ذرة تفنى في جسم الدولة .
* إلغاء حق الملكية الفردية وحق التوريث وحق ثمار الكسب .

ومن هذه الخيوط العامة تبين مدى التعارض الكبير بين مفهوم الفكر الغربي المسيحي وبين مفهوم الفكر اليهودي التلمودي الواضح الأثر في نظرية التفسير المادي للتاريخ الكاشف لكل ما تضمنته مفاهيم التلمود وفلسفة الماسونية .

وقد تطور وتشكل في صورة نظرية كاملة معارضة تمام المعارضة لمنهج الفكر الغربي المسيحي الذي شكلته مفاهيم الرأسمالية والحرية ، فهي لم تقم على معارضة النظام الاقتصادي والاجتماعي الغربي ، وإنما هاجمت الأساس الأصيل للفكر الإنساني كله المستمد من الأديان ورسالات السماء ، وذلك بمعارضة الدين وإنكار الخالق ، وإنكار البعث . وكان واضحاً في صياغة النظرية الماركسية أن تكون بمثابة منهج كامل وعقيدة شاملة أو بديل للدين والشرائع ، وكان واضحاً ذلك التحدي الخطير الذي كانت هي بمثابة رد فعل له وهو المسيحية والكنيسة . وقد اعترف الفيلسوف هكسلي بهذه الحقيقة حين قال في كتابه « دين بغير وحي » .

كانت الماركسية أكثر تنسيقاً وملاءمة ولكن أساسها المادي المحض حد من فاعليتها فقد حاولت أن تنكر حقيقة القيم الروحية ، وهذه القيم موجودة وقائمة ، لذا كان على الماركسية أن تتقبل نتائج هذا الخطأ الأيدلوجي فأقبلت في غيظ وحنق تفتح أبواب الكنائس للجموع المتعطشة إلى القيم الروحية .

ولم تكن الفلسفة الماركسية جديدة أو مبتكرة ولكنها كانت واضحة الأصول في الفكر اليوناني القديم عامة وفي جمهورية أفلاطون خاصة وكانت عصارة الفكر الوثني المادي القديم . ومن الحق أن يقال إن النظرية الماركسية هي رد فعل النظرية الرأسمالية التي عرفتها أوربا وبلغت غايتها في السيطرة السياسية والاقتصادية وغلبة الاحتكارات واستهدفت القضاء على هذا النظام وتدميره باعتباره ثمرة من ثمار الفكر المسيحي الغربي ومرتبط أشد الارتباط بالكنيسة الكاثوليكية ونفوذها في مجال الإقطاع . غير أن الفلسفة الماركسية لم تقتصر على الاقتصاد وحده ولكنها حاولت هدم المجتمع الغربي وفكره من الأساس ونقله إلى مجال النظرية المادية ، وذلك حين جعلت من المادة أساس الكون والحياة .

ولذلك فهي لم تكن في الحقيقة عملية تطور طبيعي في الفكر الغربي في مواجهة الرأسمالية وحدها ، ولكنها كانت محاولة لاقتلاع الجذور الفكرية المسيحية التي قامت عليها الحضارة والفكر والرأسمالية . وهي واحدة من أيدلوجيات كثيرة حاول المجتمع الغربي التماسها منهجاً للحياة والمجتمع بعد أن أعلن رفضه المنهج الغربي المسيحي الذي قامت عليه الكنيسة الكاثوليكية والنفوذ البابوي .

(٣)

يقرر كثير من المفكرين أن الماركسية هي بمثابة تحول في داخل دائرة الفكر الغربي وليس خارجة عليه ، ذلك أن ماركس في منطلق نظريته ، يؤمن

بالحضارة الغربية بكل قيمها وتاريخها ، ويعتز بهذا التاريخ ويعتبره تقدماً للبشرية فى طريقها نحو النصر الأكبر ، ويسمى جرائم هذه الحضارة حتمية تاريخية لا يرجعها إلى فلسفتها بقــــدر ما يرجعها إلى الضرورات الاقتصادية ، وكل ما يتقدم به ماركس هو حل لإنقاذ هذه الحضارة وإخراجها من ورطتها من التناقض من العمل الجماعى والملكية الفردية .

(٤)

إذا كانت النظريات المادية تعارض مفهوم الدين جملة فان النظرية الماركسية تواجهه بأعنف جملة من حملات المعارضة والخصومة .

فالدين فى مفهوم الماركسية ليس إلا تفسيرا خاطئاً للظواهر الاجتماعية ، وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البائدة ، وترى الماركسية أن الدين مظهر لعجز الإنسان أمام القوى الاجتماعية والنظم الإقطاعية وأنه يوم يجد الإنسان الطمأنينة على رزقه وحياته سيختفى الدين .

ولا تدعو الماركسية إلى إضطهاد الدين أو القضاء عليه ولكنها تقول بسحب الأرض من تحته بالقضاء على الأسس المادية والمعنوية لوجوده . وإذا كانت النظريات اليهودية التلمودية التى طرحت على الفكر الغربى قد تعددت : بين نظرية قومية عنصرية تقوم على أساس فوارق الدم والجنس أو مادية خالصة تنكر الأديان والعقائد فان نظرية ماركس تعارض الأساسين القديمين : الدين والعنصر .

وتقوم على أساس الطبقات وتدعو عمال العالم إلى القضاء قضاءاً مبرما على الممولين وأصحاب رؤوس الأموال ، حتى لقد عد كتابه (رأس المال) كتوراة

للطبقات العاملة ، فقد دعا مختلف الطبقات فى جميع بقاع المعمورة إلى التطاحن والاقتتال .

ويرى المؤرخ توينبى وهو من كبار المدافعين عن وجهة النظر المسيحية فى الحضارة الغربية أن : للماركسية أيدلوجية تبشيرية قبل المسيحية والإسلام تهدف إلى تحويل البشرية بأجمعها نحو مبدأها ، لذلك فهى لا تتحدى المدنيات الغربية فحسب بل كل المدنيات الحية فى العالم ، هذا التحدى سوف يحملنا على رد فعل مماثل، فلسوف نجبر جميعاً على إعادة النظر فى أساس معتقداتنا الموروثة ومحاولة إستخلاص جوهر هذه المعتقدات . ويقول : يرفض الغرب النظرية التى تقول بأن الأفراد يجب ألا يقدموا على البشرية كمجموعة ويتحمس الغرب لقداسة الشخصية الإنسانية(الفردية). ويقول:فالمسيحيون يعتقدون أن للشخص حقوقا لا يصح التنازل للمجموع ، وأن للنفس الانسانية الفردية قيمتها العليا أمام الله .

(٥)

وضع ماركس منهى كاملا للحياة والتاريخ عن طريق التفسير المادى للتاريخ، يقوم على أساس إعلاء الاقتصاد واعتبار القوى المادية هى صاحبة الأثر الأكبر فى تشكيل الأحداث والانتاج هو أساس النظام الاجتماعى وأن تاريخ البشرية كله هو التاريخ المادى وأن المواقف الاجتماعية والسياسية والمعنوية هى إنعكاس لأسلوب الإنتاج ويقوم هذا المفهـــوم كله على أساس ان الإنسان حيوان وأن مطالبه ليست سوى المأكل والمسكن والإشباع الجنسى ، ومن هذا المنطلق المادى الإقتصادى البحت تصل الماركسية إلى القول بأن الرسالات السماوية هى من أكبر أوهام البشرية ، وأن حقيقة العالم تنحصر فى ماديته وبذلك تنكر وجود الله والوحى والرسالات وترى أن الدين هو افيون الشعوب ويترتب على هذا القول بأن القيم الأخلاقية مجرد

إنعكاس للوضع الاقتصادي، وأن وجودها ليس أصيلا فى الحياة البشرية فضلا عن أنها غير ثابتة (ومن هذا المنطلق يبدأ فرويد ودوركايم مرحلة أخرى من مراحل تطور الفكر المادى).

* * *

والنظرية فى ذاتها مجافية لطبائع الحياة والإنسان الجامعة بين الماديات والروحيات وبين المعنويات والقيم، فقيام نظرية على اغفال هذه الجوانب من تفسير الحياة والتاريخ تبدو غريبة غرابة شديدة عن الفطرة. ولذلك يبدو فى ثناياها الغرض والهدف الرامى الى هدم الدين والأخلاق.

وفيها إغضاء كامل عن العوامل المختلفة التى تدفع الناس إلى السعى فى الحياة.

وهى تعنى معارضة الفكر المسيحى الأوربى والدينى معارضة كاملة. « وماركس يرفض الفكرة الأساسية فى الدين وهو الإيمان بالله الموجود الأزلى المستقل تماما والمتجرد تماما عن المادة وكحقيقة واضحة، وهو يرفض القيم الأزلية والإنسانية العليا ويقصر نظره عند الجانب الاقتصادى وحدة من بين أحداث الحياة وعوامل التأثير فيها.

وأخطر من هذا كله ما تحاول الماركسية أن تصل اليه من القول بتبعية العقل فى وجوده لوجود المادة، وينتهى هذا الى القول بأن وجود العقل غير مستقل عن المادة يعنى أن الله (تبارك وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) غير موجود فى نظرها وفى تتبيع العقل للمادة، يحل الجبر محل الاختيار فى توجيه الفرد، ويصبح الفرد مجبوراً لا اختيار له، مجبورا ببيئته ووراثته وبحياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية على الخصوص»[1].

---

(١) راجعنا فى هذا: الانسان بين المادية والروحية (و) خصائص التطور الاسلامى.

وتصف الماركسية الدين بأنه مخدر لأنه يدعو إلى تأليه غير المحدود فى الوجود وهى تقف عند المحدود الذى هو الحس،وأن الدين يدعو الى تقديس علة عامة للوجود وراء الحس والشاهد ، وهى تنكر ماعدا الحس والشاهد ، وأن الدين يدعو الى القيم الأخلاقية والمثل العليا الثابتة وهى لا ترى ثباتاً لشيء على الاطلاق ، كما لا ترى قيما ولا مثلا فيما عدا ما يوحى به الحس ويقدمه للانسان من متع حسية ومما يسد به حاجة بدنه فقط . « وتصف الدين عامة بأنه مخدر لأنه يقف فى طرف مقابل مما تؤمن هى به وتصف المسيحية الكاثوليكية على الخصوص بأنها سلطة تعوق الانتقال أو التقدم فى سير العالم » وتعيب ثبات القيم الأخلاقية والاعتبار العام للمقاييس الأخلاقية » .

* * *

ومن هذا كله نرى كيف تشكل النظرية الماركسية حلقة أكثر إيغالا فى المادية وتطوراً بالفكر الغربى خاصة وبالفكر البشرى عامة لإخراجه من القيم الانسانية التى قدمتها رسالات السماء والأديان ودفع العقل ، والنفس الانسانية إلى الإنحدار نحو المادية الخالصة بكل مقوماتها من وثنية وإباحية وفساد فى التصور والسلوك . فهى تدعو إلى : إنكار الفرد وقيمته كفرد وإعلاء شأن الجماعة ، إنكار الملكية الفردية ، إنكار الأسرة وحقها فى العلاقة الزوجية إنكار القيم المعنوية، وتدعو إلى تبعية الفكر للعامل المادى الاقتصادى ، وإنكار الله والدين والبعث والجزاء وهى منطلق لدعوة فرويد ودوركايم وسارتر فيما يتعلق بالسلوك الانسانى فهى ترسم له الطريق للتحرك فى اطار المستوى المادى وحده ، وإقامة علاقات الأفراد على أساس مادى ، وبناء العلاقات الأسرية ، ليس على علاقة الدم والرحم ، وإنما على أساس التبادل فى التعبير المادى .

(٦)

ومن أخطر مقررات النظرية الماركسية القول بأن الأحداث الاجتماعية

لا تقوم على أساس عمل الأبطال والزعماء والمفكرين بل عن طريق القوى المادية وحدها، وأن هذه القوى هى الاقتصاد .

وبذلك تنكر الماركسية الزعامات والبطولات وأثرها فى التغيير التاريخى فالماركسية كما تنكر أثر الأديان والقيم، فى احداث التغيير من خلال حركة التاريخ، وكذلك كل ما هو غير مادى من مشاعر وعواطف ، ومن مقومات كالحق والعدل، أو من تقاليد وأخلاق، كذلك تنكر أثر الأنبياء والأبطال والقادة الذين غيروا مجرى التاريخ وأثروا فى المجتمعات على مدى العصور وبذلك تبدو صورة التفسير الماركسى للتاريخ والحياة قائمة مظللة قائمة على عنصر واحد من عدة عناصر لها أثرها الواضح . وينكشف من وراء ذلك معارضتها العميقة وتعصبها الواضح المغلف بالطابع العلمى البراق للعقائد والأديان وخاصة بقايا المفهوم السماوى الربانى فى المسيحية الغربية، ولقد استطاعت القوى الخارقة التى تحمل هذه الدعوات وتحركها فى المجامع المختلفة ، وبين الصحف والكتب والجامعات أن تفرض هذا المفهوم على الفكر الغربى كله (بشقيه) فقد أخذ بالنظرية المادية أساساً ثم أخذ بالتفسر المادى للتاريخ ، وقبل تفسير الحياة كلها من حيث الاقتصاد والمادة وإغفال القيم وأثرها فى الحياة . وبذلك ينحرف الفكر البشرى مرة أخرى عن الفطرة والطبيعة الإنسانية وتعود به النظرية الماركسية بالإنسانية إلى الرق، وبالفكر والإيمان إلى الجبر وبالإنسان إلى الوثنية وبالقيم والأخلاق إلى الانطلاق فى الحيوانية واعتبار الطعام والجنس هو الهدف الأساسى فى حياة الإنسان .

(٥)

الفصل الثانى

التفسير الليبرالى للتاريخ

(الفلسفة السياسية)

تحولت الفلسفة السياسية فى الفكر الغربى من الثيوقراطية (حكومة البابوات إلى الميكافيلية تحت تأثير التطور الذى أحدثته النظرية المادية والصراع بين الفكر المسيحى الغربى والفكر التلمودى الزاحف .

وقد جاء كتاب الأمير الذى كتبه ميكافيلى عام ١٥١٣ بمثابة أفق جديد للتحول الخطير الذى خرج به الفكر الغربى المسيحى إلى آفاق المادية الخالصة وتدمير مختلف القيم الأخلاقية السياسية . بل أن ميكافيلى نفسه لم يكن يتصور أن كتابه بعد أربعة قرون سيصبح أنجيلا لنوع جديد من الحكم ، يحاول أن يفرض مبادئه على العالم[١] .

فقد رسم ميكافيلى صورة الأمير الذى يأخذ طريقه إلى السلطان والملك بوسائل العنف والخيانة والغدر ، من خلال مبادىء عنيفة لا ضمير لها ولا وازع ، تتعارض مع كل المثل الإنسانية والأخلاقية ، وتقوم على أساس الغدر السياسى والإجتماعى .

فالأمير عند ميكافيلى « ليس عليه أن يحفظ العهد إذا كان مثل هذا الوفاء

(١) محمد عبد الله عنان — الرسالة م ١٩٣٨

قد ينقلب ضده ، وليس من الضرورى أن يتصف الأمير بأخلاقه الحسنة ، ولكنه من الضرورى أن يبدو وكأنه متصف بها .

وليس على الأمير أن يراعى كل الأمور التى يقدره الناس من أجلها ، لأنه كثيراً مايرغم لكى يحفظ الدولة أن يتصرف بغير مايقضى به الاخلاص والصداقة والإنسانية والدين ، وإذن فمن الضرورى أن يكون ذهنه متأهباً للعمل وفقاً لتقلب الريح ، وعنده أن الأمير ليس من الواجب عليه أن يتمسك بعهد قطعه ، وإذا كان وراء هذا التمسك ضرر قد يصيبه ، أو إذا كانت الأسباب التى حملته على قطعه أصبحت مفقودة ، ولكن من الضرورى أن يستر هذه الرذيلة فى نفسه ويخفيها عن أعين المراقبين وأن يكون دعياً عظيماً ومنتحلا خداعاً ، فالناس فى حالة من البساطة والعوز تحملهم على استعداد ليكونوا دائماً فريسة لمن يسعى لغشهم وخديعتهم » ا.هـ .

* * *

والمذهب السياسى الذى قدمه ميكافيلى للفكر الغربى هو : الغاية تبرر الواسطة وهو الذى يقرر أن الأساس المتين فى حكم البلاد الحرة بعد فتحها هو تخريبها وتدميرها فإن لم يهلكها الفاتح أهلكته . وأن الفاتح الجديد ينبغى له فى أول مرة ، أن يقترف ما أراد من صنوف القسوة مرة واحـــدة ، بحيث لا يحتاج إلى العودة إليها أبداً . وإن على الأمير أن لا يخشى عار المعايب التى يصعب عليه بدونها الاحتفاظ بالملك . ويقدم ميكافيلى فى فلسفته الخطيرة للحكم والملك خلاصة تجربته ، فيقول: ان تجارب زماننا هذا دلت على أن الأمراء الذين لم يراعوا العهود قاموا بأعمال كبيرة وتمكنوا من تحيير أوهام الناس بمكرهم وتغلبوا فى نهاية الأمر على الأمراء الذين اتخذوا الأمانة عادة والوفاء أساساً لحياتهم ويرسم ميكافيلى للأمير أساليب الغدر والإمتهان للأمم على نحو غاية البشاعة فيقول .

* * *

إن أمام الفاتح الذى يروم إخضاع الشعوب رسائل ثلاث :

الأولى أن يدك صروحها ويزيل معالمها ويجعلها أثراً بعد عين ، الثانية أن يقيم فيها ، والثالثة أن يعطيها حق التمتع بشرائعها ونظمها على أن يتقاضاها الجزية وأن يجعل لنفسه من أهلها « أقلية » تتظاهر بالوطنية وتكون صلة الحكم بينه وبينها وأداة المحافظة على ولائهم وخضوعهم » .

(٢)

كانت الفلسفة السياسية التى رسمها ميكافيلى هى منطلق التحول فى الفكر الغربى المسيحى إلى مفاهيم العبودية الرومانية القديمة بمفاهيمها ، ولم يلبث هذا الفكر إلا قليلا حتى أصبح طابع الفكر السياسى الغربى كله حتى يصفها أحد الباحثين فيقول « لم تعد الميكافيلية فى عصرنا منبوذة ، ولكنها تغدو بالعكس حقيقة واقعة تطبقها وتؤمن بها دول عظيمة »[1] ذلك أن الفاشية الإيطالية والأنظمة الطاغية المماثلة الأخرى تقوم فى جوهر على الفلسفة الميكافيلية » .

وقد أعتبر ميكافيلى البابا أسكندر بورجيا مثله الأعلى وخصه بفصل شائق ، وقد لقى ميكافيلى فى أواخر حياته من التعذيب والنكال أهوالا شديدة جزاء سياسته ومفاهيمه .

ويرى لوى دى فنلفوس فى كتابه نحن وميكافيلى : أن الفاشية هى أعظم تجربة ميكافيلية عرفها التاريخ . أن تكون الدولة كل شىء والفرد لا شىء ، وأن تكون الدولة مصدر كل السلطات والقوانين وأن تطرح كل اعتبار أخلاقى فى تحرى غايتها . وقال أن هذه النظم جميعاً (إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية وروسيا البلشفية) تقوم على نوع من الزعامة الممعنة فى الطغيان

---

(١) محمد عبد الله عنان — م ١٩٣٨ الرسالة .

والاستئثار بكل السلطات وهى تستتر وراء فكرة الدولة ولم يبق للفرد اليوم وجود فى ظل هذه النظم المطلقة .

(٣)

على هذه المفاهم التى أذاعها ميكافيلى فى القرن الخامس عشر قامت السياسة الغربية ورسمت مخططات الإستعمار الذى فرضها على البلاد المتخلفة .

وقد جاء الاستعمار حلقة تالية للرأسمالية نفسها التى كانت طابع النظام الليبرالى الذى شكله الفكر الغربى ، فقد قام النظام الاقتصادى الغربى فى ظل الثورة الصناعية فى انجلترا وأوربا الغربية ، على أساس الملكية الخاصة لموارد الثروة وعلى أساس الربا ، وقد جاء النظام الليبرالى متكاملا بين الاقتصاد والاجتماع والفكر على أساس الحرية المطلقة فأصبح النظام المالى هو المسيطر على السياسة وتوجيه التفكير فى المجتمع ، والربا هو الوسيلة الرئيسية لنظام التعامل المالى وإنمائه عن طريق المقامرة بالأوراق المالية فى البورصة ، والإحتكار فى الانتاج الصناعى

وكان الاستعمار هو المنطلق الأول للنظام الليبرالى طرداً وعكساً : فى استقدام الخامات من البلاد المحتلة وفى جميع المنتجات إليها وقد أطلق الاستعمار على نفسه اسما مغايراً لحقيقته وأدعى أمانه خطيرة : هى تمدين الشعوب المنحطه وتدريبها على الحكم الذاتى ووصف ذلك بأنه « عبء الرجل الأبيض » واستتبع ذلك طرح نظرية الأجناس العالية التى صنعت الحضارة والأجناس الملونة.

وقد بدأ الاستعمار فى القرن السادس عشر وكان على رأسه الأسبانيون والبرتغاليون ثم تبعتهم فرنسا وانجلترا وهولندا وبلغت مساحة مستعمرات الدول الأوربية خمسى مساحة اليابسة ، وعدد سكانها نحو ثلث البشر وبدأت فلسفات الإستعمار والعنصرية تأخذ مجالها إلى حمل دعاوى عريضة لتبرير سيطرتها ونفوذها .

• • •

(٤)

استلهم الفكر الغربي نظام الديمقراطية اليوناني الذي طبق في أثينا وأسبرطه والذي يعني حكومة الشعب (ديموس : الشعب . كراتوس : الحكم) أي حكومة الأغلبية وارتبطت الديمقراطية بمبدأ سياسي اقتصادي هو مبدأ الفردي الحر الذي يعاني في تقييد سلطان الدولة ، وقد كان النظام الديمقراطي الغربي هو الأساس الذي أكدته الثورتين الأمريكية والفرنسية ودعمت معالمه وقواعده وهكذا ارتبطت الليبرالية والديمقراطية والاستعمار على نحو من الانحاء من خلال النظام الاقتصادي الربوي الذي وضع نظامه اليهود وسيطروا به على الحضارة الغربية والفكر الغربي والرأسمالية كما تصورها الموسوعة الميسره هي النظام الاقتصادي الذي يقوم على الملكية الخاصة لموارد الثوره ويطلق المجال لحريات الأفراد والمشروعات الخاصة ويصير الربح حافزاً أساسياً على التقدم الاقتصادي الاجتماعي . وقد بدأت معالم الرأسمالية في الظهور على أثر اضمحلال النظام الاقطاعي وتدهور النفوذ الاقتصادي والسياسي للملاك الزراعيين وصعود الطبقة الوسطى إلى مجالات الصناعة والتجارة والمهن الحرة ، وقد تطور النظام الرأسمالي تطوراً بعيد المدى واقترن بسياسة الحرية وابتعاد الدولة عن التدخل في الحياة الإقتصادية ، وقد بلغ أوجه في منتصف القرن التاسع عشر وذلك بتشغيل النساء والأطفال وتكديس الثروات وسوء توزيع الدخل وسيطرة المشروعات الكثيرة التي تتمتع بسلطة احتكارية .

(٥)

والربا نظام قديم عرفه الرومان وقدماء المصريون والعرب في الجاهلية . وجاء مضاداً لمفاهيم الأديان المنزلة التي حرمته جميعها تحريما كاملا ، والذي تخصصت فيه طوائف اليهود التلموديين مستبيحين اياه فلما جاءت دعوة المسيح تحرم الربا ، كان ذلك من أكبر العوامل التي خلقت معارضة اليهود ومقاومتهم لدعوة المسيحية .

بل لقد حرمت الكنيسة من بعد التعامل بالربا ولم تفرق بين الإقراض بفائدة قليلة أو كثيرة ، وكانت النتيجة أن انتقلت كل المسائل النقدية المتعلقة بالقروض إلى أيدى اليهود وأصبحوا هم وحدهم المختصين بهذه الحرفة [١] .

« وكان اليهود منتشرين فى أنحاء البلاد يقومون بإقراض أموالهم بالربا الفاحش ولا يألون جهدا فى الكسب » ومن هنـــا ارتبطت الليبرالية بالربا كما ارتبطت بالاستعمار .

وأصبح النظام الربوى الرأسمالى هو مصدر الإنحلال الخلق فان المنظمة الربوية لم تكن لتستطيع الاستمرار دون أن تفرض على الفكر الغربى مفاهيم خاصة تحمى قيامها ووجودها ، وتمهد لها الطريق وليس من سبيل إلى ذلك إلا بالدعوة إلى التحلل الأخلاقى للأفراد والأمم ، فقد كان النظام الربوى مناهضا للأديان ، والفطرة ، وطبائع النفس الانسانية ولذلك فقد استلزم فرضه جهوداً ضخمة لإقراره والدعوة إليه وإغراء العظماء والأمراء والحكومات باعتناقه والتعامل به والوقوع تحت براثنه وما تزال قصة الخديو إسماعيل فى مصر والشاه إسماعيل فى إيران فى العصر الحديث مثلا ضخماً لهذا المخطط الخطير . ومن هنا قامت فلسفات ونظريات فكرية لوضع الربا موضع التقدير والإعجاب واعتباره ضرورة للتقدم الاقتصادى .

ولقد دفع الربويون كثيراً من الكتاب إلى هـذا المجال منهم تورجو الفرنسى صاحب كتاب (اقراض النقود) فى فرنسا وبوهم بورك فى النمسا مما كان له أثره فى تحويل الرأى العـــام ومما حقق هدفهم الخطير فى إجازات الحكومات للربا وقد حاولت هذه الكتابات القول « بشرعية الفائدة » على أساس القول بأنه رأس المال من الملكية الخاصة ، التى يجوز لمن يحرم نفسه من الاستمتاع بها أن يحصل على عوض له وجرت المحاولة لوضع المال فى مكان

---

(١) السياسة الأسبوعية م ١٩٢٨ ودائرة المعارف البريطانية .

الأرض المستأجرة وغير ذلك من الدعاوى الباطلة التى هدمها المنطق الإنسانى الصحيح وكشفت الأديان المنزلة عن زيفها . ومن الناحية الأخرى فقد تنبه الكثير من الباحثين الغربيين إلى خطر الربا وأثره البعيد فى هدم المجتمعات والأمم ومنهم لوردكينس الأستاذ بجامعة كمبردج الذى عزا إلى الربا كل محاذير انهيار الحضارات فقال : من الممكن أن تنسب جميع الآفات الاجتماعية إلى الربا وبقدر ما يزداد مجتمع ما تقدما فى المدنية والثقافة فإنه ينقص عنده نصاب الربا فى عين المقدار والتناسب بحيث أنه فى مجتمع مثالى سيكون المبلغ صفر فى المائة ، ولقد ألغى الإسلام الربا إلغاء كاملا وحاربه حرباً عواناً وفرق بينه وبين البيع والتجارة فأحل البيع وحرم الربا .

(٥)

ارتبطت الليبرالية : القائمة على الربا والاستعمار على أساس مفاهيم اجتماعية وفكرية تبرر الربا وتنظمه وتدافع عنه وتعمق الدعوة إليه ، وهى أساساً تدعو إلى هدم القيم والأخلاق والمفاهيم الدينية وطرح نظريات حيوانية الإنسان ومادية الكون والتفسير المادى للتاريخ والترويج لعشرات من المشروعات التى تقوم على إثارة الغرائز الجنسية وإثارة الميل إلى الترف وإنتاج المرفهات والكماليات ودفع عمليات الإنتاج كلها إلى التوسع فى هذا المجال على النحو الذى يغرق المجتمعات ويدفعها دفعاً إلى الاقتراض بالربا ومن الحق أن يقال أن الربويون قد سيطروا على الصناعة كلها ودفعوها فى طريقين أساسيين هما إنتاج أدوات الحرب وأدوات الترف وذلك لإيقاع الشعوب والأمم تحت سيطرة نفوذ القروض ، واحتوائها أمماً وأفراداً فى براثن النظام الربوى وسيطرته ، واليهود الذين يملكون الذهب فى العالم هم الذين وضعوا مختلف الأنظمة الخاصة بالاقتصاد السياسى والمصارف والسندات والأسهم والبورصات . وقد دفعوا المؤسسات إلى التوسع فى الإنتاج لدفعها إلى الاقراض الربوى وبذلك دفعوا

المصانع والإنتاج جميعاً إلى حالة من حالات الخطر الدائم العام الذين يلوحون به من أن الإنتاج فى حاجة إلى تصريف وإلا فإنه يمكن أن تحدث أزمات خطيرة بينما فى الإمكان تفادى التوسع فى الانتاج بالاقلال منه ولما كان هدف الربويون هو مزيد من الاقراض فقد كان الانتاج العادى لا يؤدى إلى حصولهم على ثمرات ضخمة من الربا ، أما الحرب والترف فإنهما الوسيلتان اللتان تحققان أقصى نسب الربح ، ولذلك فهم يسيطرون على السياسة ويوقعون الصراع بين الدول حتى يضعوها دائماً على حافة الحرب ، ويحرضونها على زيادة التسلح مع تسريب أخبار ذلك إلى الدولة المنافسة لتزداد تسلحاً ومن هنا يظل الانتاج الحربى يمتص الثروات ويدفع الدول إلى الاقتراض من المرابين الكبار الذين تقوقعوا وراء لافتات المصارف الكبرى هرباً من القتل والاغتيال الذى كان يواجهون به فى العصور الوسطى من الأمراء والملوك وكل هدف فلسفة الربا وضع المجتمع البشرى فى حالة من العجز والقصور والحاجة إلى القروض ،من ناحية أو وضعه فى حالة من الانهيار الخلقى ليكون متقبلا للترف فى مختلف شؤون الطعام والملابس والمسكن وإعلاء أدوات الترف والزينة على الضروريات وإعلاء الكماليات الاستهلاكية على المقتنيات الثانية هذا بالاضافة إلى دفع المجتمع إلى مجال الجنس عن طريق صناعة الأفلام والصحافة الداعرة وتجارة الرقيق والخمر والمخدرات وما وراءها من تقاليد المجتمع المستهتر الساهر .

وتقوم على الانحلال والترف مئات الصناعات فى العالم التى تمثل الرأسمالية.

(٦)

ولا ريب أن عدداً كبيراً من النظريات والفلسفات التى طرحها الفكر الغربى فى العصر الحديث إنما كانت عاملا أساسياً من عوامل تعميق نظام الربا وتدعيمه ودفعه إلى الأمام وخاصة ما يتعلق بالاباحة وإعلاء الجنس وانكار البعث والآخرة . والدعوة إلى اقتناص الرغبات والمتع فى صراع مع الموت

والنهاية المحتومة وفى ظل أخطار الحروب النووية ولقد كان النظام الربوى هو منطلق الاستعمار باستقدام الخامات وبيع الصناعات الكبرى وهو الممول للاستعمار ومن هنا كان النظام الربوى أساساً هاماً فى تدمير جميع القيم الأخلاقية والانسانية والاجتماعية ومن هنا كانت له آثاره البعيدة فى تسخير الشعوب والحكومات والأمم لمصالح أصحاب رؤوس الأموال[1] وقد ارتبط الاقتصاد العالمى كله بالربا ، فى ظل نظامى الاقطاع والرأسمالية ، وشمل الفلاح فى الأرض والعامل فى المصنع ، وسار الربا إلى الأضعاف المضاعفة واستطاع أن يحصل على أرباح تفوق أرباح الزراعة والتجارة ومن هنا برزت ظواهر خطيرة أصبحت فى نظر الفكر الغربى أسساً وقواعد ، هى إعلاء شأن الاقتصاد وإعطائه أهمية مبالغ فيها على حساب الكيان الانسانى المنوع الأغراض فى مجالات الاجتماع والعقائد والحضارة والقانون ، ومن هنا استعلى مفهوم الاقتصاد والتفسير المادى للتاريخ وأصبح مؤثراً على القيم كلها التى أصبحت تخضع له وتسير وراءه وبنفوذه وتوجيهه وخاصة فى مجال الأخلاق والتربية وبناء الأمم والأفراد . وبالجملة فقد اتسم الفكر السياسى الغربى كله من خلال كل مفاهيم (الليبرالية — الديمقراطية ، الرأسمالية ، الاستعمار) بالرغبة فى الحصول على الربا الفاحش .

ومن خلال هذه المفاهيم أصبح الانسان خاضعاً للآلة ، أو ترسا فى الآلة .

(٧)

وقد حاولت الليبرالية فرض مفاهيمها وقيمها على مختلف الشعوب التى

---

(١) التصور الإسلامى — الإنسان بين المادية والروحية .

وقعت تحت سيطرة الاستعمار كنهج فكر وحياة ، يستهدف اقصاء مناهج هذه الأمم ومقوماتها الأصيلة عن مجال العمل السياسى والاجتماعى ، واتخذ لذلك من التبشير والاستشراق وحركة التغريب وسائل لاثارة الشبهات حول القيم الأساسية لهذه الأمم وخاصة فى العالم الاسلامى حيث يشكل الاسلام منهج الحياة والفكر الأساسى لهذه الأمم ومنه تستمد مقومات مجتمعها ونظام حياتها وقد جاء هذا العمل من منطلق واضح للاستعمار من حيث يريد إبقاء سيطرته على هذه المناطق واستنزاف خيرات هذه الأمم ، وإيماناً بأن أمة القرآن لن تستكين أو تستذل أو تقبل الضيم مهما كانت فى حالة من الضعف أو التخلف ، ولذلك فقد كان الاستعمار حريصاً على أن يزيف مقومات هذه الأمم، ومثيراً للشبهات حول فكرها وقيمها ، ودافعها بها عن طريق أساليب كثيرة إلى الانتماء لفكره والانطواء فى حضارته جارياً على خطة احتواء الفكر والأمم وإذابتها فى بوتقة الأممية والحضارة العالمية . وكان هدف الاستعمار الأساسى هو استمرار سيطرته على العالم الاسلامى بالاستعمار الفكرى والنفوذ الاقتصادى بعد الاحتلال العسكرى ، وقد جرى فى ذلك على خطط عديدة كان أقساها عمليات الاستيطان التى تقوم على تهجير أجناس مختلفة وإحلالهم محل السكان الأصليين وطرد السكان الأصليين أو إبادتهم وتغيير نوعية الأمم وأجناسها هذا بالاضافة إلى استغلال الموارد ثم تطور هذا المنهج حين سقط نفوذ بعض الامبراطوريات وقام نفوذ جديد بهدف وراثة الامبراطوريات القديمة وقيام المناهج الجديدة على أساس الاستعمار الاقتصادى والفكرى . وكان لانقسام العالم بين الرأسمالية الغربية والماركسية الشيوعية ومن وراءهما نفوذ الصهيونية العالمية الخطير الذى يحتوى النظامين ويحركهما لمصلحته ويضرب بعضهما ببعض، ويعتصر الأمم المختلفة والشعوب بين دفتيهما . وفى خلال هذه المرحلة الأخيرة تعمق مفهوم الرأسمالية

والاستعمار إلى حد السيطرة شبه الكاملة على الدول النامية عن طريق المنح والقروض وتصدير رءوس الأموال الأجنبية مع خفض أسعار منتجاتها من الخامات وبالتالى إلى خفض مستوى المعيشة فيها وزيادة العجز المالى فى ميزانياتها وفى ظل هذا النظام تحولت المنافسات الاقتصادية إلى احتكارات لا تخدم سوى مصالح الدول الرأسمالية الكبرى ، وهذا هو ما يطلق عليه « الامبريالية » .

الفصل الثالث

الفلسفة البرجماتية

تمثل الفلسفة البرجماتية الامتداد الطبيعي للفلسفة السياسية الغربية ، مرتبطة بالمجتمع الأمريكي ، الذي تشكل فى القرن السادس عشر من المهاجرين الأوربيين .

والفلسفة البرجماتية : هى فلسفة سياسية اجتماعية تشق طريقها فى المجتمع من خلال الفلسفة المادية أصلا ومن خلال الفلسفات التى تشكلت من خلال الإعلاء بالقوة وامتياز العنصر الأبيض على النحو الذى ساقه نيتشه ومن جاءوا بعده ، فهى يقول بأن الحق للقوة ، « ولا تؤمن بمساواة الضعف العاجز فى الحقوق التى للقوى المتمكن . ويرى شارل بيرنز : أحد مؤسسى الفلسفة البرجماتية ان القضاء على الضعف وسيلة جوهرية من وسائل التقدم والرقى ، وترى هذه الفلسفة أن احترام الوالدين مثلا نظام لا تقره الثقافة البرجماتية .

وتقوم الفلسفة البرجماتية على أساس المستوى وللمكانة بالدخل المادى وبنسبة النجاح الذى يصيبه المرأ بغض النظر عن الوسائل التى حققه بها وتعد البرجماتية مسئولية عن رواج أدب اللذة والمجون فى أمريكا وسيطرته على الفكر كله .
ولما كانت الفلسفة البرجماتية هى نتاج الفكر الصهيونى اليهودى التلمودى طرحت أساساً لتشكيل الثقافة والذوق والمزاج النفسى للمجتمع الأمريكى على أساس يستقبل الطموح الصهيونى ودعوته العريضة إلى السيطرة العالمية ، فقد قامت البرجماتية على أساس أشد وثاقة بالإلحاد والإباحة من الفكر الغربى نفسه ، الذي كانت الفلسفة المسيحية الغربية وخاصة الكاثوليكية ، ما تزال تؤثر

فيه فالبرجماتية « تعارض الدين والعقائد وتنكر الثبات والخلود واللانهائية وتعارض القانون الأخلاقى وترى أن السلوك الخلق شىء آخر غير الآداب الاجتماعية القائمة على الدين وأنه يمكن أن يكون المجتمع منظماً دون أن تكون روحه خلقه » ولاريب أن هذه هى صميم الأسس التى يقوم عليها الفكر اليهودى التلمودى ومنها انبعثت الفلسفة الماسونية والفكرة الصهيونية كما تقوم البرجماتية على « فصل الدين عن التربية ، وهى تخضع كل شىء للعمل ، فالتفكير خاضع للإرادة ، والحقيقة خاضعة للعمل ، ومعيار الحقيقة هو صلاحيتها للعمل ، والمعرفة نوع من العمل ، وهى تنكر وجود القيم النهائية والمطلقة الذاتية التى تقول بها المثالية القائمة على أن هذه القيم صور من طبيعة الوجود كالحق والجمال » « وسيكولوجية البرجماتية فى اعتمادها على التعبير البيولوجى للحياة فقد اعتمدت على أشياء لم تثبت صحتها بعد »[1] . وتتمثل الفلسفة البرجماتية من خلال وليم جيمس وجون ديوي وقد دعا وليم جيمس إلى الإيمان بالواقع الحسى الملموس. والعمل عنده مقدم على المعرفة ويرى أن المشاعر تنبع من الجسد وليست النفس مصدر المشاعر .

دعا جون ديوى إلى فصل الدين عن التربية ودعا إلى تطبيق المنهج التجريبى على أمور الدين والأخلاق والاجتماع . ويرى وليم جيمس أن الحقائق إنما هى وسائل لفهم الدنيا . يقول سلامه موسى: ليست الأخلاق عند ديوى شيئاً مطلقاً ، وليست هناك – أى عنده – أخلاق مثلى دائمة ، وإنما هناك تغيرات اجتماعية تؤدى إلى تغيرات أخلاقية ، ويرى جون ديوى أن المعرفة إله ووظيفة فى خدمة مطالب الحياة .

---

(١) الدكتور عمر حليق : بحث مطول فى مجلة الرسالة سنة ١٩٥٠

الباب الثالث

الفلسفه العنصريه
(فلسفة الاستعمار والأجناس)



الفصل الأول

فلسفة الاستعمار

يمكن القول بأن الفكر الغربى من خلال مفاهيم الليبرالية القائمة على الاستعمار قد استحدث مفهوماً فلسفياً لتبرير هذا الاتجاه الخطير الذى ارتبط بالحضارة الغربية واختلف فى طريقته عن الامبراطورية الرومانية وإن لم يختلف فى أصوله ومنطلقه .

ويصور هذا الاتجـــاه جان بول رو فى عبارة واضحة : «كان الرومان يقولون : فى العالم فئتان : نحن والبرابرة ، لقد تغيرت العبارة وأصبحت أقل فظاظة ، ولكنها لا تزال أقل وضوحاً ، أما معناها فهو هو : الغرب هو مثل كل شيء وطننا . البرابرة فى نظرنا أو الشرق ، هو كل آسيا وكل افريقيا ، وتقوم الفلسفة الاستعمارية على دعوى . حملها عدد من الكتاب والفلاسفة تصف الاستعمار بأنه رسالة عالمية مقدسة : هى رسالة المدنية والحضارة ، وأن الفتح والغزو ليس غاية بل وسيلة لإعلاء شأن البشرية والسمو بها ، فى آفاق العزة والحرية والكرامة وقد نشأت دراسات فلسفية مستفيضة حول مفهوم الاستعمار (Colonisation) وأبرز الخطوط التى تقوم عليها هى أن هناك أقوام من أصول عليا وأقوام من أصول دنيا وإن من حق الأقوام العليا أن تحكم وتسيطر وقد أطلق على هذه النظرية اسم (تعدد المنشأ) وقد أطلقوا على حملات المبشرين اسم الاستكشاف والوصول إلى المناطق المجهولة فى أفريقيا وآسيا كما أطلقت على الاستعمار اسم التجارة وأطلقت عل الاحتلال اسم الانتداب والوصاية

وقد أثبتت الوقائع فساد هذا التصور الفلسفي كله وأكدت أنه لم يمكن إلا ستاراً لحملة ضاربة من حملات القتل والاستقلال والسيطرة .

يقولو كانتول سميث : وقف الغرب يوجه كل أسلحته الحربية العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامي بغرض إذلاله وتحقيره وإشعاره بالضآلة والخنوع وقد عمد الاستعمار إلى ربط الاستعمار العسكرى والسياسى بالاستعمار الثقافى والحضارى ، وبدأ الاستعمار أولا باسم التجارة ثم تحول إلى الفتح والغزو أو انتزاع الأرض من سكان والاستيطان وتهجير الأجانب وقام الاستعمار أساساً على توظيف ذهب أوربا الذى طفحت به خزائن بنوكها فى أواخر القرن الماضى وفتح الأسواق لمنتجات الغرف الغربية التى تدر قناطير الذهب على الرأسماليين والمرابين كما اتجه أساساً إلى اقراض الأمراء وحكوماتهم لتكبيلهم بالنفوذ الغربى ، وعمد فى نفس الوقت إلى السيطرة بالامتياز هلى استثمار المناجم وأبار البترول وإقراض الفلاحين بالربا الفاحش وتسخير مواد البلاد لصالح المرابين مع الوقوف فى وجه أى تصنيع . والعمل على أن تظل البلاد أسواقاً مضمونة لتصريف منتجات لانكشير وبورشكير وليون وباريس ولندن وفرنسا وقد عمد الاستعمار إلى إدخال قوى عددية فى كثير من المناطق لإضعاف نسبة سكانها الأصليين ، وقسم البلاد إلى دويلات صغيرة وفرض المعاهدات ذات المواد الناقصة وذلك كله من أجل تعميق النفوذ الاستعمارى .

كما رافقت الاستعمار أساليب من المظالم القاسية التى كانت تصل إلى درجة الإبادة بالجملة . وبتهجير هدد ضخم من الأيدى العاملة لإدارة المرافق ومثال ذلك مافعله المهاجرون الأمريكيون الذين عملوا على إبادة أصحاب البلاد الأصليين من الهنود الحمر ليحلوا محلهم فى أرض القارة ثم استقدموا بضعة ملايين من زنوج أفريقيا عن طريق القسر والسيطرة ليستخدموهم عبيد فى تعمير الأرض

فى القارة الجديدة وقد حاول كثير من الكتاب الغربيين أن يصوروا الأجناس الملونة بأنها ليست فى عداد البشرية ، وقد وصلت هذه الفكرة الى أعلى مداها فى عبارة مونتسكيو فى كتابة روح القوانين حين قال . « إن لنا حقاً مكتسباً فى أخذ الزنوج خدماً وعبيداً فما هذه الشعوب إلا عناصر سوداء البشرة من قمة الرأس إلى أخمص القدم ولا يمكن أن نتصور أن الله وهو ذو حكمة يضع روحاً طيبة فى مثل هذا الجسم الأسود » كما ظهرت نظرية تعدد المناشىء للأقوام وقال الأوربيون أن أهل البلاد المستعمرة ليسوا من بنى نوعنا . وقد قامت فلسفة الاستعمار على النظام الربوى والمغامرة والتجارة ، واعتبرت أساساً فى صلب الحضارة الرأسمالية ، وأطلقت رؤوس الأموال والاحتكارات وأقامت أنظمة الكارتل والترست وغيرها من صور الاحتكار والرهون وبيع الأراضى وفى مصر وحدها تجربة واضحة خلال عصر إسماعيل فى الاقراض الربوى وما انتهى به إلى الاحتلال البريطانى ، ثم كيف أمكن أن تقع ثلث الأراضى المصرية فى أيدى المرابين خلال عشر سنوات من الاحتلال عن طريق القروض والفوائد مما أكد بحق قول القائل بأن الرأسمالية أعلى مراحل الاستعمار .

وقد أشار كتاب بنوك وباشوات وغيره من الأبحاث إلى الامتيازات التى منحتها الدولة الثانية منذ عام ١٥٢٥ للقناصل الفرنسيين والانجليزيين وما اتصل بذلك بنظام المضاربات والبورصة وما أدى إليـه من مشاريع الرهن والبيع القسرى وسرقة أموال البلاد وتهريبها إلى الخارج فى حقائب الدبلوماسية لحساب أصحاب البنوك والمرابين والتجار .

وقد بلغت نسبة الربا فى هذه القروض التى حصل عليها الثراء والحكومات إلى الثلث أو يزيد من المبلغ المقترض ،وقد أشار جوستاف لوبون إلى ذلك حين قال : إن الحيل التجارية التى كانت تتم بوقاحة تدل على ضعف الطلاء لدى

( ) من بحث عن الاستعمار للأستاذ صبحى على رزق فى كتابه جوانب من قصاصا الأمة العربية .

رجالنا المتمدنين . هذا بالإضافة إلى الأموال المهربة إلى الحدود والجزر والبحار والمحسوبة من الغنائم أو التعويضات . وقد صور نابليون مفهوم الاستعمار حين قال عبارته التاريخية عند احتلال مصر « علينا أن ننقض كاللصوص على لصوص أقل مناجرأة لنصبح المسيطرين على طريق الهند » . وكان معنى هذا هو تعميق الأسلوب الذى خطه ميكافيلى فى إنسكار القيمة الخلقية فى السياسة . وقد صور لوثروب استوارد هذا المعنى حين قال فى كتابه حاضر العالم الاسلامى : إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها فى التاريخ من حيث الفظاعة والخطورة والمدى والمجال فما كان لليونان وروما من قبل من السيطرة المحدودة على بعض من العالم لا يعد بالاضافة إلى السيطرة الغرب شيئاً مذكوراً » . وقد عمد الاستعمار فى سبيل تركيز وجوده إلى عمل خطر فى مجال الفكر ، فى العالم الاسلامى وهو محاولة تزييف القيم الاسلامية وإحلال مفاهيم مضللة بدلا منها ، كما عمد إلى إحياء العادات القديمة والأعراف الجاهلية والحضارات البائدة لعزل الأمم عن الاسلام ، وما زال دعاة الغرب يعملون على دفع المسلمين لكى يتنازلوا عن القيم الرئيسية فى عقيدتهم وفكرهم وأن يبدلوهم بها مفاهيم أخرى من شأنها أن تدمر كيانهم وتحول بينهم وبين المقاومة وتدفنهم دفناً فى مجال الاحتواء والانصهار فى الفكر الأممى ، ومن الحق أن نقول أن الأوربى لم يفد إلى الشرق كمدن بل المستعمر وأن المسلمين لم يتوقفوا عن مناهضة الاستعمار ومقاومته ومجاهدته بكل الأساليب والوسائل دون توقف ، بقوة السلاح وبالأجساد المتراصة وبالرفض والمعارضة ولم يستطع الاستعمار الانتصار عليهم بأى قوة من القوى المادية بل انتصر عليهم بالخديعة والمؤامرة .

الفصل الثاني

فلسفة الأجناس

(نظرية العنصرية)

لم تكن الفلسفة العنصرية من نتاج « النظام السياسي الغربي والاستعمار » وحده ولكنها كانت دعامة أساسية في الفكر اليهودي التلمودي الزائف المسيطر على الفكر الغربي ، والفكر البشري كله .

ذلك أن العنصرية هي أكبر ثمار الانحراف الخطير الذي إنتقلت به اليهودية من مفهوم الأديان المنزلة في طريق الفكر الإنساني إلى مفهوم التسلط والسيطرة عن طريق خلق مفهوم يقوم على الشعب المختـــار المتميز الموعود بنبوءة الأرض الموعودة وهي الامبراطورية اليهودية العالمية .

ومن هنا فقد كانت الفلسفة العنصرية القائمة على الأجناس والدماء والعناصر من أكبر الدعوات التي طرحها عصر التنوير وما بعده في مواجهة روابط الدين والفكر والوحدات السياسية الكبرى التي ربطتها عوامل مختلفة ، وكان من نتائجها سقوط كثير من الامبراطوريات والدول الكبرى وقيام وحدات إقليمية على أساس اللغات والأجناس تعلي من شأن أعراقها وتتصارع ثم تتقاتل وتظل على عداء دائم يحول دون التقاء الأمم في مجموعات كثيرة لمصلحة أهداف اليهودية التلمودية .

* * *

وتشير كثير من المصادر إلى أن الفكر اليهودى التلمودى الزاحف على الفكر المسيحى الغربى، قد أنشأ أكثر من محور للصراع والتضارب بين الأمم والشعوب وأنه غذى فكرة العنصرية وأقام دعوى الآرية والسامية لتمزيق أوربا عنصريا، كما طرح فكرة التفسير المادى للتاريخ لتقسيم أوربا والعالم كله عقائدياً بين الرأسمالية والماركسية. وأنه يستهدف من وراء تحريك هذه الدعوات وإثارة الخلاف بينها إلى هدم القوى الاجتماعية والفكرية جميعاً تمهيداً لسيطرته الكاملة على الفكر البشرى.

(٢)

أبرز الدعاة إلى العنصرية: جوبينو وريناك ومن عجب أنهما هما فرنسيين قد دعيا إلى إعلاء الجنس الآرى (الألمانى) ثم إتسعت الدعوة إلى الأجناس من عد وشملت الجنس الأبيض كله الذى عد فى قسط الباحثين هو الجنس الآرى، فى مقابل الجنس السامى الذى يمثل الأجناس الملونة. وارتبطت الدعوة بالاستعلاء الاستعمارى فى نفس الوقت الذى أصبحت فى نظر الألمان (الجرمان) دعوة إلى الامتياز بالسيادة والحرية.

وفيما قبل هذه الدعوة كان المفكرون الألمان (وعلى رأسهم هردر وجوته ونوفاليس) يسفهون آراء القائلين بالتفرقة بين الأجناس البيضاء والصفراء والسوداء، ولا ريب أن جوبنيو وريناك كانوا على صلة ضخمة بالاستشراق ومن وراءه بالماسونية ولهما كتابات عن اليهود وتاريخهم.

وبالرغم من فساد نظرية الأجناس وظهور أبحاث علمية متعددة تدحضها تماماً فقد استغلت هذه النظرية استغلالا واسعاً وأصبحت من بعد خطراً من أشد أخطار الفكر السياسى والاجتماعى ومن أبعد الدعوات أثراً فى المجتمع الغربى والمجتمعات الإسلامية على السواء. وليس مرد هذه التحولات الخطيرة التى حدثت نتيجة الدعوات إلى الأجناس إلى مدى أهمية الدعوة نفسها أو قيمتها

العلمية ـ فقد ثبت بأكبر من دليل زيفها واضطرابها ـ ولكن بالقوى الخطيرة التى ساندتها ودفعتهـــا إلى الأمام ، وفتحت أمامها آفاق البحث وصبغت بها الدراسات الاجتماعيةوالسياسية ، ثم إلى الأثر الذى كان للاستعمار والاستشراق فى فرضها على الأمم والشعوب ، وإغرائها باعتناقها .

وقد ثبت أن كل الدعاة إلى الطورانية فى الدولة العثمانية كانوا من اليهود والدونمه وأن الذين حملوا لواء الدعوة إلى الانفصال بين الترك والعرب وإعلاء الدعوة التركية وردها إلى أعماق التاريخ القديم السابق للاسلام إنما كانوا من المستشرقين واليهود ودعاة من خارج الدولة العثمانية نفسها .

(٣)

يقول لوثروب ستوارد فى كتابه (حاضر العالم الإسلامى) إن العصبية الجنسية هى التيار العجيب الذى بدأ فى أوربا ثم أخذ ينتشر فى الأرض حتى بلغ أقصى الرقاع المعمورة فى الشرق والغرب ، وفى نحو منتهى القرن التاسع عشر جاوزت العصبية الجنسية حدود أورباوبلغت الأقطار الإسلاميةوانتشرت فيها انتشاراً سريعاً فنشأت حركة « تركيا الفتاة » وإيران الفتاة » . وحركات وطنية أخرى فى أقطار متباعدة الأقاليم الجغرافية كالجزائر ومصر والهند ، ثم نشأت الجامعة الطورانية ، والجامعة العربية » .

ويمكن أن يقال استكمالا لذلك تلك النزعات الإقليمية والقومية الضيقة التى انتشرت فى العالم الاسلامى والأمة العربية ، والتى قامت على إحياء الماضى القديم السابق للإسلام كالفرعونية والبابلية والآشورية وكانت الفينيقية أقوى هذه الدعوات وأعمقها وما تزال آثارها قوية فاعلة .

(٤)

غيران نزعة الجنس والعناصر قد مرت فى الغرب بتاريخ طويل قبل أن

تصل إلى العالم الإسلامى ، وكانت مقدمة لدعوة خطيرة هى القومية اليهودية التى تصطبغ بالصبغة الصهيونية وتعلى شأن الجنس اليهودى والدعوى إلى فرض تاريخ قديم اندثر منذ ألفى عام وإحياء لغة وجنس استمدا من عناصر أخرى من شعب الخزر وليست هى العناصر اليهودية الأصيلة التى عاشت فى المنطقة العربية وذابت فيها وانصهرت فى داخلها .

(٥)

يرد كثير من الباحثين أول مدخل لكلمة الآرية فى الفكر الأوربى الحديث للمستشرق الانجليزى سير ويليام جونز الذى درس اللغة السنسكريتية وغيرها من اللغات الهندية المقاربة لها ، أيام كان قاضياً فى الهند وترجم منها الانجليزية وأشار إلى التشابه بينها وبين كثير من اللغات الأوربية، كان ذلك فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وقد تابع العلماء أبحاثه وتبين لهم تقارب اللغات السنسكريتية والفهلوية والأرمينية واللاتينية والاغريقية والتيوتونية والسلافية وغيرها وسميت هذه اللغات بالآرية ثم سرى الاسم بالمجاز إلى الأمم التى تتكلمها .

ومن ثم انتشرت فكرة الآرية فى ممالك أوربا ، فكتب الكونت جوزيف دى جوبنيو رسالة عن عدم تساوى الأجناس البشرية، ونادى بتفوق الجنس الآرى وكتب مواطنه (لابوج) كتاب (الآرى) فكان أشد ايغالا فى الوهم والتعصب وتأثر بالفكرة من أدباء انجلترا توماس كارليل ، غير أن العلم لم يلبث أن رفض هذه النظرية ودحضها بما لم يبق بعد إثارة للشك إذ لم يقم دليل على أن (آريا) هى منشأ الشعوب التى تتكلم هذه اللغات المتشابهة ولا على أن تلك الشعوب ترجع إلى أصل واحد ، ولا على أن تلك اللغات على تشابهها تفرعت عن لغة أصيلة واحدة .

ثم جاء رينان فأوغل فى التعصب واستمد من الخلاف اللغوى خلافاً عنصرياً وأعلن أن الجنس السامى أدنى من الجنس الآرى إذا قورن به، وكان ذلك خدمة

الاستعمار والنفوذ الأجنبي، وليس أدل على انحيازه أنه اعتبر التوحيد الذى عرفه العرب نقيصه، وقال «والتوحيد هو أهم خصائصهم وهو الذى يلخص ويفسر جميع صفاتهم، ففخر الساميين فى كونهم أول من عرف التوحيد وعنهم أخذ العالم الديانات، ثم عاد يقول أن ميل الساميين إلى التوحيد هو الذى يفسر أنهم لم يكونوا من أصحاب «المثيولوجيا» مثل الآريين، كما اتهم العقلة السامية بنقص عقلى هو عجزها عن الفكر الفلسفى.

وقال : إن الساميون تنقصهم الدهشة التى تدعو إلى التساؤل والتفكير لأن اعتقادهم فى قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشىء».

ويبدو من نبرة رينان طابع الاستعلاء بالآريه الانتقاص للشرق لأنه مصدر الأديان ولأنه حامل لواء التوحيد.

* * *

(٦)

يعتبر الباحثون أرثر دى جونيو (١٨١٦ — ١٨٨٢) أول من وضع أصول القومية الحديثة القائمة على الدماء والأعراق فقد كان مقاله عن التفاوت بين الأجناس البشرية مقدمة خطيرة لهذه الدعوة.

قال : إن الدم ذو أهمية عظمى وأن الناس يتفاوتون فى العنصرية، وأن الحضارة لا يمكن أن تنتقل من شعب إلى شعب ولذلك فان الأجناس الحاضرة لا يمكن أن تسمو إلى مستوى رفيع»، وقال : إن الشعب الألمانى هو الشعب المختار إذ العنصرية عنصرية مرهونة ببقاء الدم.

ودعا جونيو إلى عبادة الأسلاف باعتباره الوسيلة الأساسية للمحافظة على بقاء الأجناس الراقية وتمكينها من الاضطلاع برسالتها فى زعامة العالم.

وإذا كان رينان قد تابع جونيو ، فان عدداً من الأدباء والفنانين الألمان لم يلبثوا أن حملوا لواء هــــذه الدعوة من أمثال نيتشة وفاجنر ومهدوا بذلك للخطوة التي جاءت بعد الحرب العالمية الأولى .

(٧)

ومن هنا نشأت الفكرة العنصرية فى ألمانيا من خلال أفكار جوبينو وعدد من الباحثين الذين نموها من بعده (فاشير دى لابوج وهوستون تشمبرلين) الذين أجمعوا على أن الجنس الآرى النورديكى هو أرقى جنس وهو الذى خلق المدنيات وجرت بعد ذلك محاولات لايجـاد البرهان الأنثربولوجى على أن الحضارة الأوربية حتى فى البلدان اللاتينيـــة والصقلية هى غرس يد الجنس الجرمانى ، ويرجع هذا القول إلى سنة ١٩٠٥ .

وقد بلغت هذه الدعوة مداها من بعد الحرب العالمية الأولى حيث بلغت العنصرية أعلى ذراها فى القول أن الجنس الآرى هو سيد هذا العالم ، وهو الموكل دون الناس جميعاً بحمل أمانة الحضارة .

وقد وصل أدواف هتلر إلى غايات بعيدة فى اعلاء الجنس الجرمانى حين قال أن كل ما تراه من الحضارات البشرية يمت بأصل إلى ثمرة النشاط الآرى الخلاق فقد كان الآرى ولم يزل حامل المشعل الالهى الذى يبين الطريق أمام البشرية ، فشرارة العبقرية الإلهية فى جبينه المشرق ، وهو الذى فتح دروب المعرفة أمام الانسان ليجعل منه سيد الـكائنات الحية على هذه الأرض فاذا توارى فسيسود الظلام وتنهار الحضارة » .

يقول فيشر : تقوم فلسفة النازى على وجهة النظر التى نالت تمجيد فاجنر ونيتشه وتأييدهما أو التى بشربها تشمبرلين قبل الحرب العظمى ، وهو أن الجنس

عماد كل شيء وأن روائع العالم المجيدة تمت جميعها على أيدى الجنس الآرى وقال — أى تشمبرلين — بأن المسيح ودانتى وتوماس أكوتياس كانوا بلا ريب آريين،وأن القوط الذين انحدروا من نفس هذا الجنس التيوتونى صنعوا لتقدم الحضارة أكبر مما صنعه الرومان ، ويعتقد تشمبرلين أن الجنس الانجلو ساكسونى قد قدر له أن يكون القوة المسيطرة فى تاريخ العالم ومدنيته ، وكان كبلنج الشاعر على هذا الرأى .

وقد حملت أوربا هذا المفهوم ونمته وعمقته لتجعل منه تبريراً للاستعمار . ومحاولة ايجاد سند فلسفى للتسلط والسيطرة على البلاد المستعمرة وقد أطلق عليه هونسون فى كتابه الأمبريالية « الحق الالهى فى القوة » .

وقد قام مفهوم الاستعلاء العنصرى أساساً مستمداً من فكرة الانتخاب الطبيعى فى الفلسفة الداروينية ، وقد حاول دعاة العنصرية أن يشبهوا الصراع بين أجناس البشر بالصراع بين أجناس الحيوان وفق قانون طبيعى يسحق القوى فيه الضعيف وقد اتخذ الاستعمار منطلقه من القول بأن السعادة لا تكون إلا للأقوياء وأن الجنس الأبيض بميزته العنصرية هو صاحب الحق فى السيطرة على العالم بدعوى الوصاية من أجل المدنية أو مهمة الرجل الأبيض وكأنما جاء حق الأجناس فى العصر الحديث بديلا لحق الملوك فى العصور الوسطى[1] .

ومن الحق أن يقال أن نظرية سيادة الأجناس لم تكن مستحدثة فى العصور الأخيرة وإن كانت لها جذور قديمة فى الفكر اليونانى والامبراطورية الرومانية ومن أبرز من دعا إليها (أرسطو) الذى برر طموح الإغريق لسيادة العالم

---

(١) تاريخ أوربا فى العصر الحديث لفيشر عن كتاب: جوانب من قضايا الأمة العربية: حلمي رزق .

فنادى بأن جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة وأخرى تولد لكى تكون عبيداً . وكان الفرس يعتقدون هذا الاعتقاد .

وتقول جوان توماس فى كتابه الأجناس : أن العبودية تحولت منذ الانقلاب الصناعى فى أوربا فى بداية القرن التاسع عشر إلى نظام مقدس ، وأنه فى سبيل تأييد هذا النظام والدفاع عنه ابتكر المفكرون وعلماء الاجتماع أسطورة شبه علمية لتبرير حالة مناقضة للمعتقدات الديمقراطية .

ويقول جوان توماس أنه ليس هناك أى أساس علمى لتصنيف المجتمعات تصنيفاً عاماً على أساس من الرقى النسبى .

(٨)

أن طرح الفكر البشرى لفلسفة الأجناس والعنصرية كان بعيد الأثر فى المجتمع الغربى ، كما مد آثاره إلى المجتمع الإسلامى فأحدث به أبعد الأثر . وقد اصطبغت فكرة الأجناس والعنصرية بصور شتى منها القومية والإقليمية .

ويرى هانس كهن : أن البروتستانية هى مصدر الحركة القومية الأوربية :

يقول : كانت البروتستانية فى الأصل حركة دينية عالمية ، شأنها فى ذلك شأن الكاثوليكية ، ولكن حقيقة وجودها قضت على فكرة العالمية الدينية التى سادت العصور الوسطى ، إذ أن مطالبها برجوع الفرد إلى ضميره هيأ الأسباب لتعدد الفرق والمذاهب الدينية ، كما أن مطالبها بوجوب تلاوة الكتاب المقدس ووجوب الموعظة كركن أساسى من أركان العبادة شد من أزر اللغات الوطنية. ثم أن ترجمة الكتاب المقدس إلى هذه اللغات رفع من شأنها . لقد كانت هذه الترجمة نقطة البداية التى انطلقت منها اللغات فى الآداب القومية فى طريق التطور والرقى ، وبالجملة فان هانس كهن يرى أن حركة الإصلاح الدينى ساعدت على

تعدد المذاهب الدينية واللغات القومية فى العصور الحديثة وتقرر أن الثورة الفرنسية « التى أعلنت فى البداية رسالة السلام العام ألقت بأوربا فى أتون حرب أطول أمداً وأشد تدميراً من أى حرب مضت منذ عهد الحروب الدينية » وإنه نتيجة لها قد ظهرت الزعامات القومية لأول مرة فى أيرلندا وروسيا وأسبانيا وإيطاليا والنرويج .

* * *

ويقول إنه لما كانت الثورة الفرنسية هى ثمرة المخططات التى طرحتها اليهودية التلمودية فى الفلسفة الماسونية عرفنا إلى أى هدف كانت تجرى الأمور .

حتى ليصف بعض المؤرخين هذا العصر (بعصر القوميات المشئوم فى أوربا) وإنه كان تهدف إلى العمل على انهيار الكنيسة اللاتينية ، فلما فقدت النصرانية سلطانها على النفوس كانت خطوة الأجناس والعنصرية باسم القوميات هى البديل الماعق فقد دفعت القوميات أوربا إلى الحرب والصراع، بين لاتينية وأنجلو سكسونية ، وسلافية وجرمانية وآرية وسامية وطورانية وبلقانية واشتعلت بينها نيران الاستعلاء ، وكانت اليهودية التلمودية وراء أسطورة الدم وانحطاط السلالات والتميز العنصرى لتطرح دعوى تفوق الجنس اليهودى على أوسع نطاق وابتكار حملة اللاسامية لضرب كل القوى المعارضة للاتجاه اليهودي التلمودي الذى كان نواة الصهيونية العالمية .

* * *

وقد كان للدعوة العنصرية أثرها فى استغلال اللهجات الإقليمية التى أصبحت لغات موحدة أخذت تحل محل اللاتينية ، وأصبحت فكرة الدولة القومية بديلا للمجتمع الامبراطورى « ونهاية المثل الأعلى لعالم مسيحى واحد تتمثل

وحدته فى سلطة الكنيسة الروحية وقيام مثل أعلى جديد قوامه الدولة القومية . ومن ثم استقرت فكرة « الوطنية » لتكون مقابلا للحق الإلهى للملوك ورداً على سلطة أمراء الاقطاع ، ومن ثم أصبح الحكم علمانياً وليس دينياً ، وقد ظهر ذلك بوضوح فى كتابات لوك وهوبز ، ومن قبل فى العقد الاجتماعى لجان جاك روسو .

. . .

ولقد وضعت بعض الأبحاث : دعوة العنصرية والأجناس بأنها « الثورة المالية » انطلاقاً من أن اليهودية التلمودية هى التى دفعت القومية إلى أعلى ذراها لإسقاط الكنيسة وتحرير اليهود . كما جرت الأبحاث للتفرقة بين العنصرية والأجناس **Racialism** وبين القومية **nationalism** .

ويرى بعض العلماء الألمان إن الجنسية هى الفارق بين شعب وشعب ، ومن هنا فقد قسموا أوربا إلى صقالبة وتوتون ولاتين .

وقد صادم هذه النظرية وعارضها حقيقة أساسية هى إنه ليس فى العالم أمة مجبولة من عنصر واحد ، وإنه لم يتح لعنصر واحد أن يضم فى أمة واحدة كل الشعوب التى أصلها إليه .

وجرى البحث عن التعارض بين القومية والعنصرية

ومن ثم حلت الفوارق العنصرية أو الجنسية محل الفوارق الدينية ، وقام الصراع بين الأجناس والأديان .

(٩)

الجنس الأبيض والأجناس الملونة

تركزت الدعوة إلى العنصرية والأجناس عدة أهداف أساسية :

الأول : إعلاء الجنس الأبيض فى محاولة لتبرير استعمار الأوربيين للأجناس الملونة فى أفريقيا وآسيا .

الثانى : إثارة الدعوى إلى الأجناس لإحلالها محل الأديان ولخلق صراع بين الأجناس المختلفة ولهدف أكبر من ذلك هو الدعوة إلى خلق فكرة الجنس اليهودى .

الثالث : محاولة تمزيق الوحدة التى فرضها الدين أو المذهب ومحاولة لتمزيق أوربا للمرة الثانية بعد أن مزقها صراع الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية ولإخراج أوربا من الوحدة الدينية كلية .

* * *

ولقد انطلقت الدعوة إلى العنصرية من نظرية دارون كما انطلقت النظرية المادية ، ونظرية التطور ، واعتمدت على فرضية دارون القائلة بأن « البقاء للإصلح » فاعتبرت قضية تؤيد الاستعمار والتوسع وتبرر العدوان والسيطرة للشعوب المتخلفة .

« اعتقد الأبيض إن استعباد أو إفناء المجموعات البشرية المنحطة بواسطة الرصاص الأوربى ليس إلا تنفيذا لنظرية استبدال مجتمعات راقية بأخرى منحطة » بل إن سيادة الرجل الابيض وجدت تبريراً مما هو أبعد فى التاريخ من نظرية دارون . فقد اعتمدت ما أورده أرسطو من إعلاء الجنس الإغريقى والدعوة إلى أنه سيد العالم وإليه زعامته . وقوله إن هناك جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة وأخرى تولد عبيداً ، وقد تجددت هذه النظرية مرة أخرى فى القرن الخامس عشر مع انطلاق حركات الاستعمار من قلب أوربا لتطويق عالم الإسلام والدوران حول أفريقيا .

وكما أدخل سبنسر إلى نظرية دارون البيولوجية فكرة بقاء الأصلح فى علم الاجتماع وجاء نيتشه فتحدث عن الإنسان والإنسان الأعلى (السوبرمان) وعلى أسسها اعتمدت أصول نظرية استعلاء الجنس والعنصرية .

وقد جاءت كتابات دعاة الاستعلاء باللون الأبيض من منطلق وجدانى فقد كان كتابها من أمثال جوبينو وتشمبرلن إنما كانوا يتحدثون عن مشاعر تملء الجوانح بالفخر والإزدهاء .

ولقد كانت قضية الأجناس فى أساسها قضية لغوية تقوم على أساس وجود أوجه الشبه بين اللغات الهندية باللغات الأوربية ، غير أن القضية سرعان ما اتخذت ذريعة لخلق صراع بين الأجناس ، ويعد ماكس مولر اليهودى أول من استعمل لفظ الآريه وأول من روج لاتخاذ الأساس اللغوى أساساً للعناصر والأجناس . يقول الدكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى فى بحثه عن الأجناس الآريه : لم تكن تعرف إشارة (بوب) إلى أوجه الشبه العديدة بين عدد عظيم من اللغات الأوربية وبعض اللغات الآسيوية حتى أعقبها ظهور روح جديد قوامها فرض أن أصل الأجناس التى تتكلم هذه اللغات المشابهة لا بد أنه واحد .

واتخذت وحدة اللغة أو ما يشابهها وحدة بين هذه الأجناس ، وكان ماكس مولر أول من روج لهذه الفكرة ، ومعنى هذا ان اليهود تلقفوا الفكرة لمصلحتهم ، وقد استخدمت النظرية أساليب كثيرة فى سبيل الترويج لإعلاء الجنس الأبيض فى محاولة تبرير الغزو والسيطرة والسيادة التى تخص سلالة أو طبقة معينة من السلالات البيضاء . وقد امتدت نظرية التفوق الجنسى إلى شعوب أوربا فظهرت نظرية تفوق العنصر الرومانى فى ألمانيا ، والعنصر الأنجلو سكسونى التى نشأت فى بريطانيا وأمريكا ونظرية تفوق الكلت فى فرنسا وعزيت إلى هذا الجنس صفات جسدية تجعل منه جنساً متفوقاً عن بقية الأجناس البيضاء ، كما جرت المحاولة لإدخال كبار الشخصيات التاريخية فى

---

(١) راجع أبحاث جوان كوماس (خرافات عن الأجناس) وفصل الأجناس فى كتاب التطور للدكتور السيد محمد بدوى .

النظرية الأوربية من أمثال دانتي ورفائيل ومايكل انجلو وشكسبير . بل انها تعدت ذلك الى الادعاء بأن بولس الرسول ويسوع المسيح من الآريين .

ولقد ذهبت النظرية الداعية الى اعلاء الجنس الأبيض: التوتوني الأوربي الى الصاق كل أسباب الضعف والتخلف بالجنس الآسيوي الملون . وربطت الجنس الأبيض بالروح الهلينية المتكبرة المتعالية التي تتصف بالسيادة ، بينما ربطت الأجناس الآسيوية الملونة بفكرة التسامح الديني الضعيفة المشوبة بالرحمة . وحين دعا نيتشه الى السوبرمان (الإنسان الأعلى) وقف نظريته على اهلاك الأجناس الضعيفة وابقاء الأجناس القوية وعرض بما تحمله المسيحية من دعوة الى الرحمة ورعاية الفقير والضعيف والمريض . وحين فلسف روزنبرج نظرية الاستعلاء الجنسي الألماني أشار الى التنازع بين الروح الشمالية المتكبرة المتعالية والروح الآسيوية المتسامحة المتخاذلة ، وقال ان تاريخ التنازع بين هاتين الفصيلتين يرجع الى ما يقرب من ألفي عام ، فلقد أرادت الكنائس ولاسيما الكنيسة الكاثوليكية أن تسيطر بالحب على حين أراد الأوربيون الشماليون أن يعيشوا وأن يموتوا أحراراً وقدندد روزنبرج بالمسيحية وما وصفه بمساوئها التي جرتها على أوربا حين دعا إلى « المحبة » التي سرعان ما انقلبت إلى معنى الذل والخضوع والزهد ، ويرى أن المسيحية في دعوتها إلى المحبة قد استغلت هذه العاطفة بغية التحكم والسيطرة ، وقد ابتعدت عن شخصية مؤسسها حين استبدلت به فكرة الكنيسة وأفسحت المجال لسيطرة الأكليروس لحفرت بين المسيح والإنسان هوة سحيقة بل جعلت بينهما وسطاء من رجال الدين » .

تقييم النظرية ونقدها

(١)

أولا : تنطلق النظرية أساساً من معارضة أساسية لحقيقة أكدتها الأديان السماوية والأبحاث المنصفة وهي وحدة الجنس البشري » .

ثانياً : إعلاء جنس واحد على باقي الأجناس : هو الجنس الأبيض الذي لا يزيد على ثلث سكان العالم ، ومحاولة انتقاص الأجناس الأخرى ، ونسبة كل عوامل القوة والذكاء للجنس الأبيض ونسبة كل عوامل الضعف والتخلف للأجناس الأخرى .

(١) أكد العلماء انتماء الإنسان إلى أصل واحد أو أصول متعددة وجنحوا إلى تأييد نظرية الأصل الواحد وفي ضوء هذه الحقيقة العلمية تبدو النزعة العنصرية فرضاً ليس ما يسوغه أو يدعمه[1] .

(٢) أما عن الوراثة فإن الإنسان لا يرث الاستعدادات أولية تماما تنمو بتأثير البيئة والتربية .

(٣) ثبت استحالة فكرة البقاء الجنسي التي يتحدث عنها بعض العنصريين الأوربيين كما اتضح أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن أن يرجع إلى لون البشرة .

(٤) تأكد أن الفروق العقلية والنفسية ما هي إلا نتيجة لظروف بيئية منها أن فرصة التعليم قد اتيحت لأفراد جماعة دون أخرى .

---

(١) اوجين بيتار : العالم الأنثربولوجي في جامعة جنف .
(٢) السلالات البشرية دكتور يسري عبد الرازق .

(٥) أثبتت التجارب التى أجريت على طلبة المدارس بالولايات المتحدة : إن المستوى العقلى لتلاميذ زنوج الولايات المتحدة يفوق مستوى نظائرهم فى الولايات الجنوبية مما أكد مفهوم أن التميز ليست مسألة جنس بل مسألة بيئة وفرص مختلفة ومستوى ثقافى .

(٦) ثبت أنه ليس هناك ثمة ارتباط بين حضارة معينة والتكوين الجنسى لسلالة من السلالات وإن الحضارات القديمة التى ازدهرت فى حوض البحر المتوسط فى حوالى الألف الثانية قبل الميلاد نمت فى بلاد تميز سكانها بالاختلاط لا بالنقاء الجنسى فضلا عن أن الحضارة فى الوقت الحاضر ليست قاصرة على المجموعة البيضاء فقد دخلتها اليابان والصين .

(٧) القائلين بأن الجنس الآرى أرقى فروع الجنس الأبيض لم يستطيعوا أن يحددوا هذا العنصر الآرى تمام التحديد ولم يتبينوا أصله ولم يثبتوا على وجه التحقيق أنه هو الذى أنشأ الحضارات كلها .

(٨) لم يثبت تاريخيا أن الأوربيين الشماليين هم الذين أنشأوا الحضارة البشرية ، وقد شاركوا فيها متأخرين جداً ، وكانت البشرية قد توصلت قبلهم ممثلة فى أقوامها المختلفة إلى معرفة الزراعة واستئناس الحيوان واستخدام المعادن « وأقاموا صرح مدنيات عريقة كل ذلك قبل أن تعرف الشعوب الشمالية معنى الحضارة بل لقد كان فلاسفة اليونان يلقبون هذه الشعوب التى تعيش فى شمال أوربا بالمتوحشين » .

(٩) ليس هناك صلاحية لجنس ما للقيام بأنواع معينة من الأعمال والحرب وأن جميع الأجناس بل جميع الأفراد بأمكانهم القيام بنفس العمل إذا أتيحت لهم فرص متكافئة فى التعليم والمران .

(١٠) ليس هناك فى الواقع جنس بريطانى ولكن يوجد شعب بريطانى.

ولا يوجد جنس فرنسى ولكن أمة فرنسية ، ولا يوجد جنس آرى ولكن لغات آريه ، وليس هناك جنس لاتينى ولكن هناك حضارة لاتينية[1] .

(١١) فساد نظرية أوصاف الجنس وخصائص القوام والرأس وخصائص الدم ، نظراً لاختلاط هذه الخصائص فى النوع البشرى بدرجة تجعل من العسير جداً تحديد نماذج تقوم على هذا الأساس .

(١٢) إن الإحساس بوحدة الفكر والهدف هى التى تربط الناس بروابط مدنية : على أساس أن الذين يؤمنون بمثل عليا واحدة يجب أن تقوم بينهم قرابة .

(١٣) إن نتائج قياس الملامح الجنسية فى تقرير تفوق جنس على جنس لم تأت بنتائج جاسمة .

(١٤) لا يمكن القول بأنه توجد سلالات بشرية نقية وأن سكان أوربا متعددوا الأصول .

(٢)

هناك حقيقتان أساسيتان : تنقضان فلسفة الأجناس من الأساس .

الأول : أن الجنس البشرى واحد الأصل وإن أخوة بنى الإنسان هى الأساس الذى قامت عليه الأديان ، وهى لاتقيم أهمية كبيرة لاختلافات الجسم أو الدم أو اللون وتعد الناس جميعاً أخوة متساوين .

---

(١) اوجين بيتار : العالم الأنثربولوجى فى جامعة جنيف

(٢) الدكتور يسرى عبد الرازق : السلالات البشرية .

الثاني : إن المجموعات البشرية قد اختلطت إختلاطاً عميقاً منذ عصور ما قبل التاريخ بالهجرة والامتزاج الواسع والحرب إلى درجة أنه لم يعد فى الإمكان القول بأن هناك عرق واحد لا يزال نقياً بقاءاً تاماً .

ثالثاً : إن نظرية الأجناس قامت على الأسس المادية وحدها على أساس الدم واللون وبذلك فقد تجاهلت عاملا هاماً فى وحدة الأجناس وامتزاجها وهو عامل الالتقاء الفكرى والنماذج الروحى والنفسى ، هناك المؤمنون بمثل عليا واحدة هى بمثابة قرابة وأن الزواج والاختلاط والانتشار عوامل هامة حطمت عزلته ومن العبث القول بأن اختلاط الأجناس يهدد البشرية بالتقهقر والتدهور، ذلك لأن عمله الاختلاط هى عملية مستمرة لم تتوقف منذ وجود الإنسان على الأرض . « فالهجرة قديمة قدم السلالة البشرية والهجرة تعنى اختلاط الجماعات تلقائياً ، ويشير التاريخ أن جميع الحضارات قد تمت عمليات غزو لها من جماعات البدو الرحل انتهت بانهيار التقسيم الطبقى وتكوين خليط جديد السكان .

(٣)

لاريب أن الأديان السماوية قامت على أساس وحدة الأجناس وعلى أساس الأخوة بين الناس ، وأن تفاضل الجماعات ليس بالأعراق والدماء ولكن بالعمل النافع وقد جاء هذا الأساس فى اليهودية والمسيحية والإسلام غير أن التحريف الذى وقع فى التوراة - حين زيفها القائمون إليها - استحدث مفهوماً جديداً معارضاً لمفهوم الأديان المنزلة فقد قام أساساً على العنصرية وعلى إعلاء جنس معين هو اليهود ، « ويشتمل سفر التكوين على عبارات تفترض فيما يبدو انحطاط جماعات معينة بالنسبة لغيرها . مثال ذلك : ملعون كنعان : عبد العبيد يكون لأخوته ، هذا إلى جانب أن نوعاً من التفوق البيولوجي قد تضمنه

التأكيد بأن (يهوه Jeherah) قد عقد عهداً مع إبراهيم ونسله»[١] ومن هنا يبدو التعارض واضحاً فى دقة الكتاب المقدس بين هذا الذى يورده العهد القديم وبين ما يورده العهد الجديد ، ومن هنا فقد ظهرت نظريتين : نظرية انقسام الناس على أساس الدين ونظرية انقسام الناس على أساس العنصر .

يقول جوان كوماس : الحقيقة أن انقسام الناس على أساس دينى أكثر إنسانية لأنه فى الإمكان عبور الهوة التى تفصل وتفرق بين الأديان . أما الهوة البيولوجية التى تفصل بين الأجناس فلا يمكن عبورها ، و « الأديان لا تبالى الاختلافات الجسمانية الفردية وتعد الناس جميعاً أخوة متساوين فى نظر الله » والأديان تعارض التفرقة العنصرية منذ البداية » .

ومن الواضح المؤكد تاريخيا أن اليهود والإغريق هم حملة لواء الدعوة إلى العنصرية فى التاريخ القديم ، وأنهم ادعوا لأنفسهم أنهم شعب الله المختار ، كما اعتبر الإغريق أنفسهم سادة العالم وكل من عداهم برابرة .

وقد برر أرسطو هذه النظرية واليهودية التلمودية فى العصر الحديث هى التى أعادت نظرية العنصرية مرة أخرى إلى الحياة وحركتها فى عنف وخلقت لها دعاة ومفكرين ، وأجرت الأبحاث على النحو الذى يحقق لهم غايات واضحة وقديمة ، هى ضرب الأجناس بعضها ببعض والقضاء على مقرر أساسى فطرى أقرته الأديان وأكدته أبحاث العلم وحقائق التاريخ وهو وحدة الجنس البشرى وانصهار الأجناس بالحرب والهجرة على النحو الذى لم يبق معه عنصر واحد فى نقاء يستطيع أن يقول معه إنه قائم بذاته . ولقد اتخذت هذه النظرية وسيلة لفرض خرافة الجنس اليهودى من ناحية ولتحقيق هدف تبرير الاستعمار وسيادة الرجل الأبيض ودعم النظام الربوى الذى يتحرك خلف الزحوف الاستعمارية وتسيطر على الاقتصاد والبنوك والتجارة .

---

(١) جوان كوماس : خرافات عن الاجناس .

(٤)

لم يقم أي دليل أو برهان على أن اللغة وحدة اللغات هى نفسها وحدة الأجناس أو أن منشأ الشعوب التى تتكلم اللغات المتشابهة أو أن تلك الشعوب ترجع إلى أصل واحد، ولا على أن تلك اللغات تشابهها تفرعت منه لغة أصيلة واحدة ولم يثبت أن كل مجموعة إنسانية متفقة فى اللغة متفقة أيضاً فى الصفات الأنثروبولوجية .

(١) ثبت أن الجنس واللغة مفهومان مختلفان اختلافاً تاماً .

وقد أنكر ماكس مولر : الذى استعمل لفظ الجنس الأدبى أى معنى بيولوجى لهذا اللفظ وأكد أن مقومات هذا الجنس الأدبى ليست إلا مقومات لغوية فقط .

(٢) أثبت كثير من علماء اللغات والأجناس: أن اللغة تنتشر وتنتقل من شعب إلى آخر بواسطة عوامل الهجرة أو الغزو أو التبادل التجارى دون أن يعنى ذلك الإنتشار اللغوى ضرورة إنتماء من يتكلمون بها إلى أصل بيولوجى واحد، أو تكونوا من جنس بيولوجى واحد .

(٣) ثبت استحالة فكرة النقاء الجنسى الذى يتحدث عنها بعض العنصريين الأوربيين كما أتضح أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لايمكن أن يرجع إلى لون البشرة .

(٥)

الجنس الأبيض الذى لا يزيد على ثلث سكان العالم ، وهو الذى حاول

---

(١) دكتور يسرى عبد الرازق الجوهرى : السلالات البشرية .

الاستعلاء الجنسى وكراهية الأجناس الملونة واضطهادها وأن النظرية لم تقم على أساس علمى وكل الافتراضات التى حاول دعاتها أن يؤكدا بها وجودها كحقيقة تساقطت كأوراق الخريف أمام ضوء العلم .

ولم تثبت صحة أحد منها وتأكد أن أصل النظرية سياسى وأنها سلاح استعمل لإذلال الشعوب المسلوبة وتبرير قتالها . يقول جوان كوماس فى كتابه خرافات عن الأجناس (ترجمة الدكتور محمد رياض) :

« لقد جاءت اللحظة التى بدأ فيها أصحاب أسطورة الجنس الآرى يحسون بالتدريج أن هذا الجنس الذى أضفوا عليه صفات التفوق والقوة ، والسلالات الأخرى غير الآرية المنحطة ، كل هذا لم يكن له وجود إلا فى أوهامهم » .

وقد إنهدمت النظرية من مختلف وجوه البحث العلمى أما علماء الاجتماع فقرروا أن أجناس البشر على اختلاف ألوانها متساوية فى قواها العقلية وليس الجنس الأبيض هو أرقى هذه الأجناس .

(٦)

قامت الأديان السماوية على : (١) وحدة الجنس البشرى (٢) الأخوة الإنسانية (٣) توحد الناس بالمثل الأعلى والفكر . وإن الناس تتفاضل بالعمل، وأن مجموعات ووحدات من الناس يشكلها الامتزاج النفسى والفكرى من دين أو مفهوم .

وقد قالت هذا اليهودية والمسيحية وجلاه الإسلام فى أفصح منهج . غير أن اليهود حرفوا هذا المفهوم القائم على الوحدة والإخاء وغلبوا مفهوم العنصرية والاستعلاء وتعدد الأجناس .

ويقول الدكتور يسرى عبد الرازق : أن اليهود بعد سقوط اشتور ظهر

بينهم مبدأ التفرقة العنصرية فجاء (يهود بنى عزرا) ونادوا بمنع اختلاط اليهود بغيرهم وأعتبروا جميع أطفال اليهود من زوجات يهوديات أقل شأناً من سائر الأطفال ولذلك كانت مملكة إسرائيل القديمة مهد العنصرية ، ولا يزال اليهود حتى الوقت الحاضر جماعات منعزلة لا يختلط بعضها بغيرها وتعتبر نفسها أو تدعى أنها شعب الله المختار وأن غير اليهود أقل اليهود شأناً ، وتعصبوا لكل ما هو يهودي وأحتقروا كل ما لا ينتمى إلى ملتهم .

« وعلى الرغم من تعاليم المسيح ، ظلوا زمناً طويلا لا يعدون الرقيق من الجنس البشرى » .

« وكان الدين بدلا من الجنس هو معركة العنصرية وإنعكاساً لها ، وبخاصة إذا صاحب الاختلاف فى الدين اختلاف فى البشرة أو الجنس أو اللغة .

« وفوق ذلك رغبتهم فى الاستئثار بالأراضى المكتشفة حديثاً وبخاصة أرض الرق فى افريقية إذ صور هؤلاء الفاتحون أهالى البلاد الذين لم يرحبوا بهم ولم يكرموهم وقادتهم فى صور أشد قسوة وأعظم خطراً من الفاتحين أنفسهم وقد سموهم آكلى اللحوم فى البحر الكاريبى» .

* * *

ويتساءل الباحثون عن الصفات التى يمكن أن تميز الجنس اليهودى عن غيره من تعدد السلالات يقول R. N. Salman : إن نقاوة السلالة اليهودية ما هى إلا أوهام وأن أكثر التعبيرات والأختلافات بين السلالات توجد بين اليهود .

ويقول فيشبرج : أن مزاعم اليهود وإدعاءاتهم عن نقاوة سلالتهم عبث مجرد عن كل أساس : وأن اليهود الذين هاجروا من موطنهم الأصلى كانوا

عبارة عن خليط من السلالات وتتفاوت درجة الاختلاط حسب تاريخ الهجرة ومن الأدلة التى يوردها بعض المؤرخين أن قوانين كثيرة صدرت فى روما وطليطلة وغيرها تحرم المسيحية من الزواج من اليهود ولا شك أن الحاجة إلى إصدار هذه القوانين تؤكد كثرة التزاوج بين المسيحيين واليهود .

كما ثبت أن سلالة اليهود المهاجرين القدماء من فلسطين قد انقرضت ، وإن أغلب اليهود فى العالم هى يهود بالديانة فقط ، وسيكون هذا النوع غالباً من أفراد سلالة أخرى أعتنقوا الديانة اليهودية . وخاصة ما يتعلق بيهود الخزر الذين دخلوا اليهودية مع ملكهم بولان عام ٧٤٠ م ومازال أعداد كبيرة من اليهود فى بولندا وجنوب روسيا تنتمى إلى سلالة مجموعة الخزر هذه ولا ريب أن هؤلاء اليهود بالدين ، ليس هناك مايربطهم أصلا من الناحية الأنثربولوجية بيهود فلسطين القدماء .

(٨)

فى الوقت الذى استعلت فيه الدعوة الآرية والجنس الأبيض المتفوق ، ظهرت حركة السامية واللاسامية أيضاً من خلال صراع الأجناس فى أوربا .

وقد ارتبطت السامية فى أوربا باليهود ، من خلال أحتضانهم لعمليات الربا وسيطرتهم على أسواق التجارة والاقتصاد ، وما يتصل بذلك من إثارة الأحقاد فى المجتمع كله . ومن هنا كانت الدعوة إلى التخلص منهم حتى قال هيجل : أن العناصر الغريبة فى المجتمع يجب أن تهضم أو يجب إبادتها .

ومن هنا بدأت حملة الجرمان على الدماء الغريبة : وتابع هيجل : فاختة وفاجنر ونيشته ، ومما زاد فى اضطهاد اليهود ، دعواهم بالتفوق العرقى وأنهم شعب الله المختار .

وقال هيوستن سيتوارت تشمبرلين فى كتابه (أسس القرن التاسع عشر)

أن اليهودى غريب عن الحضارة الغربية وأن روحه لا تلائم روحها ، وعندما تفيض له فانه يتحكم فيها وقد يقضى عليها حقداً . وكذلك اليهودية فان فيها عنفاً وقسوة وجموداً ، وهى على نقيض المسيحية الرحومة المحبة التى أعطت البشرية فكرة (أبوية الله) . (مع ملاحظة أن الاسلام لا يقر هذا المعنى) .

وقد حاول تشمرلين أن يدلك على أن شخصية المسيح وبولص الرسول ليسا من العرق اليهودى . ومن هنا قامت حركة « اللاسامية » التى يرجعها الباحثون إلى :

(١) الكنيسة (٢) الجيتو (٣) المذاهب السياسية والعرفية غير أن أغلب الباحثين يرى أن اليهود هم الذين صنعوها ليتوجهوا بها دائماً دعوة أنهم مضطهدين ، ويقولون « أن اليهودى نفسه له نصيباً وافراً فى نشوئها ، فهو يشكل أينما حل أقلية عرقية ودينية ولغوية ، ويبدو من غير المرغوب فيه ، ومن ذلك « نفور اليهودى الأوربى من أعمال الفلاحة وميله إلى السكن فى المدن وتعاطى الربا ، وإحتكار رؤوس الأموال المتداولة » .

كما أقترن باسم اليهودى فى الأرباح غير المشروعة مما جعل الناس يشكون فى الأمانة اليهودية . وقد خلد شكسبير (اليهودى) فى رواية تاجر البندقية .

* * *

فاللاسامية فى أوربا معناها كره اليهود وهو شعور عداء مرده إن عوامل اقتصادية واجتماعية[١] حتى يرى بعض الفلاسفة « أنه على الروح الأوربية لكى يبقى لها نشاطها وحيويتها أن تتخلص من الوقوع تحت تأثير الفلسفة الشرقية المتجسم باليهودية وإلى حد كبير بالمسيحية والإسلام ، ويرون أن هذه الفلسفة

---

(١) راجع بحث الدكتور أنيس فريحة « مجلة الابحاث »

أتتهم غازية محاولة القضاء على الروح الإغريقية الوثنية البسيطة التي هي أس من أساس الحضارة الأوربية » .

ولاشك أن هذه المحاولة لتحرير الروح الأوربية من الأثر اليهودى قد فات أوانها جاءت بعد أن غزت الفلسفة اليهودية التلمودية جميع فروع الفكر : السياسة والإقتصادية والإجماع والنفس والأخلاق والتربية نتيجة لنظريات فلاسفة اليهود وأتباعهم : دوركايم وليفى بريل وماركس وسارتر .

أما المسيحية التى تأثر بها الروح الأوربى فهى مسيحية اليهوديه : بولس الذى عمد إلى تدمير المسيحية المنزلة من الداخل وإخراجها من أصولها السماوية الربانية .

أما الإسلام فلا غرو أنه صاحب الأثر الأكبر الذى أعطى الحضارة الغربية والمجتمع الأوربى الحديث خير مافيه : من المنهج العلمى التجريبى إلى مقررات علم الإجتماع والنفس والتربية . وإذا كان المؤرخون قد سجلوا صوراً قاسية لاضطهاد المسيحية لليهود وأن اليهود كانوا ينظرون إلى المسيحيين على أنهم يهود مرتدين فان اضطهاد المسيحية لليهود دفع اليهود إلى إقتحام المسيحية من الداخل ومحاولة تدميرها .

ومن ثم منع المسيحيون اليهود من أن يعيدوا عيد الفصح فى نفس اليوم الذى يقع فى عيد القيامه . وأخذوا الأحد بدلا من السبت وماقيل من أن اليهود يذبحون أطفال النصارى قربانا ، فإن كل ذلك كان عاملا فى قيام الجيتو وانفصال اليهود بعد سنة ١٥١٦ فى أحيائهم الخاصة ، وقد فرضت عليهم أحكام قاسية ، فلم يكن يسمح لليهودى أن يقتنى أرضا ولا أن يتعاطى بعض المهن ، ومن هنا كانت الثورة الفرنسية هى حركتهم التى حققوا بها الإنطلاق إلى المشاركة بعد اسقاط جميع تلك النظم

وقد كانت حركتهم فيما بعد قوية فقد عمدوا منذ اليوم الأول إلى السيطرة على الفكر الأوربى كله واحتكروا التمثيل والموسيقى والصحافة والمحاماه والطب والنشر حتى كادوا يسيطرون على ذلك كله سيطرة تامة فحالوا دون نشر مايتعارض مع مفاهيمهم، ثم نفذوا إلى كل دوائر المعارف والموسوعات بتفاصيل فكرهم ودعواهم ودحض الحقائق العامة ومن اللاسامية انطلقت اليهودية والصهيونية الحديثة باسم الإضطهاد الذى صوروه للعالم على أنه جرم وقع عليهم وأقاموا له أدلة ودعاوى .

(٨)

معارضة نمو الجنس غير الأبيض

فيما يتصل بفلسفة استعلاء الجنس الأبيض تجىء قضية معارضة نمو الأجناس الملونة وذلك للمحافظة على مستوى الرفاهية فى الغرب ومن خلال هذه المقايسة الخطيرة تنبعث دعوى الإنفجار السكانى . ويتصل هذا الإتجاه بمفاهيم « عالم الربا» وسيطرة أصحاب رؤوس الأموال على العالم كله ذلك أن معارضة نمو الجنس غير الأبيض إنما تطالق عدة أسس هامة . أولا : تزايد نسبة سكان البلاد الملونه وخاصة بلاد العالم الإسلامى مما يؤدى إلى التأثير فى قيادة الغرب ونفوذه وسيادته السياسية التى يفرضها على العالم منذ القرون الخمسة الماضية بتفوقه العلمى والفنى ، هذا التفوق الذى استطاع به أن يقيم احتكاره السياسى فى العالم إلى أبعد الأبعاد على الرغم من قلة سكانه .

ثانيا : تعرض سكان البلاد الغربية إلى التناقص بعد أن ظهرت بوادر الإنحطاط والأفول فى قوتها السياسية بعد الحرب العالمية الثانية حيث تبذل أوربا الغربية جهودا مضنية الآن فى سبيل زيادة عدد سكانها وخاصة فرنسا وانجلترا والسويد وألمانيا وإيطاليا .

غير أن تقدير الغرب أن زيادة عدد سكانه لن يمكنه من أن يحتفظ بمكانته السياسية وبقائه متربعاً على كرسى القيادة العالمية .

ثالثاً : نمو سكان الشرق والعالم الإسلامى نمواً مضطرداً من شأنه أن يزيد القوة العددية التى تواجه الغرب من ناحية والتي تستوعب أكبر قدر من الثروة التي تصل إلى الغرب .

ومن هنا انطلقت الدعوة التى ينفق فيها الغرب مبالغ طائلة فى البلاد النامية فى آسيا وأفريقيا لإيقاف هذا النمو وتحديده تحت إسم الوالدية أوضبط النسل أو تحديده ، ويكشف(الدكتور : خورشيد الباحث بجامعة كراتشى) عماأسماه (سوء نية الأوربيين والتخطيط الإقتصادى لادامة إحتلال الدول المتقدمة للشعوب النامية) وأن ذلك يجرى على ضوء تنازل خط نمو السكان فى أوربا وتزايد خط السكان فى آسيا وأفريقيا ، على نحو يخيف الغرب من قوة العالم الملون النامية التى تهدد بالخطر نفوذه وسيطرته السياسية ، ويؤكد الباحثون فى مقدمتهم الدكتور خورشيد أن ماكان يحول دون سيطرة عالم آسيا وأفريقيا حتى اليوم هو حرمانه من العلوم التكنولوجيا وامتلاكه أداتها الفنيـــة وهو مايتزايد اليوم فى الشرق .

«فلا إمكان إذن لبقاءشعوب الشرق محكومة مغلوبة على أمرها بعد تدربها على الآلات الميكانيكية وتضلعها فى العلوم الفنية بل سيكون من النتيجةاللازمة لهذه النهضة بسائق الفطرة أن تفقد سيادة الغرب على الشرق آخر أيام حياتهـا وأن تبرز القيادة العالمية فى أماكن فيها زيادة السكان ولها فى الوقت نفسهخبرة فنية وتكتيك وحرية ».

ومن هنا فإن كل ما يفعله الغرب اليوم للاحتفاظ بسيادته العالمية إنما هى محاولةللحد منزيادة السكان فى الشرق عن طريق تحديد النسلومنع الحمل ووضع العراقيل فى سبيل رواج المعلومات الفنية فى أقطاره .

وقد أشارت عشرات الوثائق إلى إرهاصات هذا الخطر، وتوجس زيادة السكان فى آسيا والعالم الإسلامى فى النصف الثانى من هذا القرن على نحو يفقد الغرب نفوذه وسيطرته السياسية، وقد أشارت إلى هذا تقارير رسمية عن الشئون الخارجية على نحو مما أورده فرانك نونتشين فى مجلة أمريكا الشهيرة: الشئون الخارجية حيث تقول:

« إذن لا إمكان الآن لشعب فى أوربا الشرقية أو الغربية أو الوسطى أن تتحدى العالم مرة أخرى وأن ألمانيا كشعوب أوربا الأخرى قد اجتازت المرحلة التى كان لها فيها أن تبسط نفوذها وتصير قوة عالية فى العالم.

ذلك أن التقدم الفنى والعلمى قد وصل أيضاً إلى البلاد التى يتزايد سكانها بسرعة فائقة، ويشير أرثر كورماك[1]. إلى هذه الظاهرة فيقول: أنه لما يعجب الناس فى البلاد المتقدمة إعجابا فطريا أن يقل عدد السكان فى البلاد غير المتقدمة وذلك أنهم يرون فى زيادتهم المطردة خطراً داهماً على مستواهم الرفيع للمعيشة وعلى سلامتهم السياسية «ويصل باحث آخر من المعلقين السياسين هو «ميك كارل» إلى مصدر الخوف فيقول: أن أهل الشرق سوف لايلبثون إلا قليلا حتى يطلعوا على حقيقة هذا الدجل ثم لا يغتفرونه لأهل الغرب لأنه استعمار من نوع جديد يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة ولاسيما الأمم السوداء إلى مزيد من الذل والخسف حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها ويقول أرنولد جرين: أن عدد السكان فى العالم قد بلغ ضعفه فى الخمسين سنة الماضية ولأجله قد تعرض التوازن فى القوة الاقتصادية والسياسة فى الدنيا لعبء شديد.

---

(١) نقلنا هذه النصوص عن بحث مستفيض للعلامة علال الفاسى فى كتابه «دائما مع الشعب».

(٩)

وقد أشار الفيلسوف المسلم محمد إقبال إلى هذا الخطر الذى يواجه عالم الإسلام منذ سنوات طوال وقارن بين محاولة الغرب المستميتة إلى زيادة نسله وسكانه بينما هو يدعو فى البـــلاد النامية والملونة إلى إنقاص السكان. وسجل ظاهرة تناقص عدد سكان أوربا وتدهوره الشديد نتيجة محاولتها تحديد النسل فيما قبل الحرب العالمية الثانية مما كان له أبعد الأثر فى نتائج الحرب العالمية حيث ظهر ضرر ممارسة هذه الدعوة من الوجهتين السياسية والاجتماعية، ومن ذلك أن فقدت فرنسا مكانتها العليـــة شيئاً فشيئا، وأعلن الماريشال بيتان عقب الحرب العالمية الثانية اعترافه بأنه من الأسباب الرئيسية والأساسية التى عملت على توهين قوة فرنسا وإزاحتها عن مكانتها العالمية: قلة عدد الأطفـال والسكان.

ومن ثم فلم تلبث أوربا أن عدلت عن هذه الخطة إلى خطة مختلفة تمـام الاختلاف وهى العمل على زيادة السكان بأقصى قدر ممكن، حتى إن البابا وهو رئيس الكنيسة الكاثوليكية العالمية أعلن أنه لا يوافق على مبدأ التخطيط العائلى وكذلك أعلنت الكنيسة البروتستانية ذلك أيضاً. وجاء فيما أثر عن البابا قوله: إن بتهوفن كان الولد الثامن من أولاد أبويه فلو أنه والديه حددا النسل أكان سيولد بتهوفن وفنه العظيم.

(١٠)

طرحت الفلسفات الغربية، وخاصة الفلسفات المستمدة من الأصـول اليهودية التلمودية نظرية مالتوس لتكون كأساس له طابع علمى فنى ونقطة انطلاق للدعوة إلى تنقيص الأجناس غير البيضاء، وذلك تمكيناً للسيطرة اليهودية الربوية عليها.

غير أن العالم الغربى لم يلبث أن استفاق بعد أن تنبه لمدى أخطار الدعوة التى فرضتها اليهودية التلمودية ، وقامت أبحاث علمية صحيحة تنقض ما ذهب إليه مالتوس .

يقول القس مالتوس أساساً : إن السكان يزيدون زيادة هندسية بينما المواد الغذائية تزيد زيادة حسابية ، ولذلك فإنه لا بد أن يجىء يوم يبلغ فيه عدد سكان الأرض عدداً لا تكفى مواردها لتغذيته . وقد احتضنت الثورة الفرنسية آراء مالتوس ، بحسبان أنها منطلق الفلسفة الماسونية ومن ثم تناقص مواليد فرنسا . غير أن مفهوم مالتوس لم يلبث أن انقلب رأساً على عقب بعد الثورة الصناعية التى وضعت مقاييس جديدة للنمو الصناعى أساسها أن زيادة عدد السكان هو العامل الأساسى فى زيادة الثروة .

فقد أثبت الإحصاء الدقيق أن الازدهار المادى كان مرافقاً للنمو الإنسانى فى الغرب . وإن زيادة الإنتاج القومى فى فرنسا وأمريكا والسويد وانجلترا إنما جاءت مع زيادة عدد السكان لا بالرغم منها .

«وإن ازدياد السكان فى أوربا هو الذى رفع الزيادة فى إنتاجها الاقتصادى» ومن أقوال عديد من الباحثين أمثال : برنال ، وإيرك رول وتشارلس جايير :

أثبتت : أن زيادة السكان نافعة اقتصادياً لأن الإنسان لا يولد ببطن وفم فقط ولكن بيدين ورجلين وذهن .

* * *

وقد تبين أن مالتوس إنما بنى نظريته على أسس قاصرة على عصره ، ومنها استمد تصميماته التى لم تكن تصلح لعصر آخر . فقد كتب رسالته فى أثناء حرب نابليون التى كانت سبباً فى كثير من عوامل الفقر والجوع .

وقد عد مالتوس من المتشائمين لأنه افترض أن زيادة السكان ستؤدى إلى الحروب والمجاعات والفقر وتدهور الآداب ودعا إلى تأخير سن الزواج[1] . وقد تبعه عدد من المفكرين التلموديين الذين أسموا أنفسهم مجددى الملتوسية : منهم درز ديل وروز وجه ومنهم هافلوك اليس وولز دمرى والدكتورة مارى ستوبس . وقد أثبتت النظرية بعد زمن قليل أنها غير صالحة للتطبيق العالمى ، وواجهت أعنف معارضة ونقد ، « ذلك أن مالتوس نظر إلى العالم نظرة جمود وحسبه كياناً لا يتغير ولا يتطور ، وفاته أن البشر يتطورون فى حياتهم العقلية وجميع مظاهرهم الاجتماعية ، بغذائهم ولباسهم وقوانينهم وتقاليدهم ومقدرتهم فى التغلب على المحيط وإخضاعه لراحتهم وسعادتهم .

هذا فضـــلا عما أعطى الإنسان من قدرة على تنمية وسائل العيش ، من حيوان ونبات ، والسيطرة على عوامل الطبيعة التى تجدد الموارد وتزيدها فى البر والبحر .

(١١)

إن القاء نظرة سريعة الى العالم الإسلامى يكشف عن أن موارده الغنية الثرة تستطيع أن تستوعب أكبر قدر ممكن من السكان ، وان أغلب هذه الثروات انما تنقل الى أوربا ويحرم منها أهلها . وفى نفس الوقت الذى تنقل هذه الثروات ، تهجر الى العالم الإسلامى مجموعات غريبة من السكان تحاول أن تسيطر على مقدرات هذه المناطق . ولا ريب أن نمو هذه المناطق واتساع مخططاتها الاقتصادية من شأنه أن يفرض مزيداً من النمو على أهلها طبقاً للقاعدة التى تربط زيادة الإنتاج بزيادة السكان .

---

(١) رسالة مالتوس (مبادىء السكان الصادرة) عام ١٧٩٨ :

هذا فضلا عن أن التحديات التى تواجه المسلمين والعرب اليوم تحتاج منهم الى حشد قوى لمقاومة الأخطار . وقد أثبت عديد من الباحثين المثقفين أمثال لوركينز وهانس وكولين كلارك وكول من أقطاب الاقتصاد فى الغرب ، أن الزيادة المضطردة فى السكان مما لاغنى عنه للمحافظة على التقدم والتوسع فى طلب المنتجات حتى لا ينجم قرن الكساد فى الاقتصاد المتقدم .

ويشير الباحثون الى أن زيادة عدد السكان فى العالم الثانى فى آسيا وأفريقيا انما يترتب عليه نتائج هامة . واذ لا مكان بعد ذلك لبقاء شعوب الشرق محكومة مغلوبة على أمرها ، بعد تدريبها على الآلات الميكانيكية وتضلعها فى العلوم الفنية، بل سيكون من النتيجة اللازمة لهذه النهضة بسائق الفطرة أن تفقد سيادة الغرب على الشرق آخر أيام حياتها وأن تبرز القيادة العالمية فى أماكن زيادة السكان ولها فى الوقت نفسه خبرة فنية وتكتيكية حربية .

يقول ميك كارل الباحث الاقتصادى :

« إن أهل الشرق سوف لا يلبثون إلا قليلا حتى يطلعوا على حقيقة ما يراد بهم ، ثم لا يغتفرونه لأهل الغرب لأنه استعمار من نوع جديد يهدف الى دفع الأمم غير المتقدمة ولاسيما الأمم السوداء الى مزيد من الذل والخسف حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها . وان القوة الغالبة لاتكون فى المستقبل الا للبـــلاد التى تتمتع بزيادة السكان وتتحلى فى نفس الوقت بالعلوم الفنية .

* * *

ويشير العلامة علال الفاسى فى بحث مستفيض عن الوالدية : الى أهمية أساسية هى « أن أكبر الخطر أن تدرس هـذه الحركة منفصلة عن سياقها السياسى والتاريخى » . « فإذا أضفنا الى هذا المخطط الصهيونية لإجلاء العرب عن الشرق الأوسط وتهجير أكبر عدد ممكن من اليهود اليه . وخلق حركات

داخل كل بلد عربى وإسلامى من الأقليات التى يصل بها التعب أحياناً إلى المطالبة بالانفصال عن الوطن الوالد عرفنا أن التنقيص فى عدد المواليد لا يخدم الامصلحة الاستعمار والصهيونية .

وقد دعت الشريعة الإسلامية إلى إعداد القوى التى تحافظ على الكيان ومواجهة التحديات الخارجية وتقديم عدد من أبناء المسلمين للعمل على صفوف خط النار والجهاد وحماية الثغور بما يفرض الخوف والحذر على خصومهم من غزوهم .

(١٢)

الإسلام ووحدة الجنس البشرى

« جاء الإسلام الحنيف يعلن الأخوة الإنسانية ويبشر بالدعوة إلى العالمية ويبطل كل عصبية فقد قرر وحدة الجنس والنسب للبشر جميعاً «فالناس لآدم ولا فضل لعربى على عجمى ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى» وحكمة التقسيم إلى شعوب وقبائل إنما هى التعارف لا التخالف والتعاون لا التخاذل والتفاضل بالتقوى والأعمال الصالحة التى تعود بالخير على المجموع والأفراد والله رب الجميع يرقب هذه الأخوة ويرعاها ويطالب عباده جميعاً بتقريرها ورعايتها والشعور بحقوقها والسير فى حدودها . «يعلن القرآن الكريم هذه المعانى جميعاً فى بيان ووضوح فيقول : «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا»[1] ويقول : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عندالله

---

(١) فاتحة سورة النساء .

أتقاكم إن الله عليم خبير[١] ، ويقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد : الناس لآدم وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ، ويقول : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبيه ، وبهذا التقرير قضى الإسلام تماماً على التعصب للأجناس أو الألوان فى الوقت الذى لا تزال فيه الأمم المتحضرة من أوربا وأمريكا تقيم كل وزن لذلك، وتخصص أماكن يغشاها البيض ويحرم منها السود حتى فى معابد الله ، وتضع القوائم الطويلة للتفريق بين الأجناس الآرية والسامية وتدعى كل أمة أن جنسها فوق الجميع[٢] .

(١٣)

لقد كانت العنصرية من أبرز الركائز التى اتخذها الفكر البشرى أداة لمعارضة الفكر الإنسانى وهى « عملة قديمة عرفتها الحضارة الرومانية والفكر اليونانى وكانت مصدراً أساسياً من مصادر انهيارهما ثم حمات الحضارة الغربية نفس النظرية : نظرية تفوق الأجناس على نفس المفاهيم والأسس التى هاجمها به الإسلام وإن كانت قد نمتها بصورة أشد قوة وعنفاً ، أما الإسلام فقد قرر وحدة الجنس البشرى ، وأقام الوحدة على أساس الفكر لا على أساس الدم ولقد اعتبر الاختلافات فى الصفات الجسمية من شكل الجمجمة أو الوجه أو الأيدى أو غيرها اختلافات فرعية كما اعتبر اختلافات الأمم والقبائل والأوطان اختلافات يسيرة لاتحول دون الحقيقية الأساسية وهو أن الإنسان البشرى فى كل زمان ومكان وعصر وبيئة هو الإنسان بتركيبه الكامل: روحاً ونفساً وعقلا وجسماً وإن محاولة أخذ الإنسان من جانب واحد من هذه

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٢) صاحب الشهاب (ربيع الأول ١٣٦٢) .

الجوانب دون النظرية الكلية لا يحقق صدق الحكم عليه وقد قرر الإسلام وحدة الجنس البشرى أساساً للتعامل حتى لا يستعلى مذهب من مذاهب الألوان أو الأنساب والأديان ، وفى نطاق الإسلام أقام الإسلام وحدة العقيدة والفكر بديلا عن نظام القبيلة وربط المجتمع الإسلامى بين الفارسى والرومى والحبشى والعربى جميعاً « أمة واحدة من دون الناس » ، وكشف رسول الإسلام عن حقيقة أساسية فى هذا النطاق هى : « من تكلم العربية فهو عربى» وبذلك أصبحت العربية هى مصدر وحدة الفكر وقد اتجه الفكر الإسلامى هذا الاتجاه وعمقه فأقر الفقه الإسلامى كفاءة الأعجمى للعربى فتصاهر المسلمون فى الأقطار المفتوحة واختلطوا أو امتزجوا امتزاجاً كلياً ولا كذلك فعل الرومان أو المستعمرون فى العصر الحديث .

ومن مفهوم القرآن فى نفى العنصرية نفياً صريحاً واعترافه بوحدة الإنسانية وبأنه لا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل . وأنه لا تفرقة بين الناس بسبب أجناسهم أو ألوانهم أو أنسابهم إتجه التاريخ الإسلامى وجهة واضحة عمقت هذا المفهوم وأكدته ، فتقاربت الأجناس الإسلامية وتداخلت بالزواج المختلط أو التوليد حيث أقبل الخلفاء والعرب على التزوج بغير العربيات من فارسيات وروميات وصقليات وصينيات وهنديات ، ونشأ عن هذا الاختلاط جيل جديد من المولودين يحوى عن طريق الوراثة خصائص الأجناس المختلطة التى ولدته من جثمانية وعقلية وأصبحت الدولة الإسلامية وكأنها وطن لأمة واحدة، لا لشعوب مختلفة ، تدين بدين واحد وتتكلم لغة واحدة .

وقد كان ، هذا الاتحاد هو مصدر تلك النهضة العلمية التى امتدت من قيام الدولة العباسية إلى نهاية القرن الرابع الهجرى ،وهى نهضة عامة شملت كل نواحى التفكير الإنسانى من فقه وحديث ولغة وأدب وفلسفة وطب ورياضيات وتاريخ وجغرافيا وهى إحدى النهضات العلمية الكبرى المعدودة فى تاريخ

الحضارة على الإطلاق ، وإنما صارت الحضارة والعلوم الإسلامية إلى هذا المستوى الرفيع بتلك الوحدة التى شملت الشعوب الإسلامية وإخلاص العناصر غير العربية للدين الإسلامى واللغة العربية . ولا سيما بالنسبة للعقائد التى كانوا ينتحلونها من قبل من حيائية ومجوسية وهندية وغير ذلك ، كما بهرتهم الثانية (أى اللغة) بغزارة مادتها وروعة أدبها وأنها قبل كل شيء : لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقد جرهم فى النهاية هذا الإعجاب بالدين الاسلامى واللغة العربية إلى الاعجاب بالعرب أنفسهم فهم الذين حملوا إليهم هذين المصدرين لأعظم مادة تغذى قلوبهم وأذهانهم فتغيرت الحال عما كانت عليه من قبل فلم يعد الأمر أمر سياسة عنصرية ضيقة متحزبة للعرب على غير العرب ولا كراهية من الموالى لنفوذ العرب السياسى بل لقد جر هذا الاعجاب كثيراً من الموالى والأعاجم إلى انتحال النسب العربى تشرفاً به وتعظيماً ، بل أن بعض الشعوب غير العربية أخذت تمد أصولها إلى العرب كما قبل فى البربر اذ نسبوهم إلى قيس عيلان »[1] .

(١٤)

ومن الحق أن نظرية العنصرية قد استخدمت فى العالم الإسلامى فى مرحلة الاستعمار استعمالا خطيراً :

(أولا) فقد حيل بها بين العرب والمسلمين باسم الأجناس فهى التى أشاعت الاضطراب فى العلاقة الجذرية القائمة بين العروبة والإسلام ، وثانياً : بين العرب أنفسهم بالدعوة إلى الإقليمية والوطنية . وإثارة الفروق المتصلة بالمواقع الجغرافية وقد طرحت نظرية العنصرية فى العالم الإسلامى من أجل : فكرة الرابطة وحل العروة وكان لأساليب التعلم التى أنشأتها الإرساليات والأنظمة

---

(١) راجع المرحوم عبد الحميد العبادى فى بحثه القيم عن الاسلام والمشكلة العنصرية ص ٨٤ - ٨٨ .

السياسية والفكرية الوافدة أثرها فى اعلاء الإقليمية والقومية الضيقة ، فقد وضعت الوطنية المجردة والإقليمية الضعيفة فى مواجهة الوحدة وكانت عاملا هاماً فى تمزيق تلك الحزام الرابط . ومن ثم غلبت مفاهيم الفينيقية فى لبنان والأشورية والكلدانية فى العراق والفرعونية فى مصر والبربرية فى المغرب والزنجية فى أفريقيا أما البدائل الجديدة من الوطنية والقومية فإنها قد عجزت عن أن تحقق شيئاً لأنها قامت على مفهوم مفرغ من القيم الروحية والنفسية والأخلاقية التى هى لحمة الرابطة الفكرية الكبرى وسداها ، كما قامت مجردة من العقيدة القرآنية معتمدة على المادة المحسوسة لاغير وبينما «العقيدة الإسلامية توحى الاعتقاد بالأمل والثقة فى الغد ، » بينما العقيدة الوطنية المجردة لا تنظر إلا إلى المحسوس فقط ، ولا تجد أمامها شيئاً توحى به من قدرة على مصارعة الأوربى لأن المحسوس مخالف لذلك »[1] وفارق بين عطاء المحسوس وعطاء الإيمان ، وكذلك الأمر فى القومية بعد الوطنية ذلك أن الفكرة الوطنية أو القومية المجردة التى لا ترتبط فى حلقات متصلة مع وحدة الفكر ، هذه الفكرة :

(أولا) لا تحول دون الاندماج أو الذوبان فى الغرب ، أما وحدة الفكر فإنها تحول .

(ثانياً) لا تحول دون انحلال الخلق التى هى من دعائم الأمم أما وحدة الفكر فإنها تحول .

(ثالثاً) لا تبعث الآمال فى غد أحسن وإنما الوحدة الفكرية هى التى تبعث الأمل .

(رابعاً) لا تزرع فى صدور أهلها عزة النفس والاعتماد على الله والاستعلاء بالذاتية والكرامة ولكن وحدة الفكر هى التى تزرع .

---

(١) شكيب ارسلان

(خامسا) العقيدة الوطنية المتحررة تفك مابين المسلمين من عرى الارتباط مما يفقدهم قوة لاعوض لهم عنها .

(سادسا) لاتروع الاستعمار والنفوذ الأجنبي وحده غير الوحدة القائمة على الفكر وهى مايخشاها ويعمل جهده للحيلولة دون قيامها .

(١٥)

يقول أرنولد تويلبي : « إن دعاة التعصب العنصرى فى تزايد وإذا قدر لحركتهم هذه أن تطغى فان ذلك سيؤدى إلى وقوع كارثة عامة » .

ثم يعود فيقول : « المعقول أن يكون روح الإسلام هى تلك القوة المدخرة التى قد تقرر مصير تلك المشكلة لصالح التسامح والسلام » ومن هنا ينكشف بوضوح أصالة مفهوم الإسلام فى مواجهة العنصرية ومعارضيها يقول تويلبي : « إن انطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين يعتبر ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية فى الإسلام .

« وفى العالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضيلة الإسلامية ومع أن التاريخ يظهر عموما أن الشعور بالعنصرية لم يكن قاعدة عامة بل حالة شاذة فى طبيعة العلاقات المتبادلة بين الأجناس البشرية المختلفة ، فإن من سيئات الحالة الحاضرة أن يكون هذا الشعور بارزاً وبارزاً بشدة لدى الشعوب القوية التى استطاعت أن تقتطع لنفسها ـ ولو مؤقتا على الأقل ـ حق الأسد من ميراث الأرض خلال التنافس الذى قامت به الدول الغربية فى القرون الأربعة الأخيرة » ا.هـ

* * *

ولاريب أن النفوذ الأجنبى قد كان له أثر كبير فى تمزيق رابطة الأخوة

الإسلامية التى كانت قائمة قبيل جائحة الاحتلال والإستعمار الحديث وأبرز الأخطار قد ركزت على الدولة العثمانية بالذات باعتبارها الوحدة الكبرى المسلمين ومن خلالها أثيرت الدعوة العنصرية على نحو غاية فى العنف والحدة فعن طريق المستشرقين ودعاة ليسوا من الأتراك بدأت الدعوة إلى الطورانية لتضرب فى كل سبيل ، التاريخ والوحدة والإسلام والعرب وتثير الحفائظ وتقلب الأرض وترد الأتراك المسلمين منـذ مئات السنين إلى طوران وإلى تاريخ قديم عفى عليه الزمن . وتمزق الوحدة القائمة تحت ظل الخلافة والدولة العثمانية بين العرب والترك . ثم ظهرت دعوات إعلاء العنصرية فى الهند وفارس وأندونيسيا وكل المناطق الاسلامية بالدعوة إلى العودة التاريخيـــة إلى الإسلام ، وقد جاء ذلك بأسماء مختلفة منها الوطنية والقومية الضيقة ، فنشأت عوامل الصراع والتفرقة وجرت محاولات التفكك التى تحول دون الالتقـاء على أسلوب واحد من العمل بين جماعة موحدة تربطها وحدة فكر أصيل وعميق الجذور .

غير أن فشل العنصرية فى أوربا نفسها قد فتح الأبصار على حقائق كثيرة أهمها :

١ — إستحالة عودة المسلمين إلى الجذور القديمة قبل الإسلام تخطياً الواقع القريب الذى شكل الذاتية والمزاج على نحو من العسير نزعه أو تغييره .

٢ — لما كانت الأقليمية والعنصرية القومية ترتبط باللاديلية أو تلغى أثر الدين فى الفكر والمجتمع فان العالم الإسلامى يرفض هذه القاعدة أساساً .

حيث يرى أن الإسلام أساس مكين فى الثقافة والتاريخ واللغة والوجود الاجتماعى نفسه .

٣ — كان لظهور الصراع فى الغرب بين الأممية والعنصرية ، وبين فكرة

الشعب فى الديمقراطية وفكرة العرق فى العنصرية وفكرة الطبقة الماركسية أثر بعيد فى الفكر الاسلامى الحديث فقد عاد الفكر الغربى إلى الدعوة إلى الوحدة عن طريق الفكر، كالدعوة التى يقودها الفكر الليبرالى إلى عالمية الثقافة أو الفكر الماركسى إلى وحدة الطبقة .

كل هذا يكشف عن أصالة الفكر الإسلامى فى إيمانه بالوحدة البشرية أصلا قائمة على أساس أن الناس جميعاً من آدم ولافضل لأبيض على أسود إلا بالعمل .

لحق : ضـــوء من الإسلام

يقول ابن خلكان : «إن البشرة السوداء لا تقلل من شرف النفس الطاهرة ولا تنقص من علم العالم ولا من سمو المفكر» .

ولا ريب أن الإسلام يؤكد أهمية الإنسان وقيمة الإنسان بصرف النظر عن لونه وديانته كما يبنى العدالة الاجتماعية على أساس :

- الحرية الكاملة فى العبادة .
- المساواة التامة بين جميع الناس .
- المسئولية الدائمة والمتبادلة للمجتمع .

ولقد أقام الإسلام فكرة الفرد فى إطار المجتمع . ولم يذهب مذهب من أعطوا الفرد الاهتمام بلا حدود ، كما أنه لم يذهب مذهب من أفنوا صورة الفرد فى المجتمع «ولما كان أفراد المجتمع هم نتاجه فى نفس الوقت وكلهم تجمعهم دعوة الله فإن وحدة الهدف أمر طبيعى حيث يتم الترابط بين المؤمنين ويتصرفون فى أعمالهم تلقائياً ، تصرف رجل واحد» . وقد انفرد الإسلام بأن رعى الفرد وكرمه فى إطار الجماعة فيما ركز به على ضمير الفرد المسلم وحمله منفرداً مسئولية ارتقاء سلم الكمال .

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) — (كل امرىء بما كسب رهين) ، ولا ريب أن «البناء الإسلامى مصبوب فى لبنات قوية فى تكوينها الداخلى مترابطة فى تجمعها بلا اختلاف ، كما هو شأن الجدار المرصوص» .

ومسئولية الإنسان الفردية هى أساس الإيمان بالجزاء والبعث والآخرة ،

فقد اعتبر الاسلام الانسان صاحب إرادة كاملة ، وعده مسئولا عن كل فعل من أفعاله وعن كل سكنة من سكناته .

[ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] .

وبذلك أقر قانون المسئولية الفردية : وأنكر الاسلام مفهوم وحدة الوجود ومفهوم الخطيئة كلاهما لأنه يؤدى إلى نزع هذه المسئولية ورأى أن لا يفدى الانسان سوى عمله وليس التضحية من نبي أو رسول وأن خطأ أي إنسان مرتبط به وحده .

(٢)

ومن ناحية أخرى فإن الاسلام فى نظامه المتكامل : ديناً ودولة ، وفى تطبيقه لهذا النظام لم يعرف (الدولة الثيوقراطية) التى عرفتها أوربا فى القرون الوسطى عندما سيطرت طبقة من رجال الدين على السياسة العليا .

وهذا مما لا يقره الاسلام أو يعترف به فضلا عن أن الاسلام لا يعترف بنظام الكهانة ولا يقر وجود طبقة ممتازة تدعى رجال الدين ولا يعترف بأن هناك طبقة أو شخصاً ما ، يستطيع أن يتميز بنوع من القداسة دون الناس جميعاً . والنظام الاسلامى الاجتماعى نظام خاص يختلف من وجوه عدة عن الأنظمة التى عرفها الغرب ولذلك فالقول بأن الدولة الاسلامية دولة «ثيوقراطية» قول باطل ، ذلك أن النظام الاسلامى هو نظام شامل للأمة جميعاً يستمد مصادره الأولى من القرآن الكريم ، ويفسح الطريق إلى الاجتهاد فى الفروع ، وفيما لم يرد فيه نص ويقوم على إطارات واسعة مرنة ، قادرة على استيعاب قضايا العصور وأمور البيئات المختلفة ومواجهتها دون أن يكون الاسلام فى ذلك مطية لأهواء المجتمعات .

والتشريع الاسلامى لا يقر مذهباً يفرض مفهوماً مادياً خالصاً ، أو روحياً خالصاً ، على المجتمعات ، أو مفهوماً يقدم الاقتصاد على الأخلاق أو العقائد ، أو يفترض نسبية الأخلاق أو الهبوط بالانسان إلى تجارب الحيوان أو التسليم بالإباحية المطلقة أو التطور المطلق ، خارجاً فى مفهومه عن ضوابط المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى . كما أنه يقيم الحركة والتطور من داخل دائرة الثبات .

الباب الرابع

الفلسفه الاجتماعيه

الفصل الأول : نظرية النفس والجنس (النظرية الجنسية : فرويد)
(٢) مصادر فرويد
(٣) نظرية الكظم فى الإسلام

الفصل الثانى : (١) نظرية النسبية الأخلاقية
(٢) الأخلاق فى ضوء الإسلام

الفصل الثالث : (١) الفلسفة الاجتماعية
(٢) فلسفة المرأة فى الفكر الغربى

الفصل الرابع : فلسفة الأدب المكشوف .

الفصل الخامس : الفلسفة الوجودية .

الفصل السادس : الفلسفة الهيلينية .

الفصل السابع : فلسفة وحدة الحضارة (أو الحضارة الواحدة) .

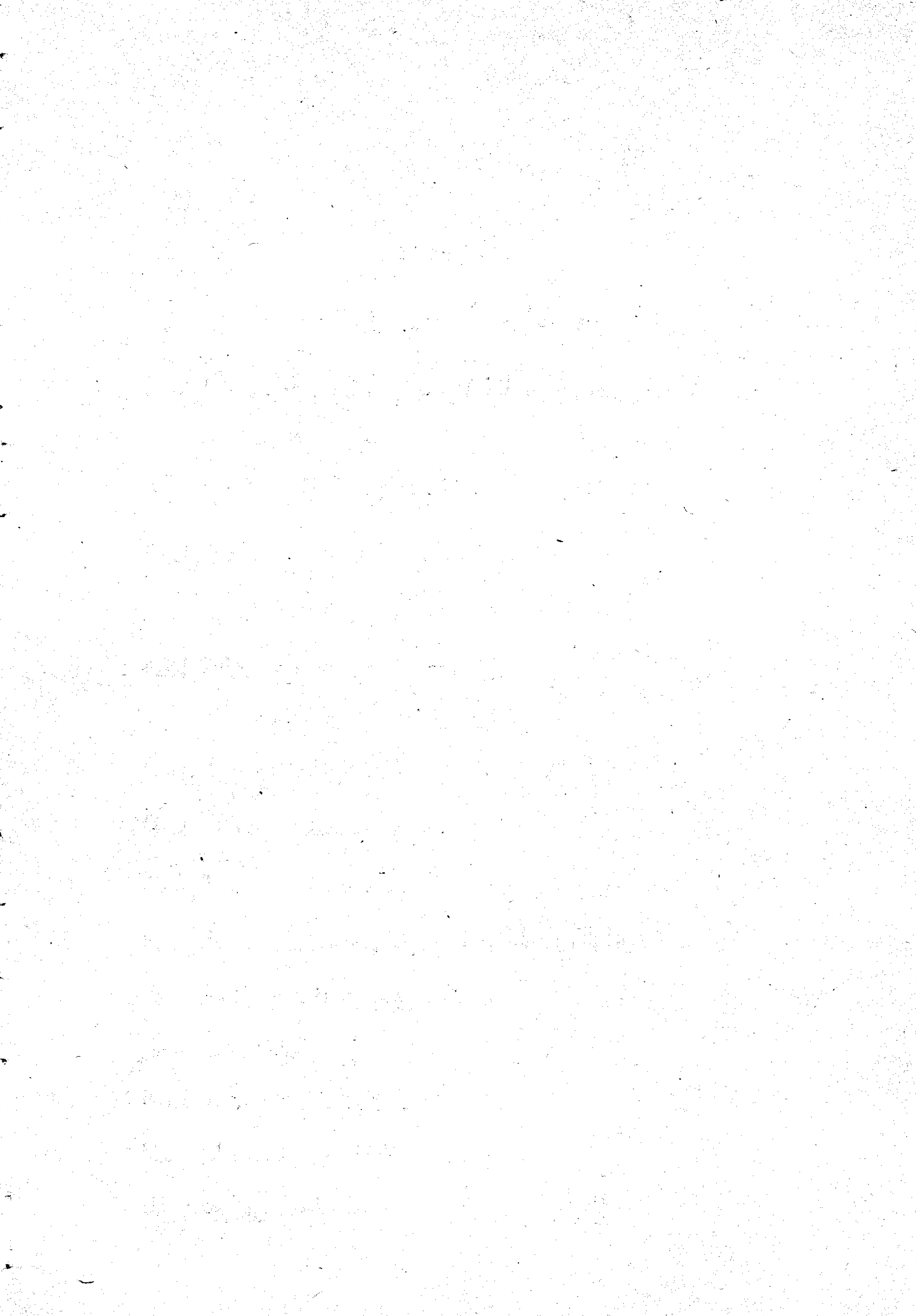
الفصل الثامن : الفلسفة الروحية الحديثة .

الفصل التاسع : الثيوصوفية .

الفصل العاشر : الفلسفة البهائية .

الفصل الحادى عشر : فلسفة التربية .

لحق : ضوء من الإسلام .



الفصل الأول

نظرية النفس والجنس

النظرية الجنسية (فرويد)

(أولا) مضامين النظرية :

كانت نظريات علم النفس الحديث القائمة على أساس النظرية المادية بمثابة رد فعل على المفاهيم التى أقامها الفكر الأوربى المسيحى القائمـــة على كبح الشهوات والرهبانية وإعتزال الحياة وكبت النوازع الفطرية . بيد أن نظرية فرويد جاوزت هذا الحد حيث وصلت إلى أقصى حدود التطرف بإتخاذ « الجنس » وحده مصدراً لكل التصرفات والنوازع ، وهو تحول خطير من طرف الجمود الذى لا تقبله النفس الإنسانية ولا تقره الفطرة إلى طرف الإباحية الذى ترفضه النفس الإنسانية ويجافى الفطرة وهو موقف لم يقر فرويد عليه زميلاه أدلر ويونج اللذين عارضا إقراره كمصدر وحيد والتمسا إلى جواره وسائل أخرى .

ولم تكن المسيحية فى مصادرها الأساسية عاملا من عوامل نشر التزمت أو الرهبانية أو دعوة إلى الزهادة جملة ، ولكنها كانت مكملة لدين بنى إسرائيل مصححة لإنحرافهم إلى المادية ، غير أن مفاهيمها لم تلبث أن أدخل إليها بعض النظريات الوثنية والفلسفات المعددة ، فدفعت طبيعتها الربانية السمحة ، إلى الغلو فى إنكار الدنيا ومجافاتها على النحو الذى عارض الفطرة والطبيعة الإنسانية فى محاولة قاسية للضغط على الجسد البشرى وتحميله ما لا يطيق من الانصراف عن طيبات الحياة مما أحل له ، إلى نوع من الزهادة والحرمان والتعذيب

ومجافاة شهـواته الطبيعية إلى الطعام والزواج ، والافضاء عن مطالب الغرائز واعتبارها نوع من الدنس الذى يحرم تلبيته وبالغت فى ذلك حتى عدت مثل هذه المجافاة دليل سمو وقربى إلى الله ، وأنها كلما إزدادت قوة كانت أقرب إلى منازل القديسين والمقربين وكان من الطبيعى بعد أن عبر الفكر الإسلامى إلى أوربا بمفاهيمه الربانية الأصيلة ومقرراته الجارية مع الفطرة ، الدافعة إلى مقارفة الحياة والإستجابة لطبيعة الإنسان وغرائزه فى إطار من الحكمة ، وفى حدود ضوابط تنظم تلك الإستجابة وتجعلها فى وضع كريم بعيداً عن الاباحية والزنا كان طبيعياً أن يهتز الفكر الغربى الذى قام على تلك المفاهيم وأن يتحرك لتحرير نفسه من قيود قاسية تأباها الطبيعية البشرية ، قد فرضتها قوى عابثة وأسرفت فى دفع الناس إليها ، على نحو يفسد النفس الانسانية ويزرى بها .

ومن هنا بدأت مفاهيم الاسلام فى النفس والأخلاق والاجتماع تنفذ إلى الفكر الأوربى وتحطم قيود الجمود وتخلق صراعاً ضخماً بين مفاهيم الفطرة ومفاهيم القسر والاعنات .

غير أن إستعلاء النظرية المادية من بعد ومحاولتها السيطرة على كل القيم والمفاهيم فى مختلف المجالات قد مضت تحت تأثير الغايات التى تجرى إليها إلى تفريغ القيم من مضامينها وإتخاذها وجهاً واحداً ، وإنكار الوجه الآخر المرتبط به فالتطور هو تطور مطلق لا يقر وجود قوى الثبات .

والحياة مادة لا تقر وجود عالم الغيب والفكر حسي يقف عند حدود ما يرى ويسمع ولا يدخل فى حسابه الروح أو العاطفة أو البصيرة .

والعقل هو مصدر المعرفة دون أى مصدر آخر من وحى أو غيره والانسان سيد مطلق للكون لا يخضع لأى مقررات .

وليس هناك قيود أو ضوابط أو حدود يقف عنها السلوك .

والأخلاق قيم متغيرة ترتبط بالمجتمعات والبيئات وهكذا فقد جرى الفكر الغربى شوطاً بعيداً فى الخروج من القيود وتحطيم الضوابط ، وإمتهان القيم التى عرفتها البشرية منذ بعيد مستمدة إياها من الأديان والوحى والتوحيد والايمان ثم التمس لنفسه طريقاً آخر أخذ به ينبش عن حفريات الوثنيات القديمة وفى مقدمتها الهلينية والغنوصية ويجدد الأساطير والخرافات والأوهام والسحر وأسرار الاعداد وماعرفته المجوسية والفرعونية والبوذية من أفكار ومفاهيم ليبعثها من جديد فى قالب علمى ويضعها فى إطار عقلى ، متخــــذاً من كل قيم الأديان والتوحيد أساساً معارضاً ، وطريقاً مخالفاً ومنهجاً عكسياً .

ومن هنا جاءت نظرية فرويد فى إعلاء الجنس وإعتباره مصدراً أساسياً وواحداً لكل نوازع الانسان وتصرفاته متسقاً مع هذا التحدى الخطير الذى واجه به الفكر الغربى فى مرحلته الأخيرة المسيحية وللدين عامة نتيجة لمفاهيم دخيلة لم تكن من المسيحية المنزلة أصلا . وإنما كانت مجموعة من الزيوف أضافتها الفلسفات والمذاهب خلال الأجيال الطويلة .

(٢)

تقوم نظرية فرويد على أسس خمسة :

(أولا) أن الحياة النفسية للانسان ليست حيوانية فحسب ، ولكنها تنبع كلها من الجنس المسيطر على كل أفعال الانسان وأن مرد السلوك الانسانى إلى الغريزة الجنسية .

(ثانياً) إن غرائز الانسان هى التى تحكمه وتسيطر على نشاطه وأن الجانب المسمى بالروح لا وجود له على الاطلاق .

(ثالثاً) الدين والأخلاق ليسا قيما أصيلة فى الحياة البشرية .

(رابعاً) الكبت الجنسى يصيب النفس بالعقد والاضطرابات ، وأن المرض العصبي ينشأ من الأمور الجنسية المكبوتة .

(خامساً) القيم العليا فى نظر فرويد كلها خرافة وكذلك دعوات الرسل والأنبياء والمصلحين .

ولا ريب أن هذه الأسس الخمسة لنظرية فريد إنما تمثل معارضة كاملة للفطرة الانسانية .

(٣)

وقد اختلف مع فرويد زملائه الذين وضعوا معه نظرية التحليل النفسى (أدلر ويونج) فى نقطة رد النوازع كلها إلى الجنس وانفصلوا عنه .

وتتلخص نظرية أدلر فى النقاط الآتية :

أن الدافع هو الرغبة الملحة فى التفوق .

أن الغريزة السائدة فى الانسان هى الرغبة فى التفوق والسيادة وليس الحب إلا وسيلة لتحقيق هذه السيادة ، وهناك وسائل أخرى تتحقق بها هذه السيادة أيضاً لا علاقة لها بالحب الجنسى .

وإن لكل إنسان قصداً فى الحياة وأن لكل إنسان تقريباً نقصاً جسمياً أو اجتماعياً هو الذى يدفعه إلى أن يعتاض عنه بكفاية أخرى إذا لم يستطع تصحيحه وأن العواطف لا تسوق الإنسان وإنما الإنسان هو الذى يخترع العواطف .

وعند أدلر أن الشعور بالنقص أهم فى الأمراض العصبية من الأمور الجنسية التى بالغ فرويد فى خطورتها . فالشعور بالنقص هو مصدر الأمراض العصبية .

ويقول أدلر : أن حافز توكيد الذات وليس الدافع الجنسى هو القوة السائدة الإيجابية فى الحياة . فهو يتعرض للتثبيط من قبل المحيط ، ومن قبل حساسية الفرد الخاصة ، وهكذا يكون هذا الحافز منبع كل إنتاج من جهة كما يكون مصدر السلوك الخاطىء وعدم التلاؤم من جهة أخرى[١] .

(٤)

أما يونج فانه ينكر أن تكون الليبد (الطاقة) جنسياً بكليته ، فهو يتبدى مرة فى شكل رغبة جنسية وأخرى فى شكل ميل الى التفوق، وعنده أن فرويد ميز شكلا واحداً وميز أدلر شكلا آخر ، وأن الليبد يجد متنفسه الأول عند الطفل فى أعمال التغذية ، إن مصدر سرور الطفل فى الحصول على الغذاء هو الليبد، ولكن يجب ألا يوصف بأنه «جنسى» أبداً على اعتبار أن الدافع الجنسى لم يميز نفسه بعد عن الميل الابتدائى للحياة . يقول يونج : كان فرويد يرجع سبب وجود العقل الباطن إلى كبت محتويات العقل الواعى غير المقبولة ، وهو بذلك يجعل الباطن مجرد مستقر للذكريات المكبوتة والجنسية وعند فرويد أن مسألة الجنس هى صانعة المتاعب .

ويرى يونج أنه لا توجد قاعدة واحدة تصلح للتطبيق فى جميع الحالات النفسية .

وأن لكل نفس بشرية قاعدتها التى يصلح لمعالجتها ولا يلتق اثنان فى حالة واحدة وان ظهر للنظرة الاولى أن الأعراض بينهما متشابهة والأقوال متماثلة وجمله رأى يونج : أن الجنس ليس إلا دافعاً واحداً من دوافع عديدة

• • •

(١) راجع أبحاث فاخر عاقل (العربى) .

وهكذا اختلف أدلر ويونج مع فرويد فى نظريته فى الجنس : ورفضا رأيه فى الغريزة الجنسية فى الطفولة وعقدة أوديب . فقد نبذ أدلر أهمية الغريزة الجنسية النبذ كله حيث أرجع تكوين الشخصية ونشأة الأمراض العقلية إلى مجرد الرغبة فى القوة ودافع الإنسان إلى التعويض عن نقص فى كيانه .

(٥)

وهناك تحفظات أخرى كثيرة على نظرية فرويد ومفهومه للجنس أوردها الكثيرون من العلماء . والبعض يرى أن نقطة الضعف الأساسية فى فرويدكعالم هى أنه أخذ من دراسة نفسه وطفولاته قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة ، وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه ، وعن حياته مايثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه كيهودى فى النمسا المتعصبة ضد اليهود ـ قاعدة كل تصميماته[1] ويرى البعض بأن تحلقه ليس خلق العلماء ، أنه أشبه بمتنبىء منه بعالم .

وهو من غير شك مخترع للفرضيات أكثر منه مجربا لها (وقد وجهت هذه الشبهة إلى ماركس أيضاً) وقد أكدت الدراسات العلميـــة أن الدافع الجنسى يأتى فى مرتبه أدنى من كثير من الدوافع الأخرى : كالدافع إلى الهواء والشراب والطعام .

ثم تبين أن الدافع الجنسى يخضع للتربية بمعنى أننا نستطيع تربية الإنسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسى ويتحكم فيه، وبذلك تكون « العفة » أمراً ليس ممكناً فحسب بل ضروريا . وقد نظمت مسائل تصريف الشهوة

---

(١) ، من بحث لعبد العظيم أنيس

وضوابطها بحيث تستطيع كثير من الوسائل الروحية أو الرياضية أو الشعر أو الموسيقى تنظيمها .

(٦)

راجع العلماء رأى فرويد فى أن القول بأن ضرب الطفل أو إرهاقه مما يؤدى إلى كراهية الدرس أو كراهية الأهل ورددوا هذا الرأى ، وأكدوا بالبحث الميدانى أن ماقاله فرويد من أن معارضة رغبات الطفل فى صغره ومحاولة الاهل فى أن يـ وضوه على النظام وأصول السلوك المتعارف عليه يؤثر فى تصرفاته إذا ما كبر . وخرج العلماء بعد دراسات طويلة بمعارضة هذه الآراء وبعدها عن الواقع ، وقد أجرى الدكتور اسكندر توماس عدداً من البحوث بمعرفة فريق من الاطباء النفسيين انتهى فيها إلى « أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة » .

ويقول العلماء فى تقريرهم أنهم درسوا أحوال (١٥٨ طفلا) فتبين أن الأولاد نشأوا أصحاء مستقيمين بالرغم من القيود العكسية التى فرضت عليهم ، ودل ذلك على أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل وأن مايوصف بالقهر عند فرويد لم يكن له أى أثر فى حياتهم ، وقد أقر أحد العلماء الامريكيين بعد دراسات طويلة ضرورة استخدام الضرب كوسيلة لتقويم الطفل .

(٧)

إن دعوى فرويد الاساسية هى أن العصاب (المرض العصبى) ينشأ عن أمور جنسية طفولية مكبوته قد رد عليها بعض العلماء بأن الامور الجنسية الطفولية المكبوته ليست وقفا على الذين أصيبوا بعصاب فى وقت ما فى حياتهم ولكنها موجودة عند كل إنسان وتشكل عاملا هاما فى حياته وقد تبين من الدراسات العلمية أن « الكبت » ليس هو بالصورة العنيفة الذى يصوره بها

فرويد . وأن الاديان والاخلاق دعتا إلى كبت الغرائز وضبطها وتوجيهها كما دعتا إلى معارضة كل النزوات والشهوات والمحرمات . .

وأن فرويد إنما يقصد باثارته تلك المشاعر المتفجرة الواهمة حول الكبت إلى معارضة تعاليم الدين والاخلاق التى أقرت منذ القديم سلامة كظم الشعور ومعارضة الشرور ولم تؤيد أبحاث الاطباء والعلماء ماذهب إليه فرويد من امتناع الإنسان عن إشباع الشهوة الجنسية أيصيبه بالهستيريا . أو أنه إذا صد عن المرأة فإنه يتحول إلى الأم كما جاء فى أسطورة أوديب أو إلى حب النفس على نحو ماجاء فى أسطورة (نارسيس) .

وقد ثبت على التاريخ أن كثيرين لم يحققوا المطلب الجنسى ومع ذلك فانهم لم يصابوا بالعصاب أو الهستريا .

(٨)

من الاعمدة التى قامت عليها نظرية فرويد « مسألة الكبت » .

وقد قال العلماء أن « الكبت » أمر عادى عند كل انسان . فنحن نكبت كل حين ، ولا نستطيع أن ننطلق وراء كل نزوة ونتبع كل رغبة .

ولكن هناك استعدادات خاصة وبنيات مهيأة « لكبت مرضى » ولا يمكن للكبت أن يحدث رجة فى الكيان إلا إذا كان الامر المكبوت جسيما وكانت البنية مستعدة .

(٩)

ويقول فلوجل[١] فى مواجهة التحول الخطير الذى أحدثه فرويد فى مهمة

---

(١) جون كارل فلوجل فى كتابه : الانسان والأخلاق والمجتمع .

علم النفس : « إن موقف علم النفس الآن أشبه بموقف الطبيب شهد مريضاً بين الموت والحيــاة دون أن يستطيع تشخيص الداء عن غير طريق الحدس والتخمين .

« إن مكتشفات التحليل النفسى ونظرياته فى ميدان الغريزة الجنسية ، قد صدمت شعور كثير من الناس ، فعلماء النفس يحاولون فهم البواعث التى ترتكز عليها القيم الخلقية والدينية والجمالية وإنهم فى خلال المحاولة قد يحطمون هذه القيم عينها بل لعلهم يعملون فعلا على تحطيمها . فالحذر من النتائج وخاصة ما يتعارض منها مع النظم والعقائد القديمة المقدسة وقيل أن علماء النفس قد يكونون هم أنفسهم من المصابين بتلك العقد التى يحلو لهم الحديث عنها ولذلك جاءت معظم أحكامهم مشوبة بالهوى قائمة على معرفة مبتسرة .

« وعلم النفس علم مهمته مقصورة على وصف حقائق الحياة العقلية وتصنيفها فلا شأن له بالقيم ذاتها » .

(١٠)

أثبت العلماء أن ظاهرة « عقدة أوديب » والعقد الأخرى ليست طبيعية المنشأ وأنها ظاهرة اجتماعية قد تكون فى مجتمع وتنعدم فى آخر ، وقد أشار مالينوفسكى إلى أنه لم يجد لعقدة أوديب أثراً يشير بوجودها فى قبــائل جزر تروبرياند أو جزر الميلانيزيا .

(١١)

أعلن العلماء خطأ افتراض فرويد أن الانسان فى جوهره حيوان كغيره من الحيوانات أو أن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هى الأساس المادي الصلب لسلوكه فى الحياة .

- كما أعلن العلماء خطأ محاولة فرويد فى إثبات أن الإنسان عبد نزواته وغرائزه الجنسية أو أن العقل الباطن هو المسيطر الفعال فى توجيه الإنسان .

(١٢)

تعددت وجهات النظر التى ترفض افتراض فرويد إن للغريزة الجنسية المنزلة الأولى ، وحد تلاميذه من أفتراضه بتسمية هذه الطاقة : « اللبيد » التى دعاها الطاقة الجنسية فسموها بأسماء مختلفة : منها قوة الحياة ، أو الدافع الحيوى ، كما سماها برجون « إرادة القوة » وأعظمماو وجهت بهنظرية فرويد من معارضة: إن الحضارة قد عملت بالسعى المنظم على مدى العصور لتحديد الغريزة الجنسية وضبطها والإفادة منها .

وقد كشف العلماء عن أن هناك غرائز ثلاث أخرى أقوى من الغريزة الجنسية هى البغض والتعدى والتحدى وهى تسبب بتوترها جميع الاضطرابات العقلية فى العالم .

(١٣)

أعلن إيفان بافلوف أن البيئة هى المسئول الأول عما يصيب الإنسان من إنحراف نفسى أو عقلى . وقال إن نظرية العالم اليهودى «فرويد» التى ترجع جميع الاضطرابات النفسية إلى أسس جنسية بحتة : هذه النظرية ليست سوى معول هدام لعقول الشباب ومخدر مميت لنفوس الناس وقد أعلن الدكتور ناتان كلاين الأمريكى هذا فى مؤتمر قدمه إلى أكاديمية العلوم الأمريكية .

ثانيا : مصادر فرويد

ما هى المصادر التى اعتمد عليها فرويد فى فروضه وبنوءاته:

ولماذا ركزت الدعايات على آراء فرويد وحده دون غيره .

لكي نستكشف هذه الجوانب علينا أن نعرف أن فرويد كان يعيش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في مجتمع «النمسا» وهو مجتمع مسيحي متعصب يكره اليهود ويحتقرهم وقد أقام فرويد أكثر من سبعين عاماً في مدينة فينا لا يغادرها (وسكن في منزل واحد أربعون سنة) ورحل عنها بعد ما ضمت ألمانيا النمسا إليها وفرض النازيون في هذه البلاد سلطانهم على اليهود. وقد عاش حياة صارمة انفصل فيها عن كل الناس فلم يعاشر سوى مرضاه كما انفصل عنه كل من إتصل به من العلماء بعد قليل من الزمن لأنه كان صارماً لا يقبل مراجعة آرائه ولا يهتدي في تفكيره إلا بآرائه الخاصة[1] .

وقد أشار كثيرون إلى أن يهودية فرويد « كان لها دخل كبير في صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليلاته ، ذلك لأنه كان ينتمي إلى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة التي أقل ما ينسب إليها حب المال والانغلاق والتعصب والجمع بين القومية والدين والمصالح الاقتصادية والحنين إلى الماضي ، فإذا أضفنا إلى هذا الأثر الواضح في فكره أنه سلخ خمسين عاماً من حياته لا يقابل فيها غير مرضاه ولا يعرف من الإنسانية غير أفرادها المصابين التاعسين » عرفنا من ثم كيف نظر إلى الحياة نظرة مليئة بالتشاؤم » . أما شخصية فرويد نفسها فإنها لا تثبت لما يثبت له شخصيات العلماء المتجردون للعلم حتى وصف بأنه « كان مجموعة من العقد النفسية والعادات الغريبة ولم يستطع أن يشفى عقله الباطن من هذه العقد النفسية إلى آخر حياته ، كان ينسى الأسماء ومنها اسم أحد معارفه الدكتور فرويد ؛ وكان يتتبع أوراقه التي تدخل في ترجمة حياته فيحرقها وكان يؤمن بأنه سيموت في نهاية الحرب العالمية الأولى فمات في بداية الحرب العالمية الثانية ، وكان يدخن عشرين سيجارة في النهار ليهدىء من سوراته العصبية » .

---

(١) صديق شيبوب . بحثه عن فرويد (الرسالة ١٩٤٠) .

(٢) دكتور فاخر عاقل في بحثه عن فرويد .

وكان عرضة للاغماء على أثر بعض المفاجئات ، وكانت مرارة طابعه خلة ملازمة له فى علاقاته مع غيره ، وكانت لأحلامه وجوه خفية ترمز إلى دلائلها فى سريرته الباطنة ، وكان له ضروب من القلق تنم على باعث من بواعث الحيرة المكتومة ، وكان أظهر حالاته الخاصة أنه يحارب التشبث بالعقائد الدينية والعادات الخلقية ولكنه يتشبث بالتفسير الجنسى للعقائد والعادات تشبثاً يربى فى حرارة إيمانه وشدته على تعصب المتعصب اللدود لمذهبه ودينه : « ومن قوله ليونج : عدنى أنك لن تتخلى يوماً عن الإيمان بالتفسيرات الجنسية غير أن يونج لم يلبث أن تزحزح تفكيره شيئاً فشيئاً من ذلك الإغراق فى العصبية الجنسية التى تحيط بكل علمه وتتغلغل وراء الأسرار فى أعماق كل طوية وقد خالفه تلميذه الفرد أدلر كما خالفه يونج »(١) .

(٢)

كان إصرار فرويد على توجيه نقده المر وخصومته العنيفة لكل ما يتصل بالفطرة الإنسانية هو مصدر الشبهة التى دفعت العلماء إلى البحث وراء خلفيات ودوافع نظرياته التى حاول أن يصوغها صياغة علمية براقة وخاصة حملته على الأخلاق : حيث قرر فى عنف وعناد « أن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى فى صورتها العادية » وهى محاولة تضع الإنسان فى درجة الحيوان من حيث غرائزه وميوله وحاجاته العضوية .

وقد بلغ ذلك بأقرب الناس إليه إلى الانصراف عنه : ادلر ويونج وفى مصر قال تلميذه الأول سلامه موسى عنه : إن ماتعلمناه من فرويد لايمكن أن يسمى علماً ، وإنما أكثره فلسفة وأقله علم . وقد وجه كلابارن (العالم النفسى المعروف) انتقاداً لآراء فرويد فى التحليل النفسى وشبه قائلها واتباعه بالبوم لأنهم لايرون

---

(١) من نصوص للاستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه (يوميات) .

الا مااشتمل عليه كهوف اللاشعور. ووصف هذا أحد الباحثين أصدق وصف حين قال : « هناك الكتاب الذين تملكهم فكرة الجنس ويندفعون فيهـا إلى حد بعيد، وهناك الكتاب المرضى بأعصابهم فيصورون لنا عالماً شاذاً ليس فيه شيء سليم » ومن الحق أن فرويد فى كتابيه : مستقبل وهم وعلة المدنية حاول أن يفسر منهجه فى هدم كل القيم والأخلاق من منطلق مادى صرف .

وقد رسم من خلال كتاباته صـــورة قاتمة للبشرية : حين افترض أن الإنسانية مثلت أباها الأول ليستمتع الأولاد بأمهم فى شهوة وجنس ودنس مسعور ، ولكن ما كادوا يصنعون ذلك ويرون إياه جثة هامدة حتى اعتراهم الندم على فعلتهم الآثمة . ثم نظروا الأبناء فيما بينهم فوجدوا أن أحداً منهم لن يفوز بأمه وحده ، إلا إذا قتل الآخرين ، ومن ثم نشبت معركة عنيفة لاتؤدى إلى تحقيق المصلحة المنشودة فاتفقوا فيما بينهم على أن يتركوا أمهم .. اخ .

وقد كانت هذه إحدى نقاط الضعف فى فرويد : اعتماده على الأساطير الإغريقية فى محاولة تصوير واقع مجتمع بعد خمسة آلاف من السنين . وقد أخذ العلماء عليه ذلك وأخذوا عليه أنه كعالم قد اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة .

« وقد عارض يونج مكدوجل نظرية فرويد فى العقل الباطن وأثبتا أنه ليس إلا خرافة . وقد نوقش فرويد فى مسألة العقل الباطن وعقدة أوديب فأنكرهما أخيراً . وان آراءه فى التحليل النفسى والأرواح والرؤيا كانت مثار اضطراب حتى فى نفسه هو » .

(٣)

كانت هناك محاولات علمية فى البحث المقارن تحاول أن تربط فرويد

باليهودية التلمودية وأهدافها البعيدة . ولكن هذه المحاولات لم تكن تجد من الدليل الحتمى ، ما يؤكد دعواها ، غير أنها كانت تجد من «القرائن» ما يؤكد ذلك ، غير أن الوثائق التى تسربت فى السنوات التالية للنصف الثانى من هذا القرن قد كشفت هذه العلاقة وأكدتها .

وكانت القرينة الأولى لهذه العلاقة ما جاء في بروتوكولات صهيون :

« يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فيسهل سيطرتنا . إن « فرويد » منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » . ومن هنا ظهر أن فرويد يهدف فى طريق مخطط الصهيونية العالمية إلى القضاء على الدين والأخلاق مكملا حلقة واسعة :

× ماركس فى مجال التاريخ والاقتصاد .

× دوركايم فى مجال الاجتماع .

× ليفى بريل فى مجال الأخلاق .

× فرويد فى مجال النفس .

وفرويد هو الذى قال أن التسامى نوع من الشذوذ وأن الأخلاق تتسم بالقسوة وهو الذى أثار شبهة انطلقت كالقذيفة : هل الأخلاق تعوق التطور أو النهضة أو الحضارة .

وقد صور خلفية أهداف نظرية فرويد عالماً من كبار العلماء فقال :

« ولما كان من أهداف الصهيونية القضاء على النظم الدينية والأخلاقية من أجل السيادة على العالم والسيطرة عليه وتسخيره ، لابد من تخريب العالم أولا قبل السيطرة عليه عن طريق الجمعيات السرية المسماة الماسونية ، وكذلك

السيطرة على الفكر الغربى واحتوائه وتوجيهه إلى أهداف الفكر الصهيونى وتصفيته من مفاهيم المسيحية والقيم الإنسانية واستغلال الثقافة والحضارة فى تحقيق هذه الأهداف .

« وذلك بمحاربة الأديان جميعاً والكاثلكة بنوع خاص والعمل المنظم على بث روح الإلحاد فى العالم .

« وتنظيم جماعة من الناس يرونهم أحراراً لايخجلون من أعضائهم التناسلية حين يجتمعون فى نوادى العراة من أجل هـــذا تتخذ الماسونية من المدنية المسيحية موقفاً عدائياً ، وترى أن المسيحية تقف فى وجهاً عائقاً أخلاقياً يحول دون نجاح دعوتهم فعندما أرادت الماسونية أن تلقن الشباب فى طفولتهم أسس دعوات الجنس والانحلال وتعلمهم مبادىء تقديس أعضائهم التناسلية ووقفت آداب المسيحية فى وجههم ، صنعوا برجال الدين المسيحيين الأعاجيب من قتل وتخويف .

« وجعلت اليهودية العالمية من عقيدة الماسونية خلقاً وأسلوب عمل يهدد مجتمعات الدنيا بالدمار الأخلاقى ويحولها إلى حياة مرحلية سحيقة من التخلف » .

ويقول الأستاذ محمد خليفه التونسى فى مقدمة كتابه عن بروتوكولات صهيـون :

« مهدت الصهيونية لاستيعاب الرأى العـــام المسيحى ابتداء من ظهور الكثلكة منذ ٤٥٢ سنة واستخدمت الصهيونية أسلحتها الدعائيـة فى أعقاب حركة الإصلاح الدينى بالعالم الغربى الحديث . ووقفت وراء الزعامات العلمية، ووراء عالم الطبيعيات دارون ونقلت مذهبه إلى تشكيل المجتمع الإنسانى فى طبيعة « الخلق » كما وقفت وراء رأى فرويد فى نظرية الجنس ووراء إدوركيم الذى يقول ان توازن نظام الأسرة نظام مصطنع .

ووراء نيتشه وهو ينادى بسيادة القوة واللارحمة . وكان همهم السيطرة على الفلسفة والفكر ، فالأغلبية الساحقة من هيئات التدريس من اليهود . والعمل على السيطرة على الفكر العالمى عن طريق التعاليم والاعلام ، والقضاء على كل فكر سليم وزرع الشك والريبة للوصول بالفكر البشرى إلى مرحلة الحيرة .

ومن يتابع تاريخ الفلسفة يرى دور اليهود فى ذلك :

« لاحظوا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه نحن الذين رتبناه من قبل » .

ومن يتابع تاريخ الفلسفة يرى دور اليهود (واضحاً) فى ذلك فهم ينشرون الفلسفات التى تحطم وتدمر القيم الإنسانية .

« وسيجموند فرويد : هذا الرجل أراد أن يحطم احترام الإنسان لنفسه تحطيما كاملا ، ومن يقرأ فرويد يدرك تماماً أنه ينفذ مخططاً يهودياً جباراً حين أراد أن يصم الجنس البشرى بأنه جنس متحلل ينطوى على أسوأ وأخس الرغبات حتى أنه اتهم الجنس بأن الطفل يعشق أمه ، ويريد أن يقتل أباه وبنى فلسفته ومذهبه على هذه القاعدة الرئيسية حتى جعل الناس جميعاً يشكون فى كل فضيلة وكل أمر وكل عاطفة رقيقة .

(٤)

إذا كانت محاولات ربط فرويد والفكر الفرويدى باليهودية التلمودية فى أول أمرها قرائن فانها فى سنوات ما بعد ١٩٤٨ قد أصبحت «حقائق» فقد كشفت كتابات كثيرة بعد ذلك عن هـــذه الرابطة بأكثر من وثيقة وسند ودليل وبرهان .

من أبرز هؤلاء « دافيد باكان » الذى كشف عن الفكر الفرويدى من

أثار التراث اليهودى الصهيونى ، مما كان بداية أساسية لتأكيد هذه الصلة ، ثم جاء كتاب (ترود وايز روز مارين) « البقاء اليهودى » مصوراً للأسلوب التى حاولت به اليهودية الصهيونية احتواء العقل الغربى .

ومن هنا ظهر بوضوح الصلة العضوية بين فكر فرويد وأهداف نظريته وبين المخطط الذى رسمته بروتوكولات صهيون .

يقول الدكتور صبرى جرجس فى كتابه (التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى) .

« وإذ خشى فرويد ما قد يؤدى إليه مفاهيم النظرية الحديثة من اصطدام بالصورة التى ألفها الناس عن أنفسهم فقد أسرع يعلن عن موضوعيته الكاملة وتجرده من أى ميل أو انحياز دينى أو حضارى ، بل هو خروجاً على أصول اليهودية التقليدية ، قد أعلن عن إلحاده وعدم إيمانه بالله والدين ، إمعاناً منه فى التدليل على موضوعيته وتحرره من جميع المؤثرات الا رغبة البحث عن الحقيقة والحقيقة وحدها .

« وقد يكون فرويد أراد الموضوعية حقاً ، ولكن مع الافتراض بأنه أرادها ، فإن السؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام هو : هل كان بوسعه أن يحققها ؟

هل كان من الميسور له ، وهو يخطط للانسان شخصية ويرسم له طريق حياته ، أن يتحرر من يهوديته ومن أثر التراث اليهودى الصهيونى الذى كان سائداً على نحو قوى فى البيئة التى نشأ وعاش فيها ، هل كان مستطيعا وهو ينقد الأسس الدينية والاجتماعية والخلقية التى قامت عليها حضارة الغرب وهي التى تسمى أحيانا الحضارة المسيحيـــة أن ينسلخ عن التراث اليهودى الصهيونى الذى نضح على الفكر اليهودى فى مختلف العصور .

ثم يقول : إن يهودية فرويد كانت أقوى بكثير من رغبته فى الموضوعية أو على الأقل قدرته عليها ، لأن حركة التحليل النفسى التى أنشأها إنما استمدت جذورها من التراث اليهودى الصهيونى . بل إنه يرجو أيضاً أن يبين أن المفاهيم الرئيسية لهذه الحركة إنما استقت من نفس النبع الذى استقت منه الحركة الصهيونية طاقتها وتوجيهها . وإن الحركتين سارتا بعد ذلك جنباً إلى جنب لكى تصلا آخر الأمر إلى غاية واحدة : الالتقاء بشعب الله المختار على أرض الميعاد .

ويقول : إن كثيراً من مفاهيم التحليل النفسى وإن عزيت إلى فرويد فى الاعتقاد الشائع فإنما هى قد استمدت منابعها من الفكر اليهودى الصهيونى . ويقول : أما أنا وقد تجمعت لدى هذه الحقائق مركزة غير مخففة فقد جذبت انتباهى حقيقتها الكبرى : تلك هى العلاقة الوثيقة بين فرويد رجل العلم والتحليل النفسى : الفكر العلمى من ناحية وبين التراث اليهودى الصهيونى والصهيونية : العمل السياسى الدينى العنصرى من ناحية أخرى . وهى كما تبدو لى ، ليست علاقة مصادفة ولكنها هى علاقة أصل ومسار وهدف .

ثم قال : كيف لم يتنبه أحد وقد ناهز عمر التحليل الفرويدى سبعين عاماً : كيف لم يتنبه أحد إلى هذا الأمر من قبل . كيف فاتت هذه العلاقة بين الفكر التحليلى والفكر الصهيونى جميع من شغلهم التحليل ثم حاول الإجابة على هذا السؤال فقال : لما بدأت مفاهيم التحليل فى الظهور فى أواخر ذلك القرن وأوائل القرن العشرين ، كان الإطار الذى قدمت فيه إطاراً علمانياً له صورة الموضوعية العلمية ، ثم ما لبثت الأبواق الخفية والمقنعة للدعاية اليهودية الصهيونية أن أحاطت هذا الفكر وصاحبه بهالة من النزاهة الفكرية منعت حتى أعنف معارضته من أن يستريبوا فى أصوله وإن أنكروا مفاهيمه . ومن ثم انصب النقد لمفاهيم التحليل عليها من حيث إنها مفاهيم « علمية » تخضع

لقواعد النقاش الموضوعى . وعلى الرغم مما تسرب من كتابات فرويد وأصحاب فكره من عبارات تكشف عن يهودية صهيونية واضحة التعصب .

وكان خليقاً أن تستثير الريبة فيما تخفى وراءها ، فقد فات مدلول هذه العبارات الأكثرين من الناس ، حتى رفعت الصهيونية العالمية كل الأقنعة التى كانت تستتر وراءها وظهرت واضحة لاخفاء فيها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ثم يشير الدكتور صبرى جرجس إلى أن هدف الفكر الفرويدى المنبعث أصلا من التراث اليهودى الصهيونى والمتجه اليها هو « تقويض الأسس التى تقوم عليها حضارة الغرب » .

ثم يقول إنه إنما أراد أن يكشف حقيقة أساسية هى أن التحليل النفسى الذى يعرفه العالم أجمع « علماً ولا شىء غير العلم ، إكتشف مفاهيمه الجوهرية كلها رجل واحد هو فرويد ، إنما هو فى مضمونه الحقيقى « داخل الإطار اليهودى الصهيونى الممتد مساراً عبر الأجيال » . ثم يشير الدكتور صبرى جرجس إلى حقيقة أخرى هى أن هرتزل وفرويد كانا صديقان وإنهما طالما تلاقيا فى مجال الفكر والعمل ، وإنهما عاشا فى عصر واحد .

ويحاول الكاتب أن يربط بين دور فرويد فى مخطط هرتزل مما يوحى بأن مخطط فرويد كان حقيقة عنصراً أساسياً فى العملية كلها .

(٥)

لم تكن مدرسة التحليل النفسى هى المدرسة الوحيدة فى علم النفس المعاصر . بل هى واحدة من خمس مدارس . (هى مدرسة التأمل الباطنى

---

(١) صفحات من ١٠ إلى ١٥ من كتابه : التراث الفرويدى .

وللمدرسة السلوكية والجشطلت (مدرسة الشكل) والمدرسة الغائية ومدرسة التحليل النفسى) . ولم يكن فرويد هو كل شىء فى مدرسة التحليل النفسى فقد ظهر الى جواره ادلر ويونج وغيرهم . وهى نظريات متعددة متضاربة تذهب إلى كل بعد من الأبعاد؛ فلماذا هذا الاهتمام البالغ بآراء فرويد وحدها ، ولماذا هذا التركيز عليها وإذاعتها ونشرها مع أنها أبعد الآراء عن الفطرة وأعقدها وادعاها لإثارة الطبائع الإنسانية وإفسادها .

ذلك هو الهدف من المخطط الذى يدفع هذه الآراء ويفرضها على الآداب والفنون والمجتمعات ومناهج الدراسة . ومع ذلك فقد وجدت آراء فرويد معارضة واسعة ، وكشفت أبحاث العلماء المتخصصين فى نفس الميدان إلى أنه يعيق الطبائع ويعارض أبسط بسائط النفوس ويخوض بالبشرية طريقاً مظلماً قاسياً إلى الكهوف والمفاوز .

وقد شهد « فرويد هذه المعارضة فى حياته ثم لم تلبث نظريته مع الزمن أن فقدت لمعانها الخاطف ، وتكشفت الحقائق التى تعارضها سواء عن طريق عمليات التجريب والإحصاء ، أو عن طريق العلم نفسه . ومن أبرز هذه المثل « أن الأطباء الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد فى مدينة شيكاغو وعدتهم نحو أربعة آلاف طبيب قد فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه يتولاها رجل مسئول عن مركزه العلمى والرسمى هو الدكتور برسيفال بيلى مدير معهد النفسيات بولاية الينواز .

وخلاصة حملته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه لها وإن آرائه لا تضيف شيئاً إلى القيم الإنسانية لأنه يرتد بالإنسانية الى أغوار الباطن . ويهمل جانبها المنطق الشاعر ، وانه لم يكن يفهم المرأة ، ولم يكن يتذوق الموسيقى ولا يحس جلال العقيدة وانه لمن العجب أن يكون الدكتور أرنست

سبونس تلميذه الوحيد من غير اليهود »[١] .

* * *

كما ألقى العالم النفسى (أبيليوت سليتر) عام ١٩٧٠ فى المحاضرة السنوية للجمعية الطبية النفسانية فى انكلترا فى لندن بحثاً كان بمثابة تحول خطير فى نظرة السيكولوجين إلى فرويد ومفاهيمه .

قال : ان التحليل النفسى ليس علماً بل أسطورة (مثيولوجيا) ولدت فى رحم خصب من اللاعلمية ، وهو الرحم الذى ترعرعت فيه كل فروع العلوم .

وأشار الى أن علم الأمراض العقلية كـكل العلوم الطبية الأخرى يتطور كعلم ولكنه سيعيش كفن . ودعا الى الملاحظ الصادقة العلمية للظواهر الحقيقية من أجل علم نفسانى دقيق مثلما دعا ما يؤثر من قبل الى نبذ الملاحظات الدقيقة التى يمارسها أتباع فرويد فى تحليلاتهم للمجهول وغير المرئى .

وهاجم سليتر التحليل النفسى الفرويدى قائلا : انه سوف لن يكون له مستقبل ولن يكون له مكان حتى فى الحلم الذى يراود العلماء وهو التوصل الى انصهار جميع علوم الحياة فى علم واحد .

* * *

وفى الحلقة الدراسية التى نظمتها أكاديمية العلوم فى نيويورك وضمت ١٨ فيلسوفاً استثنت الحلقة علم التحليل النفسى لفرويد من ميدان العلوم .

(١) عباس محمود العقاد — مايو ١٩٦٥ (الأخبار) ..

وكانت وكانت وجهة النظر أن نظرية خلابة كنظرية فرويد برزت قبل نصف قرن ، كان يجب أن تكون الآن علماً له مكانته وأسسه ، ولكنها لا تزال تدعو للخجل والرثاء لأنها لم تتعد حدود النظرية . هذا بالإضافة الى هجمات (ايزنك الشهيرة) وهجمات (ميداوار) على الفرويدية ، فإن (رنسور) الذى كان من أتباع فرويد المخلصين خرج مؤخراً بأن التحليل النفسى لا يمكن أن يعتبر علماً وانه مجرد نشاط استنباطى وتأويلى .

وقال ستيلر : ان نظرية فرويد مزقت علماء النفس ، وان علم الأمراض النفسية يعانى من جرح عميق أحدثه جسم غريب هو نظرية فرويد وهو جسم غريب لسببين :

الأول : انه لا يمت للعلم بصلة .

الثانى : لأن ما يقدمه ويحققه للمريض يختلف عما يحققه العلم الطبى فى أى فرع من فروعه ، فازالة هـــذا الجسم الغريب كفيل باندمال جرح العلوم النفسية .

وبالجملة فاننا مع الأستاذ فخرى الدباغ الذى استعرض هذه الآراء فى مقاله : الفرويدية وهل قاربت الزوال : حيث يقول :

من كل ما تقدم نرى أن ما يؤخذ على نظرية فرويد هو أنها غير علمية ، ولم تخضع نفسها بما فيه الكفاية للتحليل والإحصاء والمقارنة ، وانها أحدثت الفرقة والنزاع من علماء النفس وانها أشبه بأسطورة وعقيدة ذات تقاليد صارمة ينصاع لها المؤمنون والأتباع والمعالجون على طريقتها .

وقد اعترف فرويد فى مناسبات عديدة أنه لم يكمل البحث ولم يدع أن نظريته كاملة مكيفة بذاتها .

« ومن الطبيعى ألا تتوقع بقاء نظرية أسطورية خرافية كما قال مهاجموها طيلة هذه السنين دون تصدع أو إنحدار أو تدهور .

(٢)

ثالثاً : نظرية الكظم فى الاسلام

تحاول نظرية فرويد فى علم النفس أن تصور « الكظم » بأنه أخطر الأمراض النفسية التى يتعرض لها الانسان والتى تؤدى به إلى أمراض النورستانيا والجنون ويحيط فرويد هذه القضية بتهويل كبير ويعزو إليها مخاوف كثيرة من وراء الوصول إلى القول بإطلاق الغرائز وإطلاق التربية من جميع قيود التوجيه والعقوبة والزجر والتخويف .

وهدف فرويد واضح ومعروف وقد تحققت نتائجه فى ظاهرة التفريط الواضحة التى تأثر بها كثير من الأسر والآباء فى مواجهة الأبناء خوفاً من خطر غير محقق وقد اطلق فرويد على الكظم اصطلاح « الكبت » وقد دعا الاسلام إلى الكظم ولكنه لم يعرف الكبت بمفهوم فرويد ذلك أن الكبت نفسه مضاد لفكرة الاسلام عن الانسان جملة ، فالاسلام يعترف بالانسان على حقيقة ، ويعترف بغرائزه ورغباته ولا يحرمه من تحقيقها ولكنه ينظمها على نحو يحفظ للانسان وجوده ويحول بينه وبين أن يقتل نفسه أو يقتحم حق غيره .

وإذا كانت رغائب الانسان هى لذة الطعام ولذة الجنس ولذة البقـــاء وغرائزه ولا تعدو هذا فإن الاسلام قد قبل هذا وأقره ووضع له الضوابط والمعايير وأباح له التحرك من داخلها ، ولذلك فليس فى الاسلام « كبت » يجىء من ناحية ، وإنما جاء الكبت فى نظرية النفس الحديثة وفى رأى فلاسفة الغرب مصدر الفكر المسيحى الأوربى الذى كان مسيطراً على المجتمع الغربى

والذى آزرته مفاهيم حادة لا تقبل المعارضة أو المناقشة أو الخروج عنها : تلك هى مفاهيم الرهبانية والعزوف عن الطعام والجنس والبقاء .

وقد حملت حقائق التاريخ صوراً غريبة غاية الغرابة فى سريان هذا التيار واستشرافه وإتساعه حتى أصبح ظاهرة خطرة غاية الخطورة ، على المجتمع كله غير أن النظرة العقلية والعلمية لم تلبث أن واجهت هذا الاتجاه واكتشفت أنه ليس من الفطرة أو مما تتقبله النفس الانسانية .

ومن هنا كان الهجوم عليه ومعارضته ، بعد أن ألقيت إلى الفكر الأوربى حقائق الاسلام ومفاهيمه ، فلقد « فهم الاسلام حقيقة الكائن البشرى ولم يطلب منه ما هو فوق مستطاع طبيعته وتكوينه الخلقى ، بل دعاه إلى ترويض الوحش الكامن فيه » ومن هنا كانت دعوة الاسلام إلى الكظم .

ولما كانت النفس الانسانية قادرة على أن تدافع أهوائها وأن ترد بعض رغائبها من خلال إيمانها بالله وخشيته ومن خلال إيمانها بالمسئولية والمحاسبة والالتزام الأخلاقى ، وتقدير الجزاء الآخر فى يوم البعث والحساب فإن الاسلام يلفتها دائماً إلى هذا ويدعوها إلى أن تتحقق من غلواء إندفاعها وراء مطامعها .

ويرى الباحثون أن لتهذيب طبيعة الكائن الانسانى طريقين :

إحدهما « كبت نوازعه » وهو ما عرفته الفلسفة المسيحية الأوربية أو إعطاء هذه النوازع فرصة الممارسة مع تمكينها من الفضيلة وإشرابها إياها وهو ما طبقه الاسلام[٢] .

---

(١) الانسان بين المادية والاسلام .

(٢) بتصرف نفس المصدر .

(٢)

وحين دعا الاسلام إلا الزواج إنما كان يضع الأساس المكين لضبط الغريزة الجنسية والحيلولة بينها وبين الكبت، فهو الأسلوب الواقعى فى مواجهة طبيعة الانسان وغرائزه على نحو منظم نقى . بما يحقق دفعة الجسد المتجددة، ويرفع النفس الانسانية عن البحث حول تصريف الطاقة بأسلوب أو بآخر مما لا يرقى إلى مستوى الزواج .

ولقد رفض الاسلام فى صراحة أسلوب إخماد شهوة الجسد ، أو القضاء عليها وضرب الرسول المثل بنفسه فقال أنه ينام ويأكل ويتزوج النساء وأنه بسلوكه هذا يرسم للمسلمين الصورة المعارضة لكل مفهوم الانقطاع أو الرهبانية أو الزهادة التى تضاد الطبيعة البشرية والتى توجد مقاومتها « الصراع » أو الكبت وما ذهبت إليه الفلسفة المسيحية فى هذا المجال لم يكن هو الدين الحق المنزل، وإنما كان التفسير البشرى والتحول التى طرأ على المفاهيم فنقلها من الفطرة الخالصة إلى تعقيدات المضادة للنفس البشرية .

« أن نظرة الاسلام إلى النفس البشرية هى النظرة التى ستبقى مع الطبيعة البشرية وتسايرها ، والاسلام يعترف بالكائن البشرى كما هو بنوازعه وميوله الفطرية ولكنه يهذبها ويضع لها الحدود فى الدائرة التى تحقق مصالح المجتمع ومصالح الفرد ، ثم هو يطلب من النفوس أن تتسامى وتدفع ولا يفرض ذلك فرضاً بل يفرض إلى الحد الأدنى الذى لا تصلح الحياة بدونه ويترك المجال بعد ذلك للسمو والتطهير تطوعاً لا فرضاً »[1].

* * *

والاسلام على هذا النحو لا يتعرض لمفهوم الكبت التى تفرضه الرهبانية

---

(١) نفس المصدر .

أو عدم إباحة الطلاق ، أو قمع الجسد وقهر الشهوات على نحو لا تقبله النفس البشرية ولا تستريح إليه .

والمسلم حين يعترف بالطاقة الجنسية يتحرر من الكبت ، ولكنه حين يكظمها لظرف أو لآخر فانه لا يتعرض لخطر ما ، وقد دعا الاسلام إلى الكظم فى حالات عدم القدرة على الزواج ، أو غيرها ، ولقد أثبت العلم الحديث أن هذه الطاقة - بخلاف طاقة الطعام - يمكن تأجيلها ويمكن صرف النظر عنها ، فترة ما أو طيلة الحياة . ولقد دعا الاسلام إلى احتمال الكظم بالاعلاء والتسامى ، وفى مقدمة الإعلاء الصوم . فالاسلام يقرر حقيقة وجود الطاقة ، ويقرر قدرة الانسان على تأجيلها حتى تتاح له الظروف الملائمة ، وينظر إلى إطلاق الطاقة إلى غير الطريق الطبيعى — الذى هو الزواج — عمل محرم، ومخالف لحدود الله ومن ثم فإن الايمان قادر على أن يكسب المسلم الصبر عليه والكظم عنه .

ولا تكون الطاقة رجس من عمل الشيطان إلا فى حالة الخروج بها عن الأسلوب الصحيح الذى قرره الاسلام ، إلى أسلوب آخر يخرج عن حدود الله.

وحيث يؤمن الانسان فى عماق نفسه أن هذه الطاقة حقيقة وأن كظمها مستطاع وطبيعى فإنه لا يحس بعقدة ما أو بخطر ما . وحين يعترف الاسلام بواقع النفس البشرية وطبيعتها يفسح لها المجال الحقيقى للحركة ، عن الطريق المشروع ، وليست تلك الضوابط قيوداً بقدر ما عليه خطط للمحافظة على النفس وعلى العرض وعلى المجتمع نفسه من اضطرابه بحظر ما حق له أثره البعيد فى تكوين الأفراد وتشكيل المجتمعات وهو الزنا الذى حرمه الاسلام تحريماً قاطعاً ولم يجعل فى أى نص من نصوصه أى بادرة إلى تقبله ، وشأنه فى ذلك شأن الربا فى المعاملات الاقتصادية .

وقد نظر الاسلام فى هذه المحرمات والضوابط إلى مصالح الفرد من حيث

هو فرد له طابعه الأصيل فى المحافظة على كيانه وأن نظرة إلى المجتمعات التى تهاوت تحت تأثير خطأ التحريم والمنع ، وخطأ الإباحة والإنطلاق لتكشف بوضوح عمق « أسلوب الإسلام » ومنهجه فى بناء المجتمع السليم القادر على الحياة ومغالبة التحديات والاستعلاء على مفاهيم الحيوان فى نفس الوقت الذى يستعلى فيه على مفاهيم الزهادة والرهبانية .

ولقد حرص الاسلام بهذا التنظيم وهذه الضوابط على حماية الجسم الإنسانى من التدمير الذى يجىء بنتيجة الإندفاع وراء الاشباع الدائم ، وفتح باب التفريغ للطاقة الحيوية ، فهى فى إطلاقها والاسراف فى إنفاقها تفسد العقل وتجعل الفرد عرضة للانهيار ثم هى فى نفس الوقت تحافظ على كيان المجتمع وتماسكه وقدرته على مغالبة الأحداث .

ولا شك أن لشهوة الجنس غاية هى تجدد المجتمعات بالنسل وليست هى غاية فى ذاتها ، وحفظ النوع البشرى . ومن هنا كانت عملية الكظم والاعلاء والضبط التى تحفظ للفرد كيانه وللمجتمع بقاءه .

الفصل الثاني

نظرية النسبية الأخلاقية

تطورت الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الغربى والمجتمع الأوربى على مرحلتين كبيرتين :

المرحله الأولى : مرحلة الخروج من الفكر المسيحى الأوربى إلى مفاهيم العلم : وذلك بخلق ذاتية خاصة للأخلاق مستمدة من العقل والحيـــاة لا من الدين .

المرحلة الثانية : مرحلة الخروج من كل القيم والمفاهيم الثابتة الفطرية الإنسانية الطابع إلى التحرر الكامل والدعوة إلى نسبة ربط الأخلاق بالمجتمعات والعصور من ناحية التطور والتغير وعدم الثبات وقد بدأت الدعوة بفصل الأخلاق عن الدين ، بعد أن تعرض الدين فى الغرب إلى حملات عصبية. وبعد أن عجز الدين فعلا عن أن يعطى البشرية زادها فى مرحله التحول الخطيرة التى مرت بها أوربا منذ عصر النهضة ولقد كان للأخلاق السلبية التى عرضتها أوربا عن المسيحية (منفصلة عن أصولها وجذورها) أثرها فى أنها أعطت صورة الإستسلام والرهبانية وكراهية الدنيا وللعزوف عنها والهروب فى المغاور والكهوف ، كان لهذه الأخلاق أثرها فى رد الفعل الخطير الذى بدأ بصيحة « نيتشه » بالدعوة إلى العودة لأخلاق الإغريق والرومان وبلغت ذروتها بدعوات « ليفى بريل » ودوركايم وفرويد وسارتر فى أن الأخلاق ليست فطرة وأنها فى أقل صورها قاسية .

وأنها مسألة نسبية تتشكل فى كل عصر وأمه من خلال الظروف والعوامل الإجتماعية، وهذا هو قمة ردالفعل ، وقمة الإنحراف . وقدهاجم الفكر الغربى [فى تطوره من الفكر المسيحى إلى الفكر الوثنى الهلينى ، إلى الفكر المادى الخالص] كل القيم التى عرفتها الأديان جريا وراء الخروج من قيود الأديان تحت ضغط عوامل متعددةأهمها السيطرة الربوية ومايتبعها من محاولات لتعزيز أسبابه من حيث أن الأخلاق هى أكبر عوامل معارضته أو القضاء على الحاجة إليها .

ومن هنا فقد كان على اليهودية التلمودية دفع المجتمعات فى طريق الربا بدفعها إلى الأهواء والاسراف والترف والحرب وكلهـــا من معارضات الأخلاق .

ثم جاءت مرحلة أعلاء حيوانية الإنسان ومادية البشر .

فكانت تلك النظريات المتشابكة التى حصرت الفكر الغربى فى إطار لايفلت منه : مادية العيش ، ونسبية الأخلاق ، وإعلاء الجنس ، وسيطرة العنصرية .

(٢)

أن الأخلاق التى أقامتها المسيحية فى الغرب وتشكلت فى إطار الفكر الغربى كانت قاصرة عن أن تمنح الناس القدرة على مقارفة الحياة ، لسلبيتها ومعارضتها لاقتحام الحياة والعمل والكشف عن مقدراتها وثرواتها ، وهذا هو الجانب الذى دخل على الدين من الفلسفات القديمة الوثنية والجبرية ، غير أنه فى الوقت نفسه كانت هناك بقايا من المفاهيم الأصيلة التى جاء بها الدين من عند الله .

وقد تدافعت هذه القيم والمفاهيم إلى أوربا بعد الاسلام من خلال منافذ أسبانيا وجزيرة قبرص وغيرها ، وقد أكسبت هذه المفاهيم ـ لانبعاثها من

الفطره ـ تقيلا كان عاملا من عوامل النجاح الذى عرفه المجتمع الأوربى فى مجال العمل وحسن التعامل .

ولاريب أن النظرة الإيجابية للحياة والانطلاق إلى مجال الكشف والبحث كان من معطيات الاسلام أساساً غير أن نتائجه إلى تحول إليها من بعد ، حين فصل بين الأخلاق والدين ، وفصل بين مفاهيم الاسلام فى الأخلاق والعلم وبين الحياة الاجتماعية التى تشكلت على أساس الوثنية الاغريقية ، هذا التحول له عوامله وتحدياته التى كانت المسيحية الغربية إحداها وكانت محاولة عصر التنوير والفكر اليهودى التلمودى أبعد الأثر فيه .

وهنا بدأت عملية الانحراف بفصل الأخلاق عن أصلها الأصيل بالدين ، إلى الارتباط بمفهوم التطور الذى نقلها من مفهوم الثبات ودفعها إلى مفهوم جديد هو قمة الخطر الذى واجهته الفلسفة الأخلاقية المعاصرة : تلك هى الدعوى : بأن الأخلاق تختلف باختلاف العصور وأن الخير والشر والطيب والخبيث يتباين ويختلف مع تباين المجتمعات والبيئات . وأن ما يعد أخلاقا فى مجتمع لا يعد كذلك بالنسبة لمجتمع آخر .

ولا ريب كان أثر الفكر اليونانى الوثنى كبيراً فى هذا التحول الذى واجهه المجتمع الأوربى والفكر الغربى تحولا من الفكر المسيحى الغربى إلى الفكر الإسلامى ، ثم العودة السريعة إلى الفكر الهلينى والاستقرار عنده . وكان لنظرية دارون : والتطور الاجتماعى الذى شكله سبنسر وغيره ، والنظرية المادية كلها أكبر مصادر هذا التحول الذى استقر على هذه الصورة من النسبية الأخلاقية التى تحاول أن تفصل مفهوم الأخلاق عن الإنسان .

ويتصل هذا المفهوم أساساً بالأيدلوجية اليهوديا التلمودية التى تعمل على دفع المجتمع البشرى إلى الإباحة والكشف واعلاء الجنس . وهذه النظرية فى

بمجموعها جزء مكمل لنظرية ماركس فى التفسير المادى للتاريخ والإنتاج ومكمل لنظرية فرويد فى التفسير الجنسى للإنسان ومكمل لنظرية العنصريات والأجناس البشرية ، وكلها تسير فى طريق واحد وتستهدف غاية واحدة .

(٣)

فى أوائل النهضة وفى ظل التحول فى الفكر الغربى من مفاهيم المسيحية إلى مفاهيم النظرية المادية ، وضعت أول نظرية للأخلاق على أنها دراسة الخير الأسمى للإنسان .

وجرى «البحث عن مقومات الخير وشروطه عند الناس باعتبارهم أفراداً كما جرى البحث عن طبيعة الفضيلة أو اللذة ، وتحديد مبادىء الواجب أو القانون الخلق » وكان هذا أول تحول من الأخلاق المسيحية إلى الأخلاق العقلية وكان نيتشه قد حكم على الأخلاق المسيحية بأنها أخلاق العبيد وأنها من صنع الإنسان. وهنا اتجه الرأى إلى التحرر من علاقة الأخلاق بالدين ، وإقامة «أخلاق» مستقلة ولم يكن أمام الفكر الغربى إلا اقتباس النظرية الإغريقية الوثنية : وهى فكرة بناء قواعد الأخلاق على أساس السعادة أو اللذة أو العقل ومع ذلك فقد رأى الفلاسفة أن قوانين الأخلاق عامة لا تتأثر بحدود الزمان أو المكان . وقد توزعت مناهج الفلسفة حول مذهب السعادة ومذهب الواجب ومذهب اللقانة وكلها مذاهب تفصل الأخلاق عن العقائد . وتقيمها على مفاهيم عقلية محضة فمذهب الواجب الذى يقول به كانت : يقول : اعمل ما يجب أن يكون قانوناً عاماً ، ومذهب السعادة يرى أن هدف الأخلاق هو تحقيق السعادة الشخصية : ومذهب اللقانه يرى أن الخير خير فى ذاته والشر شر فى ذاته ثم جاء سبنسر فقال أن غريزة حفظ النوع هى أساس الأخلاق وجاء نيتشه ليقول بمذهب القوة الذى يعتقد أن الأخلاق اخترعها الضعفاء ليقيدوا بها الأقوياء .

وكانت هناك الفلسفة الغيرية : التى تقول (عش من أجل غيرك) وقد

غلب على الفلسفة الأخلاقية فى هذه المرحلة مفهوم اليونان : فما قال به أفلاطون وسقراط وأرسطو وهو (لايخرج عن دائرة السعادة التى هى راحة النفس والضمير وسرور الفرد وغبطة الجماعة، ولقد كانت الفلسفة اليونانية فى الإخلاق تقوم على أن الخير هو وسط بين شرين ، وأن الأخلاق نظرية ومجموعة من المبادىء والمثل دون أن يكون هناك إلزام فى التطبيق . وجاءت النظرية الغربية تجرد الأخلاق من فكرة الإلزام ثم لم تلبث أن ظهرت دعوة تقول أن الأمم ليست بحاجة إلى الأديان ولكنها بحاجة إلى الأخلاق . وكان ذلك علامة على فصل الدين على الأخلاق وقيام أخلاق مستقلة منفصلة وقالت الفلسفة الغربية: إن الأخلاق تختلف عن الدين ، وليس من الضرورى أن كل من يعتقد فى دين أن يصبح أخلاقياً ، كما أنه ليس من الضرورى أن يكون كل ملحد لا أخلاق له .

* * *

وكان هذا التحول خروجاً من مفاهيم الكنيسة التى استقرت فى أوربا الف سنة والتى كانت مزيجاً من مبادىء الإغريق والرومان والعهدين القديم والجديد .

(٤)

عندما فصل الفكر الغربى الأخلاق عن الدين واستقلت واستمدت مفهومها من العقل وحده بدأ انقسامها فى مذهبين أساسيين :

أحدهما يجعل الخير أمراً مطلقاً لايتغير بتغير الزمان والمكان والآخر يجعله أمراً نسبياً يختلف باختلاف الظروف القائمة ويرى أصحاب الرأى الأول أن الواجب الخلقى معروض بحكم العقل لا بدافع العواطف ولذلك فهو واجب على كل إنسان مهما تكن ظروفه ويرى الآخرون أن خيرية الخير

مرهونة بغايته ، فالخير هو ما يؤدى إلى السعادة وإلى اللذة وإلى المنفعة ثم برز من خلال ذلك المثاليون والتجريبيون : المثاليون يقولون بالواجب وهو عندهم مبدأ عام مطلق ينبغى أن يلتزم به كل إنسان فى كل زمان ومكان أما التجريبيون أو الواقعيون فيرون أن الأخلاق نسبية « تتغير بتغير الزمان والمكان وتختلف باختلاف الظروف والأحوال ولا تكون قط غاية فى ذاتها وإنما هى وسائل لتحقيق غايات : هى تحقيق المنافع ودفع المضار »[١] .

ثم جاء تحول خطير : هو قصر الدراسات الأخلاقية على الظواهر الخلقية ، « ومهمة هذه المدرسة أن تصنف هذه المثل وتقرر حالتها دون أن تتجاوز مرحلة الوصف التقريرى إلى إصدار أحكام تقويمية كأن تقول هذا خير وذاك شر أو حسن وردىء ونحو ذلك مما يخرج الباحث من نطاق العلم . فهم يرفضون البحث فيما ينبغى أن يكون لأنه غير كائن بالفعل » « وجاء ليفى بريل (اليهودى) وانتهى إلى رفض الأخلاق علماً معيارياً يدرس ما ينبغى أن يكون عليه السلوك الإنسانى وأكد الأخلاق علماً واقعياً وضعياً وبهذا ينصرف من التشريع المثالى إلى دراسة الحقائق الخلقية دراسة وضعية تقريرية وبهذا تتلاشى الأخلاق النظرية وتبقى الأخلاق العملية[٢] .

* * *

ومن حق أن يقال أن المنهج الاجتماعى أو المدرسة الاجتماعية قد أحدثت تحولا خطيراً فى مفاهيم الأخلاق ، وهو تحول جرى بتوقيت منظم واضح مع دعوات العنصرية والتفسير المادى للتاريخ ونظرية الجنس الفرويدية وكلها نظريات سيطر عليها الفلاسفة الجدد « فلاسفة البروتوكولات » فى مجال التعبير الذى فرضته اليهودية التلمودية على الفكر البشرى واحتواء الفكر العربى كله

---

(١) دكتور توفيق الطويل : المثل الأعلى فى فلسفة الأخلاق .

(٢) يراجع كتاب الفلسفة الخلقية : تشابها وتطورها للدكتور توفيق الطويل .

بفلسفة متكاملة فى جميع الجوانب : الاقتصاد والاجتماع والتاريخ والنفس والأخلاق]مستمدة جميعها من النظرية المادية ، ومحاولة وضع الإنسان فى صورة التجربة التى تتم على الأجناس غير البشرية (أى الحيوان) مع إعلاء الجنس واللذة والشهوات ومن هنا فقد كان منهج الأخلاق فى ظل مفاهيم المسيحية، وفى مرحلة فصل الأخلاق عن الدين ، إنما يستهدف السمو بالنفس الإنسانية وإقامة « أسلوب » واضح وكيان « ثابت » يفصل بين الخير والشر ، ويعلى شأن الخير وإن استمد مفاهيمه من العقل وحده . أما مدرسة المنهج الاجتماعى فقد عمدت إلى ضرب هذه الحلقة الباقية لدفع منظومة الأخلاق إلى الانفراط الكامل . وقد بدأ ذلك حين طرح (ليفى بريل) اليهودى نظريته فى كتابه « الأخلاق وعلم الظواهر الأخلاقية » فقد هاجم بريل المفهوم القديم للأخلاق وطرح منهجا للفصل بين المعرفة النظرية والتقديرات العلمية . وأعلن أن البحث الجديد للأخلاق يقتصر على دراسة الظواهر الخلقية ومعنى ذلك هو أن يتلاشى مفهوم فلسفة الأخلاق بمعنى التوجيه أو إلقاء الضوء على الخير والشر أو إقامة مثل أعلى للمجتمع. وهذا هو أحطر ما عمدت إليه اليهودية التلمودية لتحطيم الأخلاق فى المجتمعات وقد أشار الباحثون إلى أن هذه النظرية قد ووجهت منذ اللحظة الأولى بعواصف من النقد والاستهجان[1] فقد وجدوا فيها مساسا بقدسية الأخلاق : وكان رأيهم أن دراسة النظم الأخلاقية بطريقة العلوم الوضعية من شأنه أن يقضى على ما تسكنه النفس البشرية من احترام وتقديس لفكرة الأخلاق وكان معنى هذا أن علم الأخلاق بعد علم النفس قد سقط فى متاهات المذاهب المادية وتحت سيطرتها.

ولما كانت غاية الأخلاق « إعلاء القيم التى تسمو على عالم الحس ، أى القيم الروحية » وهى « غالباً ما تتعارض مع القيم الحسية » فإن خضوع مثل هذا العلم للنظرية المادية من شأنه أن يحطمه نهائياً وأن يدفع إلى التحلل منه كما يفسح

---

(١) السيد محمد بدوى : كتابه لمتطور .

المجال واسعاً أمام تبرير الشهوات وإعمال الغرائز . ولقد كان أخطر ما طرحه المنهج الاجتماعى فى هذا الصدد هو : نسبية الأخلاق إلى المجتمعات والعصور ومحاولة إيجاد مبررات من التاريخ والحفريات وغيرها للقول بأن الأخلاق تختلف بين العصور وبين البيئات .

* * *

ولا ريب أن النظرية التى حمل لواءها « ليفى بريل » قد مرت فى حلقات متعددة ، منها نظرية التطور التى وجهها سبنسر إلى التطور الاجتماعى ، وعمل على ربط « فكرة الضمير الأخلاقى » بالفكرة العامة التى تسيطر على مبدأ التطور وهى فكرة بقاء الأصلح . ووفقاً لهذا التفسير المادى يرون أن التغيرات النافعة إلى الأخلاق الخيرة التى تعود فائدتها على الأجناس البشرية فإنها تصبح استعدادات وراثية فى سلالتهم « فالضمير الأخلاقى فى نظر أصحاب مذهب التطور قد نشأ من التغيرات التى اعترت الجنس بمحض الصدفة وتأصلت فى طريق الوراثة » .

ومن ثم فقد جرى تفسير (الضمير الأخلاقى) بالرجوع إلى الحالات الجسمية للانسان .

ومن خلال مفهوم يقول : إن الغرائز هى الجذور التى تتفرع منها الأخلاق وهذه الغرائز وراثية كشكل الجسم سواء بسواء .

* * *

ومن هنا فقد أصبحت الأخلاق جبرية ، ووضعية فى نفس الوقت : يعنى أنها نسبية (تنظر إلى الإنسان كما هو كائن بالفعل لا كما يتصور أن يكون) .

يقول الدكتور : السيد محمد بدوى فى معرض تصوير هذه المرحلة « ما لبثت

هذه الفكرة الجريئة أن أزعجت كثيراً من العقول التي رأت فيها انحداراً نحو نفي الأخلاق برمتها فإما أن يكون الخير مطلقاً وحسب مايتصورون .

وإما أن ينعدم التمييز بين الخير والشر وليس هناك حل وسط »

وكان لاريب « للمذاهب التطورية والبيولوجية أكبر الأثر في الجنوح بهذا التفكير نحو الغلو والشطط في تفسير النزعة الأخلاقية .

* * *

وقد عارض ليفي بريل القول بأن الطبيعة البشرية هي دائما لاتتغير بتغير الزمان والمكان ، وادعى أن التفكير العلمي الحديث (وهويقصد بالعلمي هنا الفلسفات المادية) لايقبل أن يكون الإنسان المعاصر هو الإنسان الذي يمثل الإنسان كله تمثيلا صحيحاً ، ويرى العكس من ذلك : أنه إنسان من جلس خاص وفي عصر معين. وهو(أي الكاتب) بذلك يسبح ضد التيار ، وضد الفطرة دون تقدير لأي مفهوم عقلي أو أسلوب علمي صحيح : متجاهلا حقيقة كبرى لاسبيل إلى تجاوزها هي « أن جميع أفراد الجنس البشري توجد معهم صفات نفسية وخلقية عامة وأن الإختلاف بالزيادة والنقصان لايكون إلا في الصفات العرضية أما الصفات الجوهرية أو الطبيعية الأفراد فانها ثابتة[١]

وكان من نتيجة ذلك أن أخذت هذه الفلسفة تبرر واقع المجتمعات ، وتبرر الجريمة وتزين الشر بصورة الخير ، وتزخرف الإباحة وتحرض على قبولها دون حرج أو خوف .

ولقد عارض الباحثون المنصفون والعلماء من غير طائفة الفلسفة المادية واتباع اليهودية التلمودية خطأ القول : « بنظام خاق لكل عصر » .

---

(١) نفس المصدر .

ولاريب أن الهدف واضح من وراء هذا التيار : هو هدم الأخلاق الدينية ودفع البشرية إلى طريق التحرر نهائياً من كل قيم الخير والفضيلة والحياء والغيرية وبذلك تتجه الفلسفة الأخلاقية للمدرسة الإجتماعية إلى هدم القانون الأخلاقى نهائياً واستباحة كل محرم .

ولاريب أن هذا هو نهاية مرحلة بدأت منذ تحولت نظرية التطور البيولوجية إلى نظرية اجتماعية، فقد استهدفت تحرير الأخلاق من جذورها الدينية « أو إبعادها عما يتصل بتعاليم الكنيسة وإقامتها على ما اصطلح على تسميته بالقاعدة المستقلة . ويرى البعض أن التطوريون لم يفعلوا أكثر من استبدال « تبعية » بتبعية فقد استبدلوا علم الحياة باللاهوت كأساس للأخلاق » وأن ذلك كان جريا وراء صيحة نيتشة فى دعوته إلى أخلاق الأقوياء وأخلاق السادة ، فى مواجهة ما أطلق عليه « أخلاق العبيد » غير أن عدداً من علماء التاريخ الطبيعى عارضوا أن يكون « التطور » مصدراً للأخلاق وفى مقدمتهم الدكتور ماتيوز الذى قال أنه لخطأ يفضى إلى كارثة أن ندعى أن العلم الطبيعى يستطيع أن يحل مشكلة الأخلاق (وقد تابعه فى ذلك العالم أر كيث) وإذا كانت المسيحية تقول أن هدف وجود الإنسان فى هذا العالم وفى الحياة هو تمجيد الله وتأمل حكمته فإن اليهود رجال التطور يقولون : إن كل جماعة انصرفت إلى هذا الغرض وحده تلاشت من على ظهر الأرض ومن الطبيعى أن نظرة المسيحية ليست سليمة تماما على الوجه الأصيل لمفهوم الدين الحق وليس تفسير التطوريون اليهود صحيحاً على إطلاقه .

ويشير التطوريون إلى أن مادعا إليه القديس أوغسطين من أن هدف الدين (المسيحية) هو إقامة مدينة الله وإرساء السلام الدائم ، أن هذا الهدف وقد مضى عليه ألفى سنة فى محاولة الكنيسة المسيحية فانه لم يتحقق . ويجيب اليهود دعاة التطور : أن القوانين الإنسانية يجب أن تكون ملائمة للطبيعة البشرية وقد عارض العلماء أمس الأساس فى البحث كله هو أن العلم (أى

العلم المادى) وحده لايستطيع الاجابة على سؤال : لماذا وجد الإنسان على ظهر الأرض .

وأن الذين يتخذون العلم وحده أسلوبا للمعرفة لايستطيعون أن يصلوا إلى شىء فى هذا الصدد ويقول العالم البيولوجى ليونارد دارون (حفيد دارون الجد) أنى أشعر أن العالم يصبح مشروعا عديم الجدوى إذا كانت جهودنا المضنية لفعل الخير لاتخفى شيئاً وراءها ، أن العلم لايمكن أن يتخذ مرشداً للسلوك وإذا كانت هناك إرادة حرة فلابد أن يكون هناك شىء خارج العلم ».

(٢)

الأخلاق فى ضوء الاسلام

ينطلق مفهوم الأخلاق فى الاسلام من قيم ثابتة أساسية ترتبط بالانسان أساساً وهى قيم لاتتغير فى أصولها لأنها ترتبط بالنفس الانسانية التى تنطلق من معتقدها فى الايمان بالله إلى التقوى والايمان والعمل ، فالأخلاق هى طابع السلوك كله ومجموع التصرفات فى مختلف المجالات ، تقوم على العطاء والعفو والسماحة والرحمة فلا تختلف من جيل إلى جيل أو من عصر إلى عصر أو من بيئة إلى بيئة وإنما تتماثل لأنها ترتبط بالنفس الانسانية فى علاقتها بالله :

وليس فى مفهوم الاسلام أن تتطور الأخلاق أو تتغير تبعاً للأحوال الاقتصادية أو ظروف المجتمعات . وإنما الذى يتغير هى العادات وهناك تفرقة واضحة وعميقة فى الاسلام بين الأخلاق والعادات وبين القيم الأخلاقية المرتبطة بالعقيدة وأصولها الثابتة الباقية على مدى الزمن والمرتبطة بالانسان من حيث هو مخلوق من روح ومادة وجسد ونفس ومن حيث دوافعه وخصائصه وأشواقه ، معترفة بكل ما يتصل بغرائزه ورغباته محققة لها فى إطار الأخلاق ، وفى دائرة واسعة مرنة تكفل للنفس تأكيد

مطامحها دون أن يحرفها ذلك إلى الاباحة أو التحلل أو يوقفها عند الحرمان أو الكبت .

والاسلام أساساً يبنى النفس الانسانية على الايمان ومخافه الله ، وعلى اليسر والتوسط ، ويحول بينها وبين أن تتعدى حقوقها وحرياتها ثم يحقق مطامحها في كل مجالات الرغبة على النحو الذى لايجاوز بها إلى الفساد والتدمير ، وبغير أن يحملها على الزهادة أو الحرمان أو المنع أو كراهية الغرائز والمطالب الجسدية «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى خالصة للذين آمنوا يوم القيامة » فهو أولا يعترف بالمطالب المادية أو الغريزية ثم هو ثانيا يحققها ويكره أن ينصرف الناس عن تحقيقها بالزهادة فيها ثم هو ثالثاً يضع لها ضوابط تقى الشخصيه الانسانية شر التدمير والتحطيم ويحول بينها وبين الترف.

ومن هنا فان أزمة ما مما يسمى أزمات القلق أو التمزق لايمكن أن تقع في نطاق مفهوم الاسلام وتطبيقه الصحيح ومرد الاضطراب التى وقع فيه الفكر الغربى أنه انفصل عن الدين أساساً ولكنه انفصل تحت ضغط مفهوم خاطىء أضيف عليه بالزهادة وكراهية الأحاسيس الطبيعية ، ثم هو لم يعالج الأمر بالحكمة ولكنه اندفع إلى طريق أشد عنفا ، حين انتقل من المسح المقدس إلى الاباحة المطلقة .

وقد كره الاسلام الرهبنة ودعا إلى التقوى ، والتقوى إباحة فى إطار الضوابط التى تحفظ النفس الانسانية من التدمير فالإسلام لايكبح الغرائز ولكنه يضبطها ويجعل من الأسلوب الكريم وهو الزواج منطلقاً مفتوحا وإطاراً سليما ولكنه يدعو إلى التزكية والترويض والتصعيد والسمو بالنفس دون أن يقيمها أو يحطم فيها واحدا من أصول تركيب الإنسان ولاريب أن فكرة تصعيد الغرائز على النحو الذى عرفته الفلسفات الحديثة مستفاد من القرآن الكريم « ونفس ماسواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

والأخلاق فى الإسلام : لا تنفصل عن العقيدة ، فاذا انفصلت فقدت قيمتها الحقيقية وفقدت محورها الأصيل . وقد جرى بعض الباحثين المتابعين للفكر الغربى وراء القـــول بالحاجة إلى الأخلاق دون الحاجة إلى الدين . أو بالأخلاق منفصلة عن الدين وتلك شبهة باطلة وفدت مع المفهوم الغربى الذى أقام أخلاقا وضعية .

أما فى الإسلام فالأخلاق قاسم مشترك على المجتمع والقانون والاقتصاد والاجتماع . وهى ليست أخلاق سعادة كمفهوم الفلسفة اليونانية ولكنها دعوة إلى بلوغ سعادة النفس بالتقوى والجمع بين العمل للدنيا والتماس الجزاء فى الآخرة ومبدأ الأخلاق الإسلامى قوامه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتطهير النفس وأساسه الإرادة والمسئولية والجزاء . فالأخلاق اختيار وإرادة ، وقد أطلق عليها الإسلام : الكسب والاختيار وجعلها مناط التكليف . ومن حرية الاختيار أن يكون العمل الخلق متصفا بالطواعية ويكون صادراً عن إرادة تحب الخير . ويقرر الإسلام إن العقيدة مهما صحت وقويت فهى شىء عديم القيمة إذ لم تصبح دافعاً إلى السلوك والخلق ، ومن هنا كانت العبادات مصدراً للتهذيب الخلق وقد وصفت الصلاة فى القرآن بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر .

ولقد كان الإنسان موضع عناية رسالات السماء والكتب المنزلة ، ومايقال من أن الكتب السماوية لم تهتم به لا ينطبق على الإسلام وهو بالتالى لا يمكن الإقرار به لأن واحداً من الكتب السماوية الأخرى ليس موجوداً على صورته الأصيلة . وإذا كانت الفلسفات قد عنيت بالإنسان ، فانها قد عجزت عن استيعاب أمره فهى أما نظرت إليه نظرة مادية صرفة وحاكمته إلى تجارب الحيوان والحشرات وإما إنها حاربت أهواءه وحاولت أن تدفعه إلى تحطيم ضوابطه وقيمه .

* * *

(٣)

يقرر العلماء المسلمون أن الأخلاق قواعد ثابتة لا يحدها زمان أو مكان لا تخضع لظروف ولا تغيرها أوضاع فجوهرها هو جوهر الكون، وهو أزلى وقاعدة أساسية، بل هى القاعدة الأساسية لنظام الكون الكبير فجوهر الأخلاق فى الاسلام ثابت غير قابل للخضوع لأى عامل إقتصادى أو اجتماعى أو سياسى.

« وكل عقيدة لا ترتفع بمفهومها الأخلاقى إلى المستوى الكونى تسقط وتنهار وتعجز عن أن تتولد حضارة تقترب بالإنسان إلى جوهر الوجود الكون[1] .

« إن الانسان لا يستطيع إلا عن طريق الأخلاق والأخلاق وحدها أن ينفذ إلى الايمان بالله، وبالأحرى أن يربط وجوده بوجود الكون، ويوفق بين سلوكه ونظام الكون. ولذلك فان كل عقيدة أصيلة ثابتة الجوهر لا يمكن أن تنافى الدين أو تتعارض معه أو تنبذ الايمان بالله.

* * *

وقد صور الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى الأخلاق الاسلامية فقال: إنها أخلاق تقوى بكل ما تحمل التقوى من معان سلبية وايجابية : أى تجنب الحرام والاقبال على الحلال: والإيثار والتقوى هما لحمة الأخلاق الاسلامية وسداها وأن هذا شىء لم يفطن له الذين ألفوا فى الأخلاق الاسلامية، ووازنوا بينها وبين الأخلاق اليونانية أو الأخلاق المسيحية وكلاهما يختلف إختلافا أساسيا عن الأخلاق الاسلامية.

ذلك أن الأساس الذى تعتمد عليه الأخلاق الأفلاطونية مختلف عن

---

(١) أحمد المدنسافى.

أساس الأخلاق الاسلامية. فالأخلاق الاسلامية ليست أخلاق سعادة وهى بغية اليونانية ولكنها أخلاق تقوى لأنها أخلاق دينية .

إن المصدر الأساسى للأخلاق الاسلامية هو القرآن والتطبيق العملى هو حياة الرسول .

وأخلاق القرآن أخلاق اجتماعية لا أخلاق فردية والقرآن ينظر إلى الفرد فى ضوء مصلحة المجتمع فاذا تضاربت المصلحتان يؤثر الفرد مصلحة المجتمع ويضحى بنفسه فى سبيله وأخلاق القرآن أخلاق تقوى .

ويختلف مفهوم الاسلام عن الزهد : ذلك لأن الاسلام لم ينه عن الدنيا ولم يطالب الناس بالابتعاد عنها والزهد فيها ولم يحرم زينة الله .

وليس معنى ضوابط الاسلام الأخلاق أن نفسرها فى إطارات ضيقة تجعلها جامدة تحول دون الحركة أو العمل «بل رحبة متسعة حتى تضمن الحرية الشخصية وتحقيق الجهود الفردية التى لو انمحت لصارت حياة الأمم متماثلة جامدة لا روح فيها ولا حياة » .

« والقواعد الأخلاقية الاسلامية تقيم حواجز متينة ضد الفوضى والظلم والشر عامة ، وتبقى مرنة لكى تترك للأجيال المتعاقبة إختيار الصور التى توفق فيها بين المثل القرآنية الحازمة التى لا تقبل التزلزل ، والحالات التى تقدمها الحياة عن طريق التجارب المتوالية ، والأحداث الزمنية المتعاقبة لكى تسمح للأمم بتحقيق تطوراتها من أساليب التقدم على أتم ما تكون الحرية الفكرية، والتعبير عنها بالعبارات التى لا تلائمها دون إهمال أى جانب من جوانب المبادىء الاسلامية » .

---

(١) دكتور محمد غلاب

وتقوم الأخلاق فى الاسلام على أساس « الالتزام الخلق » :

والالزام هو معقد بالمسئولية التى تتمثل فى الحساب والجزاء فى الحياة الآخرة ، فاسقاط الالزام الخلقى انما يرتبط أساسا بالدعوة المادية التى تنكر البعث والجزاء والتى ترى أن الحياة الدنيا هى نهاية كل حى .

ولذلك فان الدعاة إلى وحدة الوجود أوالحلول أو الاتحاد أومن ينكرون الغيبيات وأهمها اليوم الآخر ، إنما يحاولون هدم القاعدة الاخلاقية الاساسية وهى المسئولية المترتبة على الالتزام الخلق فى الحياة الدنيا .

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز: «الالزام هو العنصر الاساسى أوالمحور الذى تدور حوله المشكلة الأخلاقية. وزوال فكرة الإلزام يقضى على جوهر الحكمة العملية التى تهدف الأخلاق إلى تحقيقها ، فاذا عدم الالزام عدمت المسئولية وإذا عدمت المسئولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه وإقامة أسس العدالة .

« والخير الاخلاقى يتصف بتلك السلطة الملزمة التى يتقيد بها الجميع وبتلك الضرورة التى يشعر بها المرء من وجوب تنفيذ أوامر محددة »[١] .

* * *

(٤)

ويقرر القرآن الالتزام الخلق إنطلاقا من قاعدة ثابتة :

إن النفس الانسانية ليست شريرة فى أصلها وإن هناك قوى ومواهب إذا استخدمها الانسان وضعته فى مجال التزكية والكمال .

---

(١) أخلاق القرآن رسالة دكتوراه بالفرنسية عام ١٩٣٦
Lo Morale du Koran

(قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)

وإن النفس الإنسانية قد عرفت فى تكوينها الأول معنى الخير والشر :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » .

وإذا كانت الطبيعة الإنسانية قد تندفع نحو الشر فإن الإنسان قادر من خلال الإيمـــان والتقوى والتطلع إلى رضاء الله وإلى كمال الشخصية أن يكبح جماح شهواته. وهناك نداء فى أعماق النفس ينهى ويأمر ، وقوة كامنة هى بمثابة قوة كاشفة .

والقرآن يدعونا إلى أن نزن الأمور بميزانها الصحيح قبل أن نحكم على قيمتها ومن خير هذه القوى : قوة الأسوة الحسنة الممثلة فى الرسول صلى الله عليه وسلم « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وقد أقر الإسلام فى هـذا طابع المجاهدة : والنفس اللوامة ، وفتح باب المغفرة للخطأ ، ودعا إلى التيسير فى الأمر فأذن للنفس بقدر طاقتها ، ولم يكلفها إلا وسعها ، وقبل منها الخطأ والاضطرار ، الخطأ دون أن يكون متعمداً والاضطرار إذا لم يكن منه بد .

* * *

ويرى الدكتور دزار أنه إذا كان القانون الأخلاقى عاماً تعين أن تكون قواعد السلوك التى يفرضها علينا ثابتة لا تتغير .

والالتزام الأخلاقى فى الإسلام يقوم على مراعاة حقيقة هامة تختلف عن نظريات الفلاسفة فى بناء قواعـد الأخلاق التى يقيمونها على مبدأ وحيد هو السعادة (اللذة) أو العقل . بينما لا يتحقق للأخلاق إيجابيتها إلا أن تقوم على

التوفيق بين مثال أعلى يأتينا من مصدر علوى ، وبين الحقيقة الواقعية التى يعيشها الناس ، أى بين المثالى والواقعى ، وبين المطلق والنسبى بحيث يتحقق للفعل الأخلاقى الثبات الذى يميز كل قانون عام ، والتنوع الذى يلائم ظروف الحياة ويشعر الإنسان بذاتيته وبحريته فى التصرف .

والالتزام الخلقى فى القرآن يقوم على مراعاة هذه الحقيقة المزدوجة[١] . فالقرآن يقرر : « فاتقوا الله ما استطعتم » .

أى اعملوا ما يتراءى لكم إنه الأحسن بحسب وحى الساعة .

« ليس فى الصيغة صفة الأمر الصارم الذى لا يقبل استثناءاً ولا تعديلا ، فلا يحدد تحديداً صارماً ولا يترك الحبل على الغارب » ومع ذلك فقد جمعت بين الاتجاهين .

« من هذه الكلمات الموجزة يدعونا القرآن إلى توجيه أنظارنا نحو الله وأن نطيع أوامره وأن نعمل مافى وسعنا للتوفيق بين أوامر الله ومقتضيات الحقيقة الواقعة . ومن ذلك سيحقق : (١) اتصال الحلقات . (٢) تحقيق الارتفاع نحو المثال الأعلى مع مراعاة ماتقتضيه الطبيعة الإنسانية . (٣) تحقق الخضوع للقانون وحرية الإرادة .

« إن ضمير المؤمن لا يسمح له بأن يقوم بأفعال غير مشروعة إلا إذا كان أمام ضرورة لا محيص عنها ، وفى هذه الحال لا يؤاخذ بما فعل ، كما أن الله يصفح عنه إذا أخطأ عن غير عمد .

« وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » « هناك أشياء لم تفصل تفصيلا واضحاً وفى هذه الحالة قد نخطىء فى تفسيرها أو تعريفها .

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز : أخلاق القرآن .

« وهذا الاحتمال هو نتيجة طبيعية لانسانيتنا ولحرية الاختيار والتصرف التى منحناها ، وواجب المؤمن هو أن يحاول فى حال الشك أن يتبين بإخلاص ما يتق من أوامر الله ، فإذا أخطأ بعد ذلك فهو ليس بمذنب ما دام قد بذل الجهد الضرورى الذى وسعه . « على أن الأمور إذا اشتبهت علينا فمن الخير أن نتق الشبهات .

« ولما سئل الرسول عن تعريف الخير والشر قال : استفت قلبك واستفت نفسك : البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك .

« هـذا هو موقف القرآن من الالتزام الخلقى : دعوة إلى اتباع القواعد العامة التى أمر الله بها مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء فى نطاق التفاصيل التي تعرض لنا تبعاً لتغير ظروف الحياة .

« فلا يدعى القانون الأخلاقى فى القرآن أن هناك طريقة واحدة لفهم القاعدة ، وأن هناك طريقة واحدة لتطبيقها وأن هناك طريقة واحدة للتوفيق بينهما وبين القواعد الأخرى ، فالقاعدة مهما بلغت من الدقة والإحكام تترك أحياناً بعض التفاصيل دون تحديد وهنا يظهر مجال الاجتهاد الشخصى والتفكير المستقل الحر والاعتماد على ملكة العقل التى أودعها الله الناس » .

« فالمجهود الفردى واجب فى نطاق الأخلاق وهو مجهود يحبذه القرآن ويدعو إليه .

« والخلاصة أن القواعد العامة للأخلاق ليست من صنعنا ، بل ، أننا قد تلقيناها من المشرع الأسمى ونستطيع أن نستنبطها من كتابه العزيز وسنة رسوله . أما الواجبات الخاصة فاننا نكيفها تبعاً لظروف حياتنا على شرط ألا نخرج بها عما رسمه لنا المثال الأعلى وأن نبذل فيها الجهد لنتبين وجه الحق » .

ويعرض الدكتور دراز لرأى المدرسة الاجتماعية التى تقول بأن الإنسان الذى يعيش فى مجتمع معين لابد أن يعكس المبادىء الأخلاقية والعادات السائدة فى مجتمعه وأن الإنسان يحكم على الأفعال والتصرفات لا من خلال ضميره فحسب بل من خلال ضمير المجتمع .

ويجيب بأن سمة الأخلاق فى الإسلام : « ثبات الأخلاق » القائم الأزلى على الخير والشر ، والعمل الطيب والعمل الخبيث .

الفصل الثالث

الفلسفة الاجتماعية

إذا كان (فرويد) قد تخصص فى إعلاء الجنس، (ليفى بريل) فى معارضة ثبات الأخلاق [وكلاهما من عشيرة اليهودية التلمودية] فان ثالثاً منهم هو (دوركايم) قد تخصص فى إنكار نظرية الأسرة والزواج والدين والقول بأنها ـ أى الثلاثة ـ دخيلة على فطرة الإنسان.

* * *

إن الفلسفة اليهودية التلمودية تعرض الشىء وضده : العنصرية والعالمية، تفسير التاريخ تفسيراً مادياً وتفسيره عن طريق علم النفس، وتفسره عن طريق العقل الجمعى مضاداً للتفسير النفسى. وذلك من أجل إيجاد بلبلة وصراع ومن أجل تقسيم الناس إلى معسكرات تتضارب وتتعادى، حول أشياء خارجة عن الفطرة والعلم والعقل، وذاهبة فى ضباب الفلسفة والصياغة العلمية البراقة!

فهذا يهدم الدين وهذا يهدم الأخلاق وهذا يهدم الأسرة وهو تطبيق صريح لما جاء فى البروتوكولات : « لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشة بالترويج لآرائهم. وأن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح بكل تأكيد »، وإذا كان ماركس قد رد كل شىء إلى الاقتصاد والإنتاج وجعل الفكر والثقافة والأخلاق انعكاساً لهما، وجعل أسلوب الإنتاج فى الحياة المادية هو الذى يحدد صورة الاجتماع، فان المدرسة الاجتماعية ترد كل شىء إلى المجتمع. وتلغى أثر الفرد إلغاءاً كاملا.

ومن ثم فإن دوركايم تأسيساً على ماركس وتكميلا لليفى بريل (أحدهما للآخر) يحاول فى منهجه الاجتماعى أن يطرح ثلاث فرضيات لنظريته :

الأولى : أن الدين ليس فطرياً .

الثانية : أن الزواج والأسرة ليسا فطريين .

الثالثة : أن القواعد الخلقية لا وجود لها فى ذاتها ولا هى ثابتة على وضع معين فإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذى توجد منه .

ذلك : أن المجتمع هو الأصل فى كل الظواهر وليس الإنسان ويتلخص ما يذهب إليه إلى : أن بعض العلماء يقول بوجود عاطفة دينيـة فطرية لدى الإنسان وأنه مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء وغير ذلك من العواطف . وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو .

« ولكن : التاريخ يوقفنا على إن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان (ص ١٧٣ — قواعد المنهج فى علم الاجتماع) .

« ومن هنا [يرتب دوركايم] : بأن مجموعة القواعد الخلقية (التى لا وجود لها فى ذاتها) ليس من الممكن أن تصبح موضوعاً لعلم الأخلاق وهو يذهب فى هذا إلى نقطة التناقض مع ما تقول به الأديان والمناهج العلمية الأصيلة التى تقررت فى البشرية منذ قرون طويلة : فهو ينكر أن الكيان النفسى للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية ويحاول أن يفرض أن العكس هو الصواب وأن الحياة الاجتماعية هى التى تشكل مشاعر الفرد ، ويدعو إلى التفرقة بين الظاهرة النفسية والظاهرة الاجتماعية تفريقاً كاملا : على أساس ألا تفسر الحياة من نفسية الفرد . وهذه محاولة لإرساء قاعدة تتعارض مع الفطرة البشرية ولا يجد دوركايم

لها من سناد علمى أو عقلى إلا عبارته العابرة «التاريخ»، والتاريخ مادة يمكن أن يأخذ منها كل باحث ما يراه مناسبا لوجهة نظره ويحجب الباقى .

(٢)

ويرد الباحثون المدرسة الاجتماعية إلى (كانت) الذى حاول: استفاداً إلى خصومته للكنيسة الكاثوليكية أن يوجد «أخلاقاً وضعية» «بعيدة عن كل فكرة دينية أو لاهوتيه، خالصة من كل مصدر ميتافيزيقى» وجاء (اميل دوركيم) متابعاً له، فى كتابه عن التربية الأخلاقية حيث أعلن الاستقلال الكامل والفصل التام للأخلاق عند الدين، وذهب إلى ضرورة التأكيد على أن تكون التربية الأخلاقية ذات صيغة دنيوية محضة لا تستند إلى الديانات المنزلة . وبذلك رفضت المدرسة الاجتماعية: الأخلاق المطلقة . ونادت بأخلاق وضعية ونسبية ثم خطا أنصار الفلسفة المادية عامة خطوة حاسمة بعد ذلك عندما أعلنوا: بأنه لا حاجة للناس إلى الدين أو إلى الأخلاق .

(٣)

واجهت فكرة إحلال علم النفس بديلا لفلسفة الأخلاق معارضة من كثير من الباحثين فقد[١] «كانت فلسفة الأخلاق تؤمن بأن لكل فكرة مسيراً تتجه فلا ينتهى عند مجرد التفكير وإنما يمتد إلى العمل والتنفيذ، فالفكرة لها شطران من تعقل وسلوك . ولا يكون لها أثر خلقى حتى ينقلب إلى هذا السلوك . ولكن علم النفس حل فى تاريخ الفكر الحديث محل علم الأخلاق فباعد بين شطرى الفكرة وعالج الإحساس الضئيل مجرداً عن العمل وباين بين العقيدة والسلوك» . وقال الباحثون: إن علم النفس الحديث وضع الإنسان موضع الجبرية أمام جملة من العوامل . ودعا إلى الشك فى العقيدة فلم يعد لها نفس

---

(١) دكتور أحمد شاكر .

السلطان الذى كان فيما مضى . كذلك فإن العلمـــاء يرون : « إن علم النفس لا يستطيع أن يخلق (مثلا أعلى) لأنه غير قادر على تثبيت قيم الأشياء ، ذلك لأنه علم وصفى يسير فى نطاق ضيق من التجارب التى تختلف على عقل الإنسان وحسه » « ولأنه علم تجريبى فقد عالج حالات (شاذة او غير شاذة) من غير أن يقيم معايير يستطيع المرأ أن يتخذها لنفسه غاية أو سبيلا . «فحينما طغى علم النفس على فلسفة الأخلاق فقد العالم كثيراً من الغايات الفلسفية التى كان قد استقر على الإيمان بها » واستشرف قادة الفكر لحالة من الشك طافت بنفوسهم حتى أصبحوا يشكون فى مبلغ عقائدهم هم أنفسهم » ، فقد أصبح الفرد يرى نفسه غير مستقل لأنه يتخذ من وجوده فى الجماعة ذريعة للتزكية والتبرؤ» «وكان حقيقا بكل ذلك أن يدفع بالعالم إلى الشك ، وأن يزعزع إيمان الناس فى سمو المثل الأعلى . « ولم ينفرد علم النفس بين العلوم فى إنتاج هذا الجو المتشكك الذى يكاد يعصف بالفكر الحديث فالتاريخ وعلم الأجتماع كلاهما يعاونه فى ذلك « لقد تنكر التاريخ العلمى لفلسفة الخلق وجافا فكرة السلوك وازورعن تقدير الفرد وحاول أن يقيم قواعد تستمد سلطانها من الجماعة» ، وقل منذ ذلك فى علم الاجتماع الذى ينكر مسئولية الفرد ويلاشيها فى الإرادة العامة والتى تخلو من أصول خلقية » ، والحق أن علم النفس والتاريخ والأجتماع كل أولئك علوم تجريبية لا خير فيها إذا حاولنا أن نقيم منها « مثلا أعلى » فهى لن تزيد أيماننا على سمو الفكرة ولا عقيدتنا فى سيطرة العقل على العمل .

وكلما أمعنا فى دراستنا زادتنا شكاً فى أصول الخلق وفى فلسفة الحيـاة فهى تعالج « ظواهر نفسية واجتماعية واقتصادية » ، ولكنها لا تأتى بجديد فى « قيم الأشياء » ولا تخلق ميزاناً عادلا لحقائق الخلق .

وهى لا تمحضنا الإيمان فى فكرة من الأفكار .

« لقد أنكر العلماء قوة الخلق فى الفرد وقوة الخلق فى الجماعة » .

(٢)
فلسفة المرأة فى الفكر الغربى

ما هو مفهوم المرأة فى الفكر الغربى . هذا المفهوم الذى قام عليه تعليمها وعملها وحركتها داخل المجتمع والحضارة بما أطلق عليه « تحرير المرأة » .

إن هذا المفهوم يظهر بوضوح فى التفسير النفسى والاجتماعى الذى تشكله المذاهب والفلسفات المعاصرة وهو يتقرر على أسس ثلاث :

(أولا) إن الأسرة ليست هى مفهوم الفطرة ، ولكن الاتصال الحربين الرجل والمرأة هو الفطرة .

(ثانياً) إن إطلاق حريات المرأة هو الطريق الصحيح لحركتها فى المجتمع

(ثالثاً) إن عمل المرأة هو العامل الأكبر فى قدرتها على امتلاك إرادتها إزاء الرجل .

(رابعاً) إن المرأة على قدم المساواة مع الرجل فى كل الخصائص ولكن السر فى ضعفها هو الحيلولة بينها فى العصور الماضية وبين ممارسة حرياتها .

(خامساً) إن من حق المرأة أن تباشر رغبتها دون حاجة إلى الزواج أو الولادة فإن هناك من وسائل الطب ما يمنع الحمل .

(سادساً) المرأة بهجة المجتمع ، ولا يتشكل المجتمع إلا باشتراكها فيه ولا تولد القصة إلا بتحرر المرأة حيث تولد القضايا والمآسى والأزمات والأحداث .

(سابعاً) إنكار الدعوة ذات النبرة العالية إلى العفاف والبكارة وقيود البيت وإفساد الحمل والولادة لجسد المرأة .

(ثامناً) عدم التفريق بين امرأة المجتمع وبين الغانية والراقصة ، وجعل الأخيرة نموذجاً للأزياء الحديثة وأدوات الزينة تقلدة امرأة المجتمع .

(تاسعاً) إعلاء شأن العقود المدنية فى الزواج وظهور نظريات الترابط بين الرجل والمرأة بدون عقد مكتوب .

(عاشراً) ظهور عيادات الأطباء التى تعلن عن إجراء عمليات الإجهاض .

(حادى عشر) ظهور أندية العراة ، ومشاركة الرجال والنساء فى أحواض السباحة وظهور مخالطات شواطىء البحار ومسابقات جمال السيقان والقدود .

(ثانى عشر) استشراء أدب الجنس والأدب المكشوف وقصص الإباحة باعتبارها ظاهرة طبيعية فى المجتمع .

(ثالث عشر) ظهور حق المرأة المستقلة اقتصادياً فى حق التحرر واختيار الزوج .

(رابع عشر) الدعوة إلى إجراء تجارب اختيار الزوج قبل الزواج ويتعلق تمام الزواج بنجاح التجربة .

(خامس عشر) ظهور الدعوة إلى حق المرأة فى الإثراء عن طريق التماس الرجل الباحث عن متاع الجسد .

(سادس عشر) ظهور الدعوة إلى ما يدعى صديق العائلة ، والقول بأن طوال فترة الحياة الزوجية تبعث على الملل وتدعو إلى المبادلات بين زوجات الرجال والتنويع وظهور نظرية الخليلة إلى جوار الحليلة .

(سابع عشر) إباحة الدور الخاصة لأداء الرغبة الجنسية وحمايتها ووضعها في إطار القانون والعرف الاجتماعي .

(٢)

لاريب أن هـذه المفاهم والأسس التى تقوم عليها فلسفة المرأة فى الفكر الغربى تعطى صورة لأخطر تمويه يستهدف تدمير الأسرة وإستعباد المرأة تحت اسم تحرير المرأة . وتتكشف أهداف هذه الدعوة على أيدى الفلسفات الحديثة التى بدأت من خلال عصر التنوير وفى ظلال الفلسفة الماسونية ومن خلال مقررات النظرية المادية أصلا .

فإن هذه العلاقة الجديدة المقامة بين الرجل والمرأة هى على حساب كرامة المرأة وعفافها وعلى حساب الأسرة والبيت والأجيال القادمة . لقد كانت النظريات التى قدمها ماركس وفرويد و دوركايم وليفى بريل هى الإطار التى شكل هذه المفاهيم ، ذلك أن محاولة تصوير الفرد البشرى بصورة الحيوان والقول بأن دوافعه الأولى هى الجنس على النحو الذى طرحه فرويد كانت عاملا خطيراً فى فلسفة المرأة التى صورتها مذاهب الفكر الغربى ونظرياته الاجتماعية المطروحة من خلال التحليل النفسى والوجودية والهليلية . انها ليست المرأة التى كرمتها الأديان وأعلى شأنها الفكر الإنسانى بل هى الأداة المبذولة على نحو ما فى إطار براق من الوهم والمادة وبريق الذهب وتحت اسم الحرية التى لا حدود لها .

ومن هنا استطاعت هذه الفلسفة خلق عقلية جديدة للمرأة ، تصورها بصورة القادر على الحياة فى المجتمع متحررة من سلطة الأب والأسرة والزوج أيضاً ومن حيث هى قادرة على الإنفاق مادياً على نفسها ومن حيث أنها تجد مواردها التى تعيش بها فان من حقها أن تختار الأسلوب الذى ترضاه والطريق الذى تقرره لسلوكها الاجتماعى وعلاقاتها بالرجل فى الحياة الاجتماعية ، سواء داخل الأسرة أو خارجها كذلك فان اختيار موانع الحمل وأدوات الأجهاض قد كفلت تأمين الطريق أمام كل الرغبات ومن ثم أصبحت الفتاة قبل الزواج أو بعده قادرة على ممارسة كل رغباتها فى ظل مناعة طبية مقررة مشروعة تعيد

دم البكارة الأحمر إلى مكانه وتحول فى نفس الوقت دون حدوث الحمل أو إزالته .

وفى هذا الاطلاق ما فيه من آثار لها نتائجها فى صرف الرجل عن الزواج أو تراخيه فى تكوين الأسرة أو استمرارها بعد تكوينها .

ويقرر ول ديورانت مدى الآثار المترتبـــة على هذا الإتجاه الخطير فيقول :

« نحن غارقون فى تيار من التغيير سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا فى إجتيازها ، وأى شىء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم ، فالآن وقد أخذ البيت فى مدننا الكبرى فى الاختفاء فقد فقد الزواج القاصر (المقصور) على واحدة جاذبيته الهامة ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر ، حيث لا يكون النسل مقصوراً وسيزداد الزواج الحر ، مباحاً أم غير مباح ، ومع أن حريتها إلى جانب الرجل أميل ؛ فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شراً من عزلة عقيمة تقضيها فى أيام لا ينازلها أحد ، سينهار المستوى المزدوج ، وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شىء على التجربة قبل الزواج ، سينمو الطلاق وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى صور جديدة أكثر سماحة ، وعند ما يتم تصنع المرأة ويصبح ضبط الحمل سراً شائعاً فى كل طبقة يضحى الحمل أمراً عارضاً فى حياة المرأة » .

* * *

وهكذا يكشف واحد منهم (تلاميذ اليهودية التلمودية) الأهداف والغايات

---

(١) كتاب مباهج الفلسفة - لول ديورانت .

وبتصور المستقبل الذى يتطلعون إليه بنتيجة هذه التجربة كلها فهو ينبىء وكلهم متنبئون بما سيقع بعد أن خرجت المرأة عن منطلق الفطرة وأسلوب الفكر الإنسانى الذى رسمته لها الأديان المنزلة ووصفه الإسلام فى أرقى الصور وأعلاها قـــدراً للمرأة حماية لها من أن تكون سلعة أو أداة أو وسيلة من وسائل بناء « امبراطورية الربا » .

(٣)

أن أى مراجعة صحيحة لهذه المقررات تكشف بوضوح عن أنها تتخطى الحقائق العامة وتحاول أن تفرض مفهوماً مخالفاً كل المخالفة للفطرة والحق .

وأن الفكر الغربى حين أراد أن يتحرر من آثار المفاهيم التى كانت مفروضة عليه فى ظل المسيحية والكنيسة قد تجاوز ذلك كله تجاوزاً كبيراً وذهب من النقيض إلى النقيض وعجز عن أن يوجد ذلك التوازن : ذلك كله أن المسيحية كانت تحمل بذور المعادلة الصعبة التى فرضتها اليهودية التلمودية بالإتجاه المادى البالغ الخطر الذى تردت فيه البشرية من قبلها فجاءت تدعو إلى الأخلاق وإلى تطهير النفس من الفساد فى مواجهة الإنحلال والابتذال والفساد الذى كان مفروضاً على المجتمع الرومانى .

غير أن هذه المفاهيم لم تلبث أن خرجت عن أصولها فأصبحت رهبانية وتقييداً للطلاق ، ودعوة إلى الزهد وكبح الجسد ، ولعنة المرأة .

وبعد أن كانت المرأة فى الدولة الرومانية تبدل أزواج ثمان فى خمس سنوات فتحت أبواب الأديرة لعديد من النساء الذين آثرن الرهبانية . وانتقل الأمر من النقيض إلى النقيض من تهالك على الشهوات إلى احتقار للزواج وانصراف عنه وامتهان للمرأة وإنتقاص لها فى حقوقها الطبيعية وما تملك .

ثم جاء الإسلام بمفهومه الصحيح الواضح ، فانتقل إلى الغرب ضياء بدأ

بخروج الحياة الاجتماعية والزوجية من قيودها غير أن بعض القوى التى تملك التغيير لم يلبث أن تجاوزت بها تجاوزاً خطيراً إلى ما وصلت إليه فلسفة المرأة من إلغاء الأسرة وإنكارطابعها الفطرى وإباحة الاجهاض وإخراج الزواج من وظيفته الأساسية إلى نوع من المتعة التى لا تقيدها قيود .

ودعت بعض المذاهب إلى هدم الأسرة ، وأعلنت أن نظام الأسرة نظام ارتبط بالاقطاع والنفوذ الرأسمالى وجاءت اليهودية التلمودية فقررت مساواة المرأة بالرجل ، وعملت إلى إخراج المرأة إلى العمل وإلى الحياة الاجتماعية وإلى مؤسسات المسرح والسينما والأزياء وغيرها أما الإسلام فقد وضع المرأة فى مكانها الصحيح ، وقسم العمل بين الرجل والمرأة ، ولم يفرق بينهما فى الخطاب والتبعة ، وخول للمرأة حق التعامل والولاية على أطفالها ومنها ضمان الرجل لمعيشة المرأة .

وجعل للرجل القوامه على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فحيث سوى بين الرجل والمرأة ، قضى للرجل ببعض الزيادة .

[ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة] .

« هذه الزيادة مستمدة من التفوق الطبيعى فى إستعداد الرجل ومن قيامه بأعباء المجتمع وتكاليف الحياة .

« ولقد أباح الاسلام تعدد الزوجات مع اشتراط العدل بينهن ، ورجح الاكتفاء بالزوجة الواحدة تعذر العدل بين الزوجات المتعددات [ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم] وقد كان تعدد الزوجات لا حد له قبل الإسلام فحدده الاسلام ووضع قاعدة تجعله مستحيلا ، وارتفع الاسلام بالزواج من عقد التجارة أو متعة الجسد إلى أواصر المودة والرحمة .

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) .

وأوجب الاسلام العلم على الرجل والمرأة :

ووضع حدوداً لما يكشف من جسد المرأة كالوجه والكفين .

ودعا إلى « حماية المرأة والبيت من طغيان الشهوات » ، « وضمن الاسلام للمرأة حقوق المعاملة ، وضمن لها حقوق المعيشة بكفالة الآباء والأبناء والزواج وجعل الدرجة التى للرجل على النساء منوطة بزيادة التبعة وزيادة التكاليف » « وسن الاسلام للزواج والطلاق وحقوق المرأة أحكاماً واضحة فى جانب التشريع ، كما سن أحكاماً واضحة فى جانب الأخلاق » .

وهكذا تبدو مفاهيم الاسلام للمرأة فى مجال تحريرها الحقيقى ، ورفع شأنها وتكريمها بوصفها فى مكانها الأصيل : من إقامة الأسرة وحماية البيت وتربية الأجيال .

وحال بينها وبين محاولة إخراجها عن رسالتها أو إنزالها عن مكانتها العالية أو دفعها إلى المجال المحظور لتكون سلعة أو أداة أو كوسيلة من وسائل الشهوات .

ولقد حاولت الفلسفة المادية النيل من نظام الأسرة ووصفه بأنه معارض للفطرة عملا للتخلص منه وجريا فى طريق تدمير هذه القيم ، ولكن الأسرة كانت ومازالت وستظل أساسا متينا فى النظام البشرى فى تقدير جميع علماء الاجماع ومن وظائفها استمرار النوع والمحافظة عليه .

---

(١) النصوص التى بين الأقواس من دراسة للأستاذ عباس محمود العقاد .

ولقد يبدو من محاولة الأغضاء عن الفوارق الطبيعية عن الرجل والمرأة ، بل الإمعان فى القول بعدم وجود هذه الفوارق، الهدف الواضح الذى يفرضه تقسيم العمل بين الرجل والمرأة ، ذلك أن إختلاف الجنسين يلزمه إختلاف فى الوظيفة .

ولا ريب إن إخراج المرأة من دورها الطبيعى إنما هو محاولة جادة للقضاء على الأجيال الجديدة وتدميرها بحيث لا تصبح قادرة على أداء دورها فى الحياة

ويؤكد المؤرخون والباحثون على تلاشى أعظم المدنيات إنما جاء نتيجة هذا الإنحراف فى فهم وظيفة المرأة وإخراجها من طبيعتها ، وقد حدث هذا بإرادة جماعة من الناس كان همهم إستغلال المرأة ماديا وجسديا .

ويقرر الباحثون أن المدينة الرومانية التى ورثت المدنيات العالمية التى تقدمتها قد سقطت نتيجة لهذا الانحراف . « فقد وصلت إلى أوجها الأعلى ونساؤها محجبات وأعراضهن مصونة ، فلما أنس أهلها أنهم إنفردوا بالسيادة على الأرض ، مالت نفوسهم إلى الترف فاخرجوا النساء من خدورهن معارضين مع ذلك نصائح حكمائهم، فوقعوا فى الإباحة، فأثروا الشهوات والملاذ على كل شيء فضاعت فيهم الفضائل التى أنالتهم المكانة التى حصلوا عليها فأخذوا يتدهورون حتى لم يبق فيهم جلد على تحمل أعباء الحياة وقد أفرد العلماء لبيان سقوطهم المؤلفات .

قال العلامة (لويز برول) . م « مجـــلة المجلات الفرنسية تحت عنوان : الفساد السياسى : « ان فساد الأسس السياسة وجد فى كل زمان ومن الغريب المدهش أن مظاهره فى الزمن السابق مشابهة تماما لمظاهره فى الزمن الحاضر بمعنى أن المرأة كانت العامل الأقوى فى هدم الأخلاق الفاضلة .

« وقد كان الرجال السياسيون فى آخر عهد الجمهورية الرومانية يعيشون

بصحبة النسوة ذات الطبائع الخفيفة اللاتى كان عددهن بالغاً حد الكثرة فصارت الحال اليوم كما كان فى ذلك العهد،فنرى النساء اندفعن فى تيار الافراط البالغ حد الجنون وراء التبرج واللذات . وتشير دائرة معارف لاروس إلى هذا المعنى فتقول تحت اسم « امرأة » .

لم يسد هذا الحب الجنونى للترف النسوى الا فى عهد الامبراطورية الرومانية ، أما فى الأيام الاولى للجمهورية (أى فى أيام عظمة الرومانيين) فقد كانت المرأة ملازمة بيتها تغزل الصوف ولكن البذخ تسرب الى روما يسيراً يسيراً حتى قام (كاتون) ينذر قومه بالخطر المحدق الذى سيلقهم كل شىء .

وبعد ذلك بقليل لم يقف البذخ والترف عند حد » .

وقد أشار الباحثون إلى أن ما يستهدفه إخراج المرأة من فطرتها وطبيعتها ورسالتها إنما يستهدف هدم الأسرة وهو هدف أصيل من أكبر أهداف اليهودية التلمودية فى طريق تنفيذ مقررات بروتوكولات صهيون .

وقد حقق هذا التحول نتائج هامة(أوردها العلامة فريد وجدي) وادى إلى نشوء سبع علل اجتماعية :

(أولا) هدم التوازن الاقتصادى والانتهاء إلى أزمة شديدة الخطر تدفع الجياع لقبول المذاهب المتطرفة .

(ثانياً) هدم الحياة البيتية وإفساد العلاقات الزوجية .

(ثالثاً) إنتشار العزوبة بسبب فساد العلاقات الزوجية .

---

(١) العلامة محمد فريد وجدى .

(رابعاً) ذيوع آفة البغاء بين الجنس وتطرف النساء فى التهتك والتبرج .

(خامساً) إهمال تربية الأبناء .

(سادساً) وقوع الجلس النسوى فى الفاقة (حين لايجدن العمل الخارجى ولا يمكن العودة إلى النظام البيتى) .

(سابعاً) إغراق النساء فى عرض أنفسهن الى حدافساد الأخلاق واشاعة الفحشاء .

ولقد أشار اليكسس كاريل فى كتابه (الانسان ذلك المجهول) — وهو العالم البيولوجى المتحرر من نظريات الفلسفة — الى الاختلافات الطبيعية بين الرجل والمرأة فقال :

إن هذه الاختلافات لا تأتى فى الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، من وجود الرحم أو الحمل أو من طريقة التعليم ، اذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك ، أنها تنشأ من تكون الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة الى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً وأن يمنحا سلطات واحدة ومسئوليات متشابهة والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها وفوق كل شى بالنسبة لجهازها العصبى فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبى فليس فى الامكان احلال الرغبات الانسانية محلها .

ومن ثم فنحن مضطرون الى قبولها كما هى فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور فإن دورهن فى تقدم

الحضارة أسمى من دور الرجال فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة » .

وهذه هى شهادة العلم فى مواجهة أخطار الفلسفة البشرية التى لا تستهدف الا اخراج المرأة عن طبيعتها وفطرتها ووظيفتها لدفعها لتكون أداة اغراء وليتحقق بذلك هدم الأسرة وافساد الأجيال القادمة بحرمانها من رعاية الأم الكاملة .

الفصل الرابع

فلسفة الأدب المكشوف

كان لنظرية فرويد فى النفس والجنس أثرها البعيد فى الآداب والفنون ، ولم يكن الأدب المكشوف قبل ذلك غريباً على الفكر الغربى الذى يدين بجذور قديمة تمتد إلى الفلسفة اليونانية والأدب الأغريق .

غير أنه يمكن القول أن العصور الحديثة أعطت للأدب المكشوف طابعا جديداً أشد عمقاً وأكثر شمولا . فقد اعتبرت نظرية فرويد فى إعلاء الجنس أساساً لكل تصرفات إبطال القصة ، واتخذت فروع النظرية صورة الحوار على نحو أريد أن تثبت هذه الآراء فى الأذهان وتصبح حقائق واقعة .

ومن ثم فقد اتخذت النظرية ذات الطابع العلمى مجالا لها فى عالم الأدب والفن كمرحلة على طريق التطبيق العلمى الذى عرفته دعوتى الوجودية والهلينية .

وقد ظهر فى الأدب الأوربى على طريق الجنس : لورنس وهافلوك اليس ثم تتابع كتاب الجنس من شعراء وقصاصون وتقوم كتاباتهم على أساس فلسفة الجسم العادى والشهوات ومحاولة تقديس الجنس ومعارضة كلمات العرض والشرف والشمم والأنفة .

وقد قامت هذه الكتابات على أساس فلسفة تقيم الصراع بين العقل والجسم حيث يقول لورنس : أن العقل يحتقر الجسم ويخشاه كما أن الجسم يمقت العقل ويعاونه .

ثم يدعو إلى تحرير الجسم من إرادة العقل (أو الدين) الذى يكبح جماحه أو يطلق له العنان حسبما يشاء .

وهو يشير إلى تجاهل الإنسان حاجات الجسد ويدعو إلى حياة جديدة للإنسان فى الغابات ظنا منه أن الحضارة قد قضت على الفطرة ولاريب أن لورنس كان بطبيعة حياته موصوما منحرفا ، قد عجز عن أن يكون رجلا ومن هنا كانت صرخته ثم جاءت أبواق الدعاية والشهرة فقدمته فى ضجيج عنيف ووضعت كتبه فى أيدى البنات والشباب المراهق على السواء .

حتى تقول أنتونى بيلى : مؤلف كتاب لورنس : أن قصة ليدى تشارلى كتاب ينبغى أن يقدم للبنات فى طور التفتح وينبغى أن يرغمن على قراءته .

والحق أن لورنس كان مضطربا ، وكان عاجزاً عن الرجولة ، وكان السل يغزو صدره بعنف ومن هنا كانت صيحته وكتاباته التى جاءت على طريق فرويد :

طريق تمجيد اللذة الجسدية واتخاذها قاعدة للحياة : بل القاعدة الوحيدة وخطأ لورنس « هو أنه عدها القاعدة الأولى الوحيدة للحياة » بل أن لورنس قد حاول أن يتخذها « دينا » ونصب نفسه لهذا الدين كاهنا ومبشراً ، « وتكلم عن هذا الدين بتعصب الدعاة الأول ، ربما كان هذا التعصب ومداه صادراً عن علة نفسه ، فهى ليست الإغراق فى معرفة اللذة ، وإنما هى الحرمان من معرفة اللذة »

* * *

والحقيقة أن لورنس وغيره إنما ينطلقون من المجتمع الأوربى ، ومن قيود الكنيسة ونظرة الفكر الغربى المسيحى إلى الجسد واللذات وهى نظرة متعسفة تدعو إلى الرفض وتقدم هذا الجانب الطبيعى من الإنسان تقديما خاطئاً . كما كانت الصيحة المضادة لكل ماجاءت به الأديان والاندفاع فى الاتجاه المضاد .

وان هذا أساساً هو مصدر تلك الصيحة العنيفة التى حملها فرويد ولورنس والتى صاحبتها ورافقتها تحديات خاصة استمدت أثرها من الظروف الشخصية لكل من هؤلاء،ويصور هذا المعنى كثير من الباحثين : « أن التعاليم الأخلاقية المسيحية القائمة على بغض الجسد وعلى الغلو فى كبح شهوات البدن الطبيعية لا يمكن أن تؤدى إلا إلى افساد أخلاق الأفراد وتعليمهم النفاق والكذب وإرغامهم على مخادعة المجتمع والظهور بمظهر الفضيلة الزائفة ، بينما يباشرون فى الخفاء أوضع وأحط الشهوات » .

غير أن اضافة هذه النظرة إلى الفلسفة المسيحية - التى لم تكن من حقيقة الدين السماوى - وإنما من إضافات بعض قادته ، لم يكن عاملا فى البحث عن المفهوم الصحيح لعلاقة الإنسان بعواطفه وغرائزه وهى نظرة واجهها الاسلام مواجهة صريحة وحاسمة، ومهد لها الطريق الصحيح للارواء والممارسة دون الوقوع فى خطأ الكبت أو فى خطأ الانحراف ، أما الذين هاجموا النظرة الفلسفية المسيحيةفانهم كانوا إنما يلمسونها ليتخذوها قنطرةومعبرا إلى غاية بعيدة تكمن من وراء الدعوات الهدامة الإباحية التى حملت لواءهـــــا « اليهودية التلمودية » .

ومن هنا كانت تلك الدعوة إلى الحرية فى معالجة الشئون الجنسية ، والدعوة إلى الحرية فى التمتع بالجسم وعبادة الجسد ، وعبادة اللذة وأطلق على ذلك أنه قريب من الفطرة وإن كان هو فى الحق قريب من حياة الغابات وتجديد المفاهيم الهلينية الإعريقة الوثنية المناهضة لطبيعة الإنسان المتوازنة .

ودعوة إلى التحرر من العقل والقيم والأخلاق وقد سارت الدعوة إلى تمجيد الشهوة واللذة والجمال الجسدى إلى غايتها فى شعر بودلير وجان ريشيان ومحاولة دفع هذه المحاولة إلى صورة من صور إعلاء عبادة الجسد فيما يشبه الصوفية الضالة .

(٢)

غير أن هذه الدعوة المتحرفة لم تلق قبولا فى محيطها نفسه ، كما وجدت معارضة فى خارج محيطها ، لأنها تتعارض مع الفطرة والعقل وكل القيم الإنسانية فقد عالج الكاتب الفرنسى رومان رولان نكبة فرنسا فى الحرب العالمية الأخيرة وانتهى فى تحليله إلى نتيجة فلسفية رائعة : هى أن الأمم الضعيفة الأخلاق الماجنة التفكير فى أدبها وخيالها يتسرب إليها الخور والاستسلام تسرب الإنحلال فى الشجرة النخرة فاذا لم تتلاف الأمم هذا الداء الوبيل قضت عليها جرائيمه الفتاكة وعرض (اسين بلا سيوس) فى بحثه عن تاريخ الشعب الفارسى القديم فعزا سقوط الفرس بعد أن دوخوا الأمصار إلى الضعف الخلقى الذى تمشى فى آدابهم وضروب معيشتهم مثبتا صحة رأيه بشواهد عديدة تشير كلها إلى أنواع الدعارة والفحشاء والانحطاط النفسى الذى تمرغوا فى أوحالها فى سبيل ارضاء حواسهم بهدم كل قانون سام ونظام اجتماعى .

وقد كتب السياسى الأشهر مازرايك إلى الوزير الفرنسى (لويس بارتو) (١٩٣١) ينذر بأخطار الأدب الفرنسى المكشوف فى عبادة واضحة الدلالة:

«إن أبطال قصصكم الجديدة عامة تحركهم الشهوات الوضيعة والحب الجنسى الشره ، ويمكنكم أن تتأكدوا أننا قد مللنا بل قد اجتوينا هذا الضرب المأفون من الروايات العاطفية السقيمة التى لا تطالعنا فيها سوى امرأة سليطة يحبها اثنان أو ثلاثة عدا زوجها الصنديد الذى تخدعه بشتى الحيل وهكذا فى دائرة بغير إنتهاء » .

وهكذا نرى أن كتاب الغرب أنفسهم عارضوا هذه النزعة ، على الصورة التى تحركت بها بالرغم من كثير من العوامل التى تحيط بهـا حتى قالت كاتبة أمريكية فى مؤتمر برلين : « إن الأدب الغربى مرآة فى سقف بيت الدعارة » .

ومهما حاول المبررون لهذه النزعة من أن يصوروها بصورة انسانية أو يميزوا

بين أدبين أحدهما زائف يروج للتهتك ويتاجر بالشهوات وآخر يحاول أن يعطوه صفته التعبير والكشف عن المشاعر والميول فإن الأمر كله لا يخرج عن أهدافه المرسومة وغاياته المقصودة ودوافعه الآثمة ، وكلها ترمى إلى ان يجعل هذه الألوان مشروعة وسائدة وهل يمكن أن يوصف الأدب المكشوف فى أى صورة من صوره بأنه متصل بالميول الإنسانية أو الغايات النبيلة، وهل يمكن أن تكون الأقلام الآثمة التى تنطق عن النفوس الفاحشة من أمثال لورنس وهافلوك أليس هل يمكن أن تعرف النبل أو الإنسانية وهى غريقة فى حمأة الإثم والهوى ، مدرعة بمفاهيم فلسفية تبرر بها دعواها وتحاول أن تخدع بها الضعفاء والمرضى .

(٣)

إن قضية الجنس لا تعالج عن طريق الكتابة والأدب ، وإنما تعالج عن طريق المتخصصين من الأطباء والعلماء . وهى من مسائل التناسليات التى يجرى تناولها بأسلوب خاص ، ولا تكون أداة فى يد كل شاعر أو قصاص يحاول أن يصور نذوة طارئة أو حالة خالصة . وأن المسائل الجنسية والتناسليات تتناول أسراراً وتصف كثيراً من حالات الانحطاط والشذوذ وتلك شئون يؤدى انتشارها وذيوعها بين العامة إلى كارثة إجماعية وحقيقية مؤكدة . وعلماء التناسليات يشخصون الداء ويكتمون هذه الصور من وجوه النقص وضروب الشذوذ[1] .

ومن هنا فقد وجه الأطباء والعلماء النظر إلى خطر إلحاح الصحف فى الحديث عن الشذوذ الجنسى وصور الحب وأحداث الأسر مما يحمل اسم الفضائح ، لأن ذلك يلقح عواطف المجتمع بسموم خلقية شر من المخدرات[2] ويشير الباحثون إلى أن هذا الاتجاه هو الخطر الذى ابتليت به الامبراطوريات

---

(١) دكتور عبد الحميد سعيد .

(٢) دكتور زكى هاشمى .

الغابرة كالرومانية والبيزنطية فدمرها وأنه لا بد من أن يتولى دراســـات علم التناسليات إخصائيون يضعون الحقائق فى مواضعها مما يمكن تجنبه أو الإشارة إليه . وأن هؤلاء العلماء هم الموكول إليه وظيفة الحراسة الخلقية التى تحافظ على صيانة الرغبات التناسلية من التلوث توجيه غريزة الناشئين إلى الطريق الصحيح .

(٤)

ولربما يظن بعض الناس أن هـذا التيار الذى شقه فرويد وجرى فيه الكتاب والقصاصون ، هو الغالب المسيطر ، أو أنه الحقيقة التى أصبحت المجتمعات الأوربية تسلم بها . فهناك طائفة كبيرة من العلماء لايرون رأى فرويد ولا يجمحون جموحه . ولقد عرضوا آراءهم فى معارضة فرويد واتجاهه ومنهم الدكتور لويس بيش الطبيب النفسى الذى ننقل عنه وجهة نظره :

يقول : إن دوافع الغريزة الجنسية دوافع غريزية فطرية تحاول أن تعبر عن نفسها ، ولـكن هـذا لايعنى أبداً أن عدم الإشباع أو على الأصح وضع هذا الإشباع فى المقام الأول من حياتنا يؤدى إلى دمار البشرية .

والواقع أن هناك ثمة رجالا ونساءاً أفلحوا فى تجنب الجنس والحياة بدونه نهائياً . وهناك آلاف النساء لم يتزوجن لأن فرصة الزواج لم تتح لهن أو لأسباب أخرى .

« والقول نفسه يسرى على رجال كثيرين لم يتزوجوا أيضاً » .

« إن التعبير عن الجنس ليس ضرورة مطلقة . وليس هناك ثمة ضرر جسمى أو عقلي ينتج عن الامتناع عن الجنس » وقد سألتنى إحدى السيدات : هل

الجنس ضرورى لكى يتم للإنسان اتزانه العقلى ، قلت وأنا أعنى كل حرف مما أقول : بالطبع لا — إن كل ما سمعته من لغو الحديث ، إن السعادة ليست ممكنة فقط فى الزواج فهناك رجال ونساء عاشوا سعداء دون أن يمارسوا الجنس .

« ودعونى أكرر مرة أخرى أن الجنس فى أصله « مسألة عقلية » قبل كل شىء ، وبالرغم من أن الدافع الجنسى غريزى فينا ، وغالباً مايطلب الإشباع إلا أنه فى معظمه ينشأ فى عقولنا قبل كل شىء ، والتفكير هو الذى يدفع الجسم إلى العمل .

« ورغم أن أغلب إجراء المثير الجنسى تتكون بتأثير العالم الخارجى ، إلا أن العقل يلعب فى ذلك دوراً كبيراً يفوق فى أغلب الأحيان الدور الذى يلعبه المثير الأصلى ، وبعبارة أخرى : إن ماتتخيله عقولنا من الجنس يكون أشد اثارة من الجنس فى واقعه الموضوعى الخارجى . « ومن ثم نستطيع أن نقول أن الكتب الجنسية وأفلام السينما والنكات الخارجية وما إلى ذلك هى المسئول الأول عن اثارة الحيوان الكامن فى أعماقنا وليس الجنس فى حد ذاته . « وفى إمكان الفرد أن يظل أسبوعاً أو شهراً دون أن يفكر فى الجنس ، ولقد اكتشفت أن الجنس ليس إلا فكرة فى رأسى ، أن التخيل هو من نتاج الذهن يلعب دوره الرئيسى بالنسبة لدوافع الإنسان الحسية ، وما أكثر الصور المحمومة غير الواقعة التى يقدمها لنا . « إن العقل هو مفتاح الطريق لحل المشاكل الجنسية ، وهو الوسيلة الفعالة التى فى إمكانك تسخيرها لمصلحتك . « وعلاج الجنس هو الزواج أو الكظم الذى لن يضر شيئاً » .

* * *

ولا ريب أن هذه الصورة التي يمكن أن يقال أن العلم فيها كان متحرراً من كل القيود والخلقيات تصور مفهوماً قريباً من مفهوم الدين الذي قرر أن الكظم لاشيء فيه مطلقاً وأن الإنسان قادر بالتحكم في عقله ونفسه وبالتقوى والخوف من الله ومراعاة حدوده وعدم تخطيها أن يواجه أزمة الجنس على النحو الذي يجعل كل ما كتب عنه عبارة من صرخات الشواذ أو أصحاب الدوافع الخطيرة .

الفصل الخامس

الفلسفة الوجودية

من خلال مفاهيم فرويد فى الجنس والنفس ودوركايم وليفى بريل فى الاجتماع والأخلاق نشأت فلسفة تطبيقية : هى الفلسفة الوجودية التى تحولت الى حركة واتخذت من الكهوف وأندية العرى وغيرها مجالا لإبراز أجيال من الذين اتخذوا من هذه المفاهيم منطلقاً لحياتهم وعقائد لسلوكهم . وقدمت الفلسفة الوجودية فى مرحلتين : مرحلة الرفض للمجتمعات ثم مرحلة الغثيان والتمرد والغربة والعبث واللامعقول وكانت الفلسفة الوجودية فى مجموعها وهى المنطلق للدعوة التى جاءت بعدها وهى : « الهيبية » التى أخذت تسود المجتمعات الغربية فى السبعينات من القرن العشرين .

* * *

تركز الفلسفة الوجودية على الإنسان حيث تركز الفلسفة السيكولوجية على النفس والجنس ، بينما تركز الفلسفات الاجتماعية على الأخلاق والمجتمع ، وحيث تركز الماركسية على الإقتصاد والإنتاج وهى فى مجموعها تحاول خلق تضارب وصراع شديدين : ولا يجمعها جامع فى الأصل انها جميعاً تستمد جذورها من الفلسفة المادية ومفهوم التطور . وتقوم نظرتها الى الإنسان على أنه جسد تنطبق عليه تجارب الحشرات والأنعام .

وتهتم الفلسفة الوجودية بالدعوة الى تحرير الإنسان من كل القيود :

قيود المجتمع وقيود الأديان والأخلاق فى محاولة للوصول به الى الغربة

واليأس . وان الحياة لا معنى لها ولا قيمة فالوجودية هى محاولة للانفصال التام عن كل قيم الدين والمجتمعات ومسئولياتها لكى يصبح الإنسان حراً طليقاً سيد نفسه ويستمد سارتر فلسفته من داخل نفسه ، ومن تحدياته الشخصية ، التى تعرضت لها حياته (كما استمد فرويد فلسفته ومفاهيمه) . يقول سارتر : لقد صنعت ذاتى لأنى لم أكن إبناً لأحد ، والإنسان لايوجد بل يصنع نفسه واليوم كغد والغد كبعد الغد ، وأنه لا طعم لشىء ولا لذة لشىء ولا أمل فى شىء. وتحاول الوجودية أن ترسم طريقاً للإنسان : تضع فيه الناس بوصفه سيد العالم ، الحر الطليق الذى ليست عليه رقابة لأحد ، ولا مسئولية عليه لأحد ، يفعل ما يشاء دون حدود ، وينطلق وراء رغباته وغرائزه فالإنسان « محكوم عليه بالحرية ، دون أن يكون خاضعاً لأية سلطة ، والإنسان وجد ذاتياً ويحيا ذاتياً وليس فعل فاعل ولا عبودية عليه لأحد وكل انسان يكيف نفسه حسب مشيئته ، وحتى ماضى الإنسان لا يسيطر عليه منه شىء الا ما يريد هو ، فهو الذى يحكم نفسه بنفسه وهو الذى يوجه نفسه لما يريده فى المستقبل . وأن كل انسان يستطيع أن يعيش على النحو الذى يريد غير متقيد ببيئة أو تربية أو أشياء ماضية وهكذا تمضى مفاهيم الوجودية كما صورها سارتر وكامى وغيرهم منطلقة الى أبعد مدى من تصور الحرية للإنسان الذى يعيش داخل مجتمعات و نظم وأوضاع وعقائد ليس من السهل عليه أن يتحرر منها على هذا النحو .

(٢)

بدأت الفكرة الوجودية من خلال كتابات كيركجارد ثم تحولت من خلال كتابات هيدجر نحو الإلحاد ثم جاء سارتر فوسع النظرية وعمقها وصبها فى قالب روائى مسرحى . ومضى على الطريق كثيرون منهم البير كامى وغيره .

وتوصف وجودية كيركجارد بالوجودية المسيحية ، أو ثورة على المسيحية الغربية يمكن أن توصل تاريخيا بأن توضع فى صف تلك الثورات التى تعرضت لها المسيحية الغربية كثورة نيتشه وثورة ماركس .

فقد حمل كيركجارد فى مؤلفاته العشرين على معتقدات مجتمعه الدينى حملة عنيفة وهاجم الكنيسة ودعا الناس إلى الإيمان بأنفسهم .

ومن هنا كانت الوجودية دعوة صريحة ضد المسيحية ومحاولة لهدمها وحرباً سافرة على الأديان كلها . ويربط بعض الباحثين الدعوة الوجودية أساساً منذ أعلنها كيركجارد بمجموعة التحديات التى واجهت المسيحية الغربية والكنيسة.

يقول أحد الباحثين فى هذا الصدد :(١)

« أن الحياة ليست بذات قيمة فى النظر المسيحى . وعلى حساب الطبيعة البشرية ضحى المسيحى بحياته الأرضية ليكسب الخلود الإلهى ، واعتبر كل ماهومادى خطيئة يجب بترها . وأول هذه الخطايا الجسد الإنسانى « هذا جسمنا المجنون الشيطانى ذو الألف شهوة » .

أن مملكة المسيحى ليست فى هذا العالم ، والحياة الحقيقة هى الحياة الخالدة وهى تبدأ بعيداً عن الأرض ، فى السماء « انزوى وأصبح مثاله الأعلى هو التصوف : ذلك الرجل الذى نفى غرائزه فى سقف ديره المنعزل وأقام من نفسه فى قلب الصحراء شاهداً على سخف فكرة الإنسان » .

ومعنى هذا أن الوجودية إنما جاءت بمثابة رد على الزهادة المسيحية التى قاومها الفكر الغربى ذى الجذور الوثنية الإغريقية . ثم لم تلبث هذه الوجودية أن خرجت فى صورتها التى حاول سارتر أن يرسم مخططها ، خروجا كاملا على الأديان وعلى المسيحية ومعارضاً لكل فكرة تتصل بالعقائد الالهية وواضعاً الإنسان فى مقابل الله على حد تصويره وتعبيره : [الاله موجود فالإنسان عدم وإذا كان وجود الله يلغى الإنسان وجب إذن إلغاء الله ليوجد الإنسان] .

---

(١) محي الدين محمد — مجلة الآداب .

وقد ذهب سارتر إلى أبعد المدى فى هذه المفاهيم التى لاتوافق الفطرة أو العقل أو أصول العلم ومناهجه فى محاولة جريئة لطرح مفاهيم ملحدة ويستلهم سارتر مفهومه هذا من نيتشه ، ويجرى على نفس نهج فرويد فى اتخاذ الأساطير اليونانية منطلقاً لآرائه .

ومن الحق أن هذا التيار الذى غلب على الفكر الغربى كله ، إنما جاء تحديا للصورة الأخيرة التى فرضتها الكنيسة للمسيحية الغربية على ذلك النحو الذى بعد بها عن الاستجابة لطبائع النفوس ، من خلال تعقيدات العقيدة ومن الاشارة إلى أسرار لاتعرفها إلا الكنيسة ومن جبرية ووصاية على الفكر البشرى ، كل هذا باعد بين الفكر الغربى بعد تحولاته تأثراً بالعلم ومقرراته إلى فلسفة حديثة مضطربة تحاول أن تخلق نهجاً فكريا يحل محل الدين ، دون أن تصل إلى ذلك ، لأمرين : لأنها تتخذ منطلقها من خصومة عنيفة وتعصب بالغ فى مواجهة كل مايتصل بالدين ، ثم كان لما وراء ذلك من محاولات (اليهودية التلمودية) وعدائها القديم للمسيحية أبعد الأثر فى تعمق هذا الاتجاه ، ومن ثم فى سيطرة المفكرين اليهود على الفكر الغربى كله واحتواء الفكر الغربى المسيحى والحملة عليه على هذا النحو الذى لم يدع منهجا من مناهج الفكر :

سواء فى الماركسية أو خلال علم النفس أو علوم الاجتماع أو من خلال الوجودية .

ولقد جاءت الوجودية فى ظل تحديين خطرين : الأول هو الموت بالحرب على النحو الذى شهدته أوربا فى الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية وما لازال يهدد البشرية بحرب نووية . مما هز النفس الأوربية التى كانت قد استغرقت كل علاقة لها بالدين والايمان. أما التحدى الآخر فهو هؤلاء الكتاب أنفسهم وسرائر حياتهم ودوافعهم البعيدة الأثر فى إنتاجهم ، من أمثال نيتشه وكيركجارد وفرويد وسارتر ، وكلهم موصومون فى حياتهم على نحو خاق فى نفوسهم غصة وفى كتاباتهم مرارة .

ثم كان للقوى الأخرى التى حملت رياح هذه الأخطار والدعوات فنشرتها فى كل مكان وأعلت من شأنها بالنسبة لآراء ونظريات أخرى أخفت أصواتها لأنها لاتخدم أهداف اليهودية التلمودية ومخططها الواسع العميق وأن إلقاء نظرة سريعة إلى حياة هؤلاء الكتاب لتؤكد أنهم فى تقدير البحث العلمى غير صالحون لأن يكونوا من قادة الفكر، فلاهم فى الطليعة من الأبرار الذين يحفزهم إيمان بالإنسانية أو يتطلعون إلى تقديم إضافات لرفع مستوى البشرية أو هداها، ولاهم من العقل أو الحكمة فى المحل الأول فانهم مضطربون عصبيا، قد صدمتهم أحداث الحياة بكثير من الأزمات التى حملت نفوسهم المرارة والحقد على المجتمعات فاندفعوا إلى هدمها .

إن مثل هذه النظرة ضرورية للحكم على مثل هذه الصيحات التى تعارض رقى البشرية وتدفعها إلى ظلمات الغابات والجحور مرتدة بها عن التوحيد والايمان إلى مناهج غاية فى القسوة والضياع وسارتر كما تصفه سيمون دى بوفوار (ألصق الناس به) : كان يكره الحقوق والواجبات وكل شىء رصين فى الحياة وهو لا يكاد يهضم أن تكون له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعى وتفرض ولن يكون أبدا رب أسرة حتى ولا رجلا متزوجا، لم يكن سارتر يرى فى الزواج شيئا عظيما، كان فوضويا أكثر منه ثوريا، كان يجد المجتمع على ماكان عليه شيئاً محتقراً، ويمكن القول بأن كل ماذهب إليه سارتر فى فلسفة إنما استمده من تحديات حياته الخاصة يقول أحد الباحثين : « لعل من أسباب نزعة سارتر، أنه ولد حيث لا أب ولا أم ولا أسرة، أبوه مات فى شهره الثالث، أمه ممسوخة الشخصية لم تشعره أبداً بسلطان أمومتها، والأسرة لاتتعدى جدين عجوزين يؤويانه هو وأمه ويشعرانهما بأنهما ضائعان . « كان ينظر إلى البشرية نظرية مايئة بعطف مشوه أساسه الاحتقار .

أنكر الكنيسة : يقول كنت كاثوليكيا وفى نفس الوقت بروتستانتيا، أراد أن يؤكد ذاته بأن له رسالة وهو الطفل المنبوذ فى مجتمع بقية الأطفال العاديين»

هذا هو التحدى الذى دفع سارتر إلى أن يحمل تلك الحملات العنيفة على الدين،

فقد عجز هذا الدين أن يعطيه فى حياته الأمن والطمأنينة ، فاندفع يحول هذه الصيحة الذاتية إلى صيحة عامة ، قد تجد لها صدى بعيد .

ولقد كان كيركجورد يقاسى مثل هذا التحدى : أمه خادمة تزوجها أبيه سراً وكان إلى ذلك أحدباً ، مما ضاعف علته النفسية ، وكان ذلك يزيد شعوره بالنقص ، فاعتزل المجتمع وعاداه ، وكانت مؤلفاته العشرين هجوما علـــى معتقدات مجتمعه .

ولم يكن نيتشه أسعد فى حياته من رسارتر وكيركجارد ، ولا أقل منهما عقداً نفسية بسبب سوء صحته ، وقد كتب ماكتب وهو طريح عليل فى المستشفيات داعياً إلى دين القوة ونبذ فضائل الضعف من حدب ورحمة ورفق الضعفاء ، وهجوم لاحد له على الدين وعلى المسجد بالذات .

ولقد كانت وجهة هؤلاء جميعاً مقاومة الاعتقاد بالله فى أديانهم ، ولم تكن صورة « الله » فى عقائدهم هى الصورة المثلى ولا الصورة الحقيقية .

فقد اختلطت فيها البشرية بالألوهية ، ثم علت البشرية ، ومن ثم فتحت الطريق أمام افتراض أن يكون الإنسان هو الاله ، وهو سيد نفسه ، ومن هنا كانت صيحة الفلسفة الغربية إلى ما أسموه « إلغاء وجود الاله » .

وقد أشار سارتر إلى محاولة تعليل وجود العالم ، بين القول بأنه قديم أو محدث ، ومضت تلك المراحل إلى القول : « بأن هذا العالم وجد بلا داع ويمضى لغير غاية » .

وقد صور سارتر هذه المعانى فى كتابه الكينونة والعدم ، وقصة الغثيان ، وإذا كانت تحديات الدين فى الغرب قد كانت بعيدة الأثر فى مأساة حياة سارتر وكيركجارد ونيتشه وفى فكرهما فان أزمة العصر أيضاً قد امتدت إلى أبعاد

أخرى فى التقدم التكنولوجى نفسه الذى يتصور الإنسان ترسا فى ماكينة أو قطعة غيار فى جهاز .

لقد عجزت المعطيات الدينية والفكرية فى الغرب أن تقدم شيئا للنفوس التى واجهت الفراغ الروحى بعد الحرب والفزع الشديد من أخطار الحروب النووية ، وكان الاتجاه مع الوجودية إلى انكار كل مقدس ، أو فتح أبواب الحرية على مصاريعها دون أى قيد من العوامل التى حاولت اليهودية الصهيونية أن تغرى بها الأجيال كطريق للحياة ولكن السنوات التى مرت على هذه التجربة كشفت عن زيفها وعن أنها لم تحقق أكثر من أن زادت موجه البلبلة والشك والحيرة والجحود والقنوط ، ذلك أن الفلسفة الوجودية لم تقدم شيئاً بناء يشكل النفوس من جديد أو يبعث فيها الطمأنينة ، وإنما قدمت مفهوما متشائماً مغرقاً فى الحقد على البشرية يصور مستقبلها مظلما حالك الظلام وحاولت أن تبث فى النفوس أن الإنسان ضائع ، وأنه خلق ليقاسى العذاب . ويعيش فى الفراغ ، فهى لم تزرع الأمل فى النفوس ولم تعمل عملا إيجابيا أو جديداً يفتح الآفاق إلى ضياء جديد .

(٣)

تواجه الوجودية كل القيم البشرية المطروحة بالرفض ، فهى ترفض القديم والجديد معا ، وترفض التراث وتدعو إلى التحرر من القيم المتوارثة البالية (وتعنى هنا تراث المسيحية الغربية والكنيسة) وهى فى نفس الوقت ترفض سيطرة المادة وسيطرة التفكير العقلى وتنكر المبالغة فى تأليه العلم وتقديسه وتسخيره فى اشعال الحروب والتسابق الذرى ، وهى فى نفس الوقت الذى تهاجم فيه رجال الدين المسيحى الذين يقول عنهم سارتر (الذين لا يعرفون من الدين إلا قشوره ، الذين تركوا مبادئه السامية وأخفوا نفاقهم وراء ملابسهم الكهنوتية الفضفاضة والصليب المدلى والكتاب المقدس) وبينما يهاجم سارتر

ما يستخدمونه من وسائل لما يصفه بأنه مخادعة الشعب وابتزاز أمواله ، بينما يقول هذا مما يفهم منه أن الدين حق وأن رجاله هم الذين أخطأوا ، نرى زلزلة إيمان الناس فى أقدس مقدساتها بالقول بأن الناس هم الذين خلقوا الله (سبحانه جل وعلا) وليس الله هو الذى خلقهم كذلك نجد الوجودية وهى تنكر قدرة العقل على تعدى حدود الظواهر والمحسات ثم هى فى نفس الوقت تدعو إلى التشاؤم فهى تهاجم المثالية والمادية فى نفس الوقت . وتهاجم الدين والحضارة والعلم والأخلاق .

ولكنها تكشف حقائق لا بد منها فهى تقول أن اليأس والتمزق النفسي الذى يمر به العالم اليوم إنما ولده الخواء الروحى والفراغ[1] ويمكن القول بأن الوجودية هى صيحة احتجاج ضد الدين كما فهمته أوربا وضد طغيان الجماعة وتهوينها من شأن الفرد ، وأنها كشفت كثيراً من أخطار الفكر الغربى والمجتمع الغربى وتحدياته ، ولكنها لم تستطع أن تجد الطريق الصحيح ، وإنما انحرف بها المدى فبلغت غاية الاضطراب حين دعت إلى رفض الحياة كلها ، وحين دعت إلى قطع آخر علائق الضوابط ، والمثل والعقائد والقيم واتجهت إلى فلسفة الكهوف والغرائز وظلام العصور البدائية الشاذة .

(٤)

إن إلقاء نظرة واسعة مستفيضة إلى الفلسفة الوجودية تكشف عن حماسة العاطفة واندفاع الوجدان ، وضيق الأفق ، والعجز عن النظرة المستوعبة والإحساس بأن العالم يستطيع أن يغير نفسه أو أن يخرج عن إطاره العام سواء أكان هذا الإطار تاريخياً أو اجتماعياً . إذ كيف يعرف الإنسان نفسه بنفسه دون أن يستعين على ذلك بتاريخ أو فكر أو عقيدة أو منهج للمعرفة وكيف يستطيع

---

(١) البيركامى .

الإنسان أن ينتزع نفسه من ماضى البشرية كله وأن يعيد النظر من جديد فى المجتمع الإنسانى وقيم العالم الذى يعيش فيه دون أن يكون معه أداة ذلك من عقل أو دين أو تجربة سابقة أو خبرة العلم أو بضاعة الوجدان والفطرة . إن الدعوة إلى الانسلاخ من الأسرة البشرية والشك فى التراث ، والتحلل من العقائد والتقاليد والقيم جميعاً لن تمكن الإنسان من معرفة نفسه بنفسه ولن تقدم له أى زاد للحياة أو أى أسلوب للفهم أو المعرفة . ولاشك أن هذه العبارات على سذاجتها تدل على اندفاع وحماس وغضب ولا تصور منهجاً فلسفياً يمكن أن ينظر إليه نظرة المراجعة أو التقييم الصحيح ، وكيف يمكن أن يتحرر الإنسان من كل رابطة أو علاقة أو عقيدة ، فإن ذلك كله لن يحقق الحرية المنشودة للإنسان، بل إن هذه الدعوة لن تحرر الإنسان من الأزمة التى يعانيها بل هى ستدفعه إلى هوة مظلمة من اليأس والقنوط . ومن هنا كانت معارضة الفلسفة الوجودية للفطرة الإنسانية ولمنطلقات البشرية إلى التقدم والبناء والحياة . وقد صدق دكتور روجيه جارودى : حين وصف الوجودية بأنها فلسفة هدم لابناء ومحاولة لتدمير الشخصية الإنسانية وإسقاط النفس البشرية فى مجالات اللذة والشهوات حتى تصبح غير قادرة على الدفاع عن نفسها أو تركيز وجودها .

ولقد كان (جاز ببرك) أعمق فهمها حين قال : إن الوجودية ظاهرة زمنية عابرة لن يلبث الإنسان أن يتخطاها وهى ليست روحاً (Essence) .

* * *

ولقد أجمع الباحثون على بواعث الفلسفة الوجودية ، وعلى مصادرها .

أما بواعثها فهى أنها لبنة فى مخطط اليهودية التلمودية التى تحاول أن تحطم القيم والأديان والأخلاق . أما مصادرها فهى الشخصيات الموصومة ، غير السوية المتميزة بالقلق والحيرة ، والتى لها من تجاربها الذاتية تحديات شاه

أصحابها أن يفرضوها على الفكر ثم جاءت القوى المصـــدرة للفكر فأذاعتها ودقت لها الطبول . وهى فى مجموعها تقوم على اليأس من الحياة . ولذلك أطلق عليها اسم فلسفة العدم والاضمحلال وهى تقوم على التحلل من كل القيم والضوابط وتستمد وجودها من الفلسفة المادية وتقوم كرد فعل للفلسفة الجماعية فى محاولة لإعلاء الفردية على حد يعتبر بعض الباحثين : الفرد يعيش ضمنا فى الماركسية ويعيش أصلا فى الوجودية . وهى فى مواجهة قول ماركس : تضحية المجتمع فى سبيل الفرد وتقوم على نفس الأسس التى قامت على مختلف الفلسفات الماسونية اليهودية التلمودية التى عمدت إلى احتواء الفكر الغربى والسيطرة عليه : إنكار الإله وإنكار البعث والجزاء وإنكار الأخلاق والهلع من الموت . وهى تهاجم العقل هجوماً تاماً ، وتدعو إلى قتل التفكير وإلغاء استخدام العقل . وترى أن أسلوب التحرر تقوم على قتل العقل والمنطق ، وترى أن الإنسان لا يستطيع أن يصاحبهما .

(٥)

أجمعت المراجعات التى عرضت للوجودية على حقائق هامة :

(أولا) إنكار الوجودية كل محصول البشرية من التجارب فى الماضى ، فهى لا تأبه به وتنادى بضرورة تجاهله ، وأن يبدأ الإنسان من جديد تماماً كالإنسان البدائى . وهى تحتقر العلم وتنكر قيمته . ولا تقدم مضموناً بناءاً بعد هدمها لكل القيم .

(ثانياً) إنكارها للواقع الإنسانى ، والتاريخ الاجتماعى كله لأنها تنطلق من مفهوم الوجود الذاتى الفردى . وهى تجعل « الذات الفردية عنصراً منعزلا ومستقلا تماماً عن الوجود العام لا جزءاً منه » .

(ثالثاً) تقوم الأخلاق فى الوجودية على القلق والقنوط والتشاؤم والرغبة فى الموت والغموض والأنانية المفرطة .

(رابعاً) دعت الوجودية من خلال كتابات قادتها إلى :

التفكك والتحلل والفوضوية واللاأخلاقية (كيرجارد) ثم انتقلوا إلى مرحلة أشد عنفاً فى الاستهتار بكل القيم والخروج من حيز الفكر إلى حيز التطبيق ممثلة فى كهوف الوجوديين حيث يستعرض لوناً مريضاً بشعاً من الحياة .

(خامساً) اتسم الأدب الوجودى (فى القصة والشعر) والفن الوجودى فى الرسم والسينما وكذلك الصحافة بطابع البدائية المغرقة فى الإباحة . من أفلام جنسية ومجلات عارية تحمل صوراً غاية فى الإباحية .

(سادساً) ظهور الحقد الدفين على الكنيسة فقد اتخذت الفلسفة الوجودية من الديانة هدفاً لحملاتها .

(سابعاً) عمدت الوجودية إلى عزل الإنسان عن الجماعة وركزت على إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الإنسانية وأنكرت القيم الخالدة .

(ثامناً) دعت إلى تحقيق الذات بإطلاق القوى النفسية والفردية بدون قيد .

(تاسعاً) التجرد من القيم والمبادىء التى قدمتها الأديان المنزلة للبشرية فى مجال العقيدة والأخلاق

---

(١) راجعنا فى هذا عدداً من الأبحاث منها بحث عن الوجودية (محاضرات الموسم الثقافى جـ ٣) وبحث فى الثقافة مايو (١٩٥١) .

(٦)

الفلسفة الوجودية حلقة من حلقات الفلسفة الماسونية اليهودية التلمودية ؛ ومن هنا فعلينا أن نضعها فى مكانها ونصنفها فى هذه السلسلة المتتابعة من المدارس الحديثة فى أوربا[1] « ولن نفهم المدارس الحديثة فى أوربا مالم نفهم هذه الحقيقة التى لاشك فيها ، وهى أن أصبعاً من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية وترمى إلى هدم القواعد التى يقوم على مجتمع الإنسان فى جميع الأزمان . « فاليهودى كارل ماركس وراء الشيوعية التى تهدم قواعد الأخلاق والأديان . « واليهودى دوركايم وراء علم الاجتماع الذى يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ويحاول أن يبطل آثارها فى تطور الفضائل والآداب .

« واليهودى — أو النصف يهودى — سارتر وراء الوجودية التى جاءت معززة لكرامة الفرد ، فجنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات القنوط والانحلال « ومن الخير أن ندرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية كلما شاع فى أوربه مذهب جديد « ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ماوراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود « وقل مثل ذلك فى العلامة سيجموند فرويد اليهودى الذى هو من وراء علم النفس الذى يرجع كل الميول والآداب الدينية والخلقية والفنية والصوفية والأسرية إلى الغريزة الجنسية كى تبطل قداستها ويخجل الانسان منها ويزهده منها ويسلب الانسان الايمان بسموها مادامت راجعة إلى أدنى ما يرى فى نفسه وبهذا تتخبط فى نظره صلاته بأسرته وبمجتمعه والكون وماوراءه » ويرد البعض الوجودية إلى المسيحية: يقول الدكتور غلاب : إن منشأ القلق بل الغم أحياناً عند أولئك المفكرين

---

(١) عباس محمود العقاد .

هو أن المسيحية لاتقدم ترضية تامة إلى مطالب العقل الذى يتوق إلى فهم كل شىء، بل إن العقيدة التسليمية كثيراً ما تتطلب تخلى الفكر عن رسالته، لأن بعض مبادئها تصطدم مع العقل الذى لم يعد لقبولها. وقال غلاب : إن قادة الدعوة الوجودية كانوا جميعاً من الشواذ وحياتهم الخاصة ملیئة بالاضطراب (كيركجورد - جابرييل مارسيل - سارتر).

* * *

ويرد بعض الباحثين ظاهرة القلق كلها إلى الفلسفات ، ويرى البعض أن الوجودية قد جاءت فى خاتمة الفلسفات لترفض النظم الفلسفية جميعا .

الفصل السادس

الفلسفة الهيبية

كان لا بد أن تثمر دعـــوات الجنس والنفس ، وكتابات الأدب المكشوف والقصة آثاراً بعيدة الأثر فى المجتمعات الأدبية : تمثلت فى صورتين متتاليين :

« الوجودية والهيبية » .

أما الوجودية فقد عاشت فى ظلام الكهوف أما الهيبية فقد تلتها لتفرض وجودها على المجتمعات وتندفع بأقصى قوتها من خلال الأزياء والملابس ، ومن خلال إطلاق النفوس والأجساد بمـا يشبه العودة إلى الصورة البدائية لإنسان الغابة والعودة إلى صورة الحيوان وذلك استمداداً من فلسفة تقوم على رفض المجتمعات والآداب والقيم والأخلاق . والدعوة إلى الانحلال والإباحـة .

وقد كان هذا التطور طبيعياً فى الفكر الغربى والمجتمع الغربى وأمر لابد منه كنتيجة للفلسفة التى فرضتها عوامل كثيرة والتى توالت وتتابعت منذ وقت طويل من خـلال الفلسفة المادية وإنكار مختلف القيم المستمدة من الأديان والقائمة على الاعتراف بالله والأنبياء واليوم الآخر وسريان روح الانـكار والسخرية بكل ما يتصل بالغيب أو ما ليس محسوساً واستعلاء الفلسفة على العلم وخروجها من أيدى المفكرين الغربيين المسيحيين إلى اليهود ، الذين حملوها ومعهم كثير من غيرهم من خلال المحافل المـــاسونية ، فى نطاق أهداف

اليهودية التلمودية الطامحة فى السيطرة على العالم بعد تدميره وخرابه وإيقاع الانحلال به .

ولن أقل مراجعة لبروتوكولات صهيون لتكشف عن أن ما بلغته الفلسفة الهيبية وما أعلنته إنما هو واحدة من هذه الخطوات الجريئة فى مخطط طويل يؤتى ثمرته مرحلة بعد مرحلة .

فالفلسفة الهيبية تقوم فى الأساس على قوائم ثلاث .

× الفلسفة المادية .

× فلسفة الجنس والنفس الفرويدية .

× فلسفة دوركايم وليفى بريل القائلة بأن الأخلاق غير ثابتة .

فاذا تدرج الفكر الغربى من إنكار للبعث فان ما يتبع ذلك هو أن الحياة هى كل شىء ، واذا كانت الحرية هى الانطلاق وما دام ليس هناك مسئولية أو جزاء فانه ليس هناك التزام أخلاقى ، واذا كان الجنس فى رأى فرويد هو مصدر كل المشاعر والتصرفات ، فان الانسان ليس سوى حيوان ، واذا كانت الأخلاق غير ثابتة على حد قولهم فان للمجتمعات أن تلتمس من الأخلاق ما يناسبها . كل هذا كان لا بد أن يشكل حركة تندفع بالشباب الى كل رغبة وغاية ومطمح على النحو الذى دعت اليه الوجودية ، فاذا اندفعت المجموعات الى ذلك لم تلبث أن تجد فراغاً عنيفاً ، ووحشة مقبضة ، تجعلها ترفض الحياة .

وهنا تكون الهيبية واقعاً لهذه المجموعات التى وصلت الى آخر حلقة من حلقات ذلك السباق الجنونى فاذا بها لا تجد شيئاً ، بل تجد الرفض الكامل للحياة والمجتمعات والقيم والأدب والفنون جميعاً .

وهنا نجد هذا الشعور بالغربة والوحشة والتمزق والشك والغثيان ، ومن هنا

علت على سطح المجتمعات : جماعات أشبه بجماعات النور القديمة ، ممزقة الملابس وقد تركت شعورها حتى نمت نموا كبيراً ، مع إنصراف عن الماء ، فتراكمت الأقذار وبدت روائح كريهة من خلال الأجساد والملابس.

(٢)

إذا راجعت كلمة هيبز فى اللغة (Hippisn) وجدنا أن معناها منطبق حقا على هذه الصورة : فهى تعنى (سوء الخلق) وهو مأخوذ من اللغة اليونانية القديمة (Hypochondsiacal) وهى صفة كل فرد يعانى إضطراباً عقلياً يؤدى به إلى الإنقباض والكآبة ويصل به إلى داء السوداء (الميناخولى)وهو مايشبه الجنون .

وتقوم فلسفة الهيبية على الرفض الكامل للمجتمعات والحياة ، والانقباض إزاء قيمه وأساليبه،مع ممارسة التحلل الصريح لكل القيم الروحية والاجتماعية ، ومع الانسحاب من المجتمع ، إلى العراء والصحراء وهذا يعنى أن مضامين فلسفات ماركس وفرويد وسارتر ودوركايم وليفى بريل التى فرضت على المجتمعات الغربية لتحل محل مفاهيمها المسيحية القديمه قد أثمرت هذا الجيل من مرضى النفس ومنحرفى السلوك ومن الساخطين والمتمردين ، الذين ينكرون كل شيء ، دون أن تمدهم الفلسفة الهيبية بطريق للتحرر ، أو تكشف لهم ضوءاً إلى البديل الصادق فقد غررت بهم الفلسفات المادية والجنسية ودفعتهم حركات الوجودية إلى الاندفاع إلى سطح الحياة الاجتماعية ليشكلوا ظاهرة معقدة شديدة التعقيد .

* * *

ويرى بعض الباحثين أن الهيبية هى إنفجار فى الوجودية حيث ظلت الوجودية اكثر من عشرين سنة تمارس نشاطها فى الكهوف ، بإطلاق الشعور

واللحى ، والعرى ، والاباحة ، وإطالة الشعور والسوالف ، والملابس المشجرة والضيقة والزاهية وإذا كانت الوجودية هى ثمرة الفلسفة الماسونية اليهودية التلمودية لتدمير القيم الدينية فى الغرب ، فإن هناك محاولات أخرى للاستفادة منها عن طريق مستعمرات العرى أو معسكرات الهيبز التى تأخذ بها بعض القوى الرأسمالية كوسيلة لاستجلاب السائحين .

وقد أثمرت حركة الهيبية ، ثمرتها فى خروجها إلى المجتمع واتصالها بالشباب بما عرف فى السنوات الأخيرة من مظاهرات صاخبة للشباب فى عديد من عواصم الدول الأوربية وفى فرنسا انطلقت الهيبية من السربون وخرجت من الكليات العملية كالطب والهندسة ، وليس من كليات الآداب والفنون ، ويرد الباحثون الظاهرة كلها إلى اليهودية التلمودية الخفية ، وإلى الصهيونية التى تعمل للقضاء على قيم المجتمعات وتحطيم كل تراث دينى أو أخلاقى ويجمع الباحثون على أن حركة الهيبية حركة هدامة مخططة لتدمير الحضارات والقيم ، فهى معارضة للنظام والنظافة والعمل وإحياء لمفاهيم الوحشية والغابة والقتل والفساد ومن عجب أنها تعمل على هدم كل شىء ، دون بديل ، إلا ماقدمته فلاسفة الهيبية التلمودية أخيراً من مفاهيم مستمدة من الفلسفة الهندية هى أشد قسوة من مفاهيم الأديان التى حطمتها الفلسفة المادية .

(٣)

اهتزت المجتمعات الغربية بعد أن انفصلت عن مفاهيم الدين على النحو الذى عرفته من خلال المسيحية الغربية والكنيسة ، وكان لمفاهيم تأليه المسيح والأسرار السبعة والخطيئة فى مواجهة أضواء العلم ومفاهيم العقل أثر بعيد فى الاضطراب النفسى الذى صاحب النفس الغربية التى لم تجد أمامها غير العلم لتتخذه بديلا للمفاهيم الروحية والنفسية والدينية ولم يكن العلم قادراً أن يعطى

فى مجال ليس مجاله ، فكانت الفلسفة التى حاولت أن ترسم أيدلوجيــــة بعد أيدلوجية لمنهج اجتماعى نفسى يحل محل الدين والعقيدة دون جدوى .

وكانت المحاولات التى سلكتها الفلسفة الماسونية فى السيطرة على الفكر الغربى أثرها فى إيجاد بديل أشد قسوة وعنفاً ، ذلك هو بديل اليهودية التلمودية فى الدعوة إلى حجب مفاهيم الألوهية والغيب وإنكار البعث والجزاء والتركيز على إقامة الحياة الدنيا على أنها الغاية الوحيدة للانسان فى الحياة من خلال دعوة إلى الإنطلاق والتحـــرر من كل القيم وتحطيم كل الضوابط التى تحول دون تدافع الغرائز والرغبات ، وتحويل ذلك جثياً إلى فلسفة منهجية لها طابع علمى براق .

ومن هنا فان النفس الغربية تحت تحديات اضطراب مفاهيم المسيحية الغربية وتعقيداتها ومن خلال الدعوات الجديدة التى كانت تستهدف القضاء على بقايا الدين والعقائد والإيمان بالله والغيب والبعث والجزاء ، تشكلت مفاهيم الفلسفة المادية التى أقامت القاعدة للفكر الليبرالى الرأسمالى ثم على نفس القاعدة ظهر الفكر الماركسى والدعوات التى قادها فرويد ودوركايم وليفى بريل ، ثم كانت الوجودية نهاية لذلك وعنها انطلقت الهيبية حصاداً عنيفاً صارخا لا يبقى على شىء .

ومن هنا نشأت قضية الغربة والغريب .

الغربة للمجتمعات والغريب للفرد .

ولحملت رياح الخريف كلمات هوسمان المتشائمة اليائسة :

« أنا غريب وخائف فى عالم لم أصنعه أبداً » .

Lia Stranger and afraid in a world J never made,

وواجهت المجتمعات هذه الأحاسيس الرهيبة التي خلقتها هذه الفلسفات ومن ورائها تفسير قائم على الحروب التي أكلت الملايين والحروب الذرية المتوقعة في كل لحظة وحاول بعض المصلحين في المجتمعات الأوربية العمل بالكلمة على « إنتشال الفرد مما يعانيه من الغربة التي تؤدي به إلى الخوف وبالتالي إلى النفور من المجتمع ومما يشعر به الفرد من فراغ نفسي ومن وحشة وانفصال بينه وبين مجتمعه .

وارتفعت الأصوات تقول أن التركيز على الجانب المادي من الحياة لم يحل المشكلة فقد خلق معتقداً بأن المجتمع يتألف من أفراد كالآلات يتوفر لهم الطعام والمأوى والملبس ويعملون لآلة أكبر هو الدولة ، وتبين أن مرض « المدنية » ليس هو الفقر المادي الذي يعانيه الكثيرون بمقدار ما هو إنهيار روح الحرية والثقة بالنفس وأن الدعوة الماركسية قد فشلت لأنها حصرت نفسها في العوامل الاقتصادية وصرفت نفسها عن جوهر الحقيقة التي هي « روح الفرد » الذي هو مصدر الانتاج .

(٤)

ويعالج كولن ولسن في كتابه اللامنيتمي (The outsider) موضوع الغربة التي يعاني منها العصر فيرى أن الغربة مرض متصل بتصدع الذات أو إنشقاقها نتيجة عدم توائمها أو إنسجامها مع المجتمع الذي تعيش فيه .

ولأن ظاهرة الغربة هي مشكلة إجتماعية تقوم على شعور الفرد بالانفصام عن مجتمعه . ويرى أن الروماني برغم حيرته وشكه فانه لم يفقد الايمان بالحقيقة .

أما الغريب في هذا العصر فهو إنسان عاجز عن الإيمان بوجودها . فالعالم في رأيه عالم مفتقد للحقيقة أو عالم زائف قائم على اللامعقول والفوضى وعنده

أن طبيعة الحياة فى المجتمعات المتحضرة وماتفرضه من سلوك خاص تحجب عن الإنسان حقيقته الأصلية فيحاول أن يخـــدع نفسه بالمظاهر السلوكية وبالفلسفة أو الدين مقنعاً كل مافى أعماق ذاته من نزعات وحشية ومن فوضى وكأنه كائن راض عاقل متحضر .

ويصل ولسون إلى أن أزمة الغريب إنما هى أزمة فقدان الايمان يظل فيها على حال من القلق والتململ والعذاب حتى يظفر بشىء يشبع عنده عاطفته الدينية المفقودة ، عند ذلك لاتبقى نظرة الشر هى الغالبة على تفكير الغريب . ويرى ولسون أن الاعتماد على التفكير العقلى المجرد ليس بقادر على حل مشكلة الغريب فان ثمة إمكانيات أخرى فى الانسان لابد من إستغلالها وتطورها للكشف عن مبررات للشر الذى أحاق بالبشرية . والذى هو سر من أسرار أزمة الغريب الكبرى .

وينادى ولسون بالبديل ويقول : أن الغريب الذى ضعفت عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلى الصرف الذى هو ظاهره عامة فى الحياة المعاصرة بحاجة ماسة إلى بديل ليشبع عنده العاطفة الدينية ويجد عندها الملاذ الذى يبحث عنه .

ويهاجم ولسون فكرة الخلاص المسيحية ويدعو إلى تحرير الإنسان والفكر الغربى من معتقدات وهمية تسيطر على الإنسان المسيحى ويرى أن هذه العقيدة تقف حائلا بينه وبين رؤية الحقيقة[1] . ويقول ولسون أن مفهومات مثل الخطيئة الأولى والخلاص هى إحدى مصادر الغربة وهى تطرأ للغريب بطريقة طبيعية ، وعنـــده انه بتحليل فكرة الخطيئة الأولى . مثلا يتضح لنا أنها تعنى نفس الشىء الذى تعنيه فكرة الوهم فى الديانة الهندية

---

(١) راجع كتاب اللامنتمى لكولن ولسون والمراجعة التى أجراها له الدكتور محمد زكى العشماوى فى كتابه (الأدب وقيمة الحياة المعاصرة).

فالناس فى نظر (راماكريشنا) ليسوا خاطئين بالمعنى المسيحى للعظة وإنما هم أرواح مخدوعة بالأوهام ولذلك فهو يقول : أنه من الضرورى التخلص من الخطيئة الأولى ، لأن الخطيئة الأولى فى حدود فهمه لهاهى ما يحجب الحقيقة عن روح الإنسان ».

* * *

ومهما يكن كولن ولسن يصدر عن نفس تراث الفكر البشرى الموغل فى الوثنية والشكوك والأساطير فانه يكشف كثيراً من جوانب الاضطراب التى أصابت المجتمعات الغربية ويردها إلى أنها نتيجة الانفصال عن الدين أو العقيدة ويرد كولن ولسون أزمة الإنسان المعاصر إلى غلبة مفهوم العقل وسيطرته الكاملة التى سحقت سحقاً كل القيم الروحية النفسية والأخلاقية من رحمة وتسامح : يقول « أنها أزمة العقل المسيطر على الإنسان ، فقد أضعف العقل الصرف مركز الاشعاع العاطفى فى الإنسان وهو العقيدة الدينية » .

وإذا دعا ولسون إلى (تنمية ملكة الرؤيا والكشف الصوفى عن طريق الإرادة) كحل لأزمة الغريب فإنه لن يجد أمامه مفهوماً أعمق للدين الحق هو الاسلام ، ولذلك فقد لجأ إلى فلسفات الهند الصوفية الحديثة .

ولكنه من خلال هذا التخبط فى الرؤيا يحاول أن يقول ما يطابق مفهومنا أنه ليس فى إمكان الإنسان أن يغسل من نفسه مايعتريه من صدأ أو مايغلف إحساسه من سماكة إلا إذا ظفر بشىء من السلام النفسى والهدوء الروحى » .

أما كيف يصل إلى ذلك فإن كولن ولسن يعجز عن أن يرى المورد النمير وهو حين يدعو إلى التأمل الروحى : يرى أنه يؤلف بين الإنسان والوجود ، ويوقن (أن هذا التأمل قادر على أن يحرر العقل من سلطان المادة) وهذا الإصرار على المفاهيم الروحية والنفسية والصوفية إنما يكشف عن ظاهرة

جديدة فى الفكر الغربى تحاول أن تواجه الظاهرة المادية ولكنها تعجز عن الوصول إلى شىء .

ويقرر ولسون : أن وصول الإنسان إلى لحظات « الكشف » هذه تحرره أولا من التفكير العقلى المجرد الذى أثبت أنه غير قادرة وحده ، على إدراك أى معنى حقيقى وراء هذا العالم ، وهذا تفسير صحيح وهو يصدق أيضا حين يقول :

« أن أزمة الغريب : أزمة فقدان الإيمان يظل فيها على حال من التململ والعذاب حتى يشبع عنده عاطفة الدين المفقودة ، وكذلك يصدق فى إعترافه بأن الاعتماد على التفكير العقلى المجرد ليس بقادر على حل أزمة الغربة ويصدق فى القول بأن ثمة إمكانيات أخرى ، فى الإنسان لابد من استغلالها ويرى ضرورة إجراء التوازن بين الارادة والعقل والعاطفة بما يحقق التكامل النفسى ويختلف موقف كولن ولسن هنا عن موقف الوجودية وعن موقف سارتر والبير كامى إختلافا واضحاً . وإن كان فى كتاباته يرتبط بهما ويحاول أن يكون إضافة جديدة لها . ولكنه يصدق فى تفسير الأزمة نفسها حيث يرى أن أسباب الأزمة ترجع إلى طبيعة العصر نفسه وإلى مامرت به أوربا من تجارب وماعانته من أحداث نتيجة التحول الصناعى وسيادة التفكير العقلى والمبالغة فى تأليه العلم وتقديسه بل وتسخيره أحيانا فى إشعال الحروب وخلق جو من التوتر والتنافس فى سباق التسلح الذرى ، ومن هنا فقد كان « طبيعياً أن يؤدى هذا كله إلى خلق هذا الشعور بالقلق المبهم المقيم الذى استبد بانسان القرن العشرين حتى أصبح مرضاً شائعاً وطابعاً مميزاً لانسان هذا العصر .

وكان طبيعياً كذلك أن يصاحب هذا القلق احساس لبعث الحياة وانعدام الدافع والمسوغ لبذل الجهد والطموح فى عالم قد يباغته الدمار فى كل لحظة » .

ومن هذه العوامل نشأت نوبات التوتر والقلق والغربة والشعور بالعبث .

وانعدام الجدوى من الحياة، وكان مصدر ذلك فى الحقيقة هو ضعف العقيدة الدينية والافتقار إلى الايمان بالله .

ويرى كولن ولسن : أن حاجة الانسان إلى اشباع عاطفـــة الدين أمر لاينقطع وهو الطريق إلى القضاء على الغربة .

ولكنه لايعرف كيف يصل إلى العلاج الحقيق فى الدين الحق الذى لايعتقد لأهله ومعتنقيه مفاهيم الخلاص أو الخطيئة الأولى

وأن تمويه ولسن حول الصوفية والرؤيا والكشف إنما هى ضعف فى رؤيا الأديان القائمة فى العالم والتعرف عليها .

ويصدق كولن ولسن فى القول بأن أول خطوة للتحرر من الغربة هى إتباع طريق النمو المتسق للإنسان بكل نواحيه معـــاً (جسمه وعقله وروحه)[1]

(٤)

هناك تجربة أخرى من خلال الفكر الغربى نفسه تحاول أن تكشف الخطر وتركز الضوء عليه وإن عجزت أيضاً فى الوصول إلى الحل الأصيل .

تلك هى ثورة الطلاب والمثقفين :

وهى ثورة تحاول أن ترتبط بالجماعات الهيبية من حيث مفاهيمها ولكنها تخطو خطوات أشد عمقاً فى رفض الأيدلوجيات القائمة فى مختلف العالم العربى ولا شك أن ظاهرة الرفض لها أكثر من مصدر وسبب . إذا خلصت لنفسها

---

(١) أيضاً راجع بحث الدكتور مصطفى بدوى مجلة كلية الآداب ١٩٥٨ ،

دون أن يكون وراءها محرك أو دافـــع من الدوافع التى تظاهر كل حركات الانتقاض على المجتمعات المعاصرة .

وأبرز معالم هـذه الظاهرة سواء بالنسبة للهيبية أو الشباب عامـة هى ذلك النقص الواضح العميق الذى تواجهه هذه المجموعات من ناحية النفس والعقيدة بما يخلق ظاهرة الغريب .

فقد ثبت أن هذه الأيدلوجيات على اختلاف أنواعها قد عجزت عن إدخال الأمن والإيمان إلى النفس البشرية ، بل أنها زادتها اندفاعاً إلى القلق والضياع باصطخاب النداءات المادية سواء فى مجال الاقتصاد أو فى مجال النفس والاجتماع حتى لتكاد تستشعر جماعات الشباب روح العداء والشر والحقد .

ويرى بعض البـاحثين أن هناك تناقضاً مدبراً لخلق روح القلق والضياع والغربة ، ذلك هو الربط بين دراسـة مثاليات الحضارة وأحلام القوميات الأخلاقية بما يرتفع بالنفس البشرية إلى الصورة المثلى فى الـكتب ، فإذا مااتصل الناس بالحياة واجهوا معارضة تامة وصورة مختلفة فيشعرون بما يشبه الصدمة بين عالم المثال وعالم الواقع .

ويركز الباحثون جميعاً على أن مصدر الأزمة كلها هو ضياع الإيمان واليقين وإن إمكانيات العلم وقدراته الضخمة لم تستطع أن تحقق الثقة .

فحيث ألقى الدين السلاح إزاء طغيان العلم ،فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، جاء العلم فى منتصف القرن العشرين فألقى جميع إمكاناته ومقدراته معترفاً بالعجز أمام الأسئلة الأبدية المطروحة ، وهـكذا سقط آخر درع تحصن به الإنسان[1] بعد أن سقط التاريخ والفلسفة . غير أن هذه النتائج الحقيقية قد تصدتها دعوة أخرى خطيرة تقول :

---

(١) بتصرف عن نجيب صالح : فى بحثه عن الطلاب جيل الغضب والثورة .

« إن مجتمع غربة الإنسان يجب أن يزول من التاريخ لأننا نصنع عالماً جديداً أصيلا » .

هذه الصيحة هى الغاية التى ترمى إليها الفلسفة الماسونية ومخططات اليهودية التلمودية على النحو الذى صورته بروتوكولات صهيون .

هذه هى الصيحة الخطيرة التى تكمن وراء كتابات هربرت مركوز وكثير غيره ممن يحملون اليوم على النظامين الرأسمالى والماركسى جميعاً والدعوة إلى المجتمع العالمى واحتواء الفكر الغربى لجعله فكراً عالميا هو من أعمال الصهيونية العالمية . ومن هنا قد استطاعت اليهودية العالمية احتواء الحركة الهيبية وحركات الشباب إلى الغاية التى تريدها ، من خلال الوعد برؤيا جديدة للعالم كله (وهذا مانراه أيضاً فى دعوات الروحية الحديثة وغيرها من الدعوات من حيث استغلال الفلسفات المختلفة إلى الغاية الكبرى .

ويرد بعض الباحثين نزعة الغربة والقلق التى يعيشها الإنسان المعاصر إلى تحكم الآله : وسيطرتها على الإنسان بحيث يبدو كأنما هو خادم لوثن صنعه بيده

غير أن هذا فى الحق عامل فرعى فى مشكلة تقوم أساساً على سقوط الدين والأخلاق فى مجتمعه سقوطاً فلسفياً واندفاعه إلى ظاهرة الانطلاق والتحرر الكامل من كل قيد ، مما أفقده الارتباط بمحوره الأساسى .

ولقد حاول السيس كاريل أنه يصل إلى هذا المعنى حين قال : لقد عانى المجتمع العصرى منذ نشأته من خطأ عقلى ، خطأ ما زال يتكرر منذ عصر النهضة . لقد كونت التكنولوجيا الإنسان ليس تبعاً لروح العلم ولكن تبعاً لآراء ميتافيزيقية خاطئة ، وها قد حان الوقت لكى يتخلى عن هذه المذاهب .

« يجب أن تحطم الحواجز التى أنشئت بين أجزاء المواد الصلبة بين مختلف الجوانب لأنفسنا .

« الخلطة المسئولة عما نعانيه ، جاء من ترجمة فكرة جاليلو إلى فصل الصفات الأولية للأشياء التى يمكن قياسها بسهولة عن الصفات الأخرى وهى : (الشكل — اللون — الرائحة) التى لا يمكن قياسها ، أى فصل الكم عن النوع ، ولقد كانت تجزئة الأشياء أمراً ضرورياً ولكن إهمال هـــذه الصفات لم يكن كذلك ، لقد دفعت هذه الخلطة الحضارة إلى سلوك أدى إلى فوز العلم وانحلال الإنسان » .

فعلينا أن نجدد الإنسان مرة أخرى ، يجب أن نصحح الخطأ الذى جعله شبيه بالآلة . يجب لكى نعيد للإنسان ذاتيته أن نحطم هيكل الحضارة التكنولوجية نفسها » .

ويتساءل بعض الباحثين : « هل اتجه العلم نحو الإنسان ليكون إنساناً .

هل طرح العلم أى جديد أمام قضايا العصر الميتافيزيقية التى تقلق الإنسان والإجابة » إن العلم نفسه أصبح أزمة من أزمات الانسان تضيف إلى مأساته أخطر حلقة مأساوية فى تاريخ البشرية[١] .

« لقد حاول العلم أن يحل قضية الانسان فغرق وأغرقه فيها وإذا كانت البشرية تتعلق جيلا بعد جيل بآمال لحل قضاياها الكونية فإنها بعد اعتراف العلم بعدم قدرته تصبح معلقة بخيوط الهواء .

* * *

ويعرض (هيربك . ج . دوسو للابرايس) أستاذ علم التاريخ بجامعة ييل لدور العلم فى حل قضايا الانسان المعاصر فيقول :

---

(١) بتصرف عن نجيب صالح .

إن مسئولية رجال الفكر فى وقت كثر فيه الحديث عن العلم والتكنولوجيا هى النظرة إلى الوراء فى التاريخ استكشافاً لجذور الأوضاع السائدة اليوم ثم التطلع إلى المستقبل لإتاحة قدر ممكن من المعرفة أمام مجتمعنا الذي يبحث اليوم عن استراتيجية جديدة .

« إن العلم ينمو بسرعة تتضاعف ثمان مرات لكل مضاعفة فى كل الأمور غير العلمية ، فهو ينمو بسرعة تجعل كل ما عداه يبدو بالمقارنة وكأنه ساكن تقريباً » .

ومعنى هذا أن العلم قد سقط فى إمكان إعطاء البشرية مفهوماً كاملا أو يجيب عن الأسئلة الخالدة : لماذا نحيا ، ولكن معنى هذا أن تبحث البشرية عن الدين الحق لتعرف أن القوى الغازية المسيطرة تعرف كيف تحول بينها وبين ذلك وتمهد لها لتذهب فى تيه جديد .

(٥)

إن الملاحظين يرون أن الدين بمفهومه فى الغرب (المسيحية الغربية) والفلسفة والتاريخ جميعاً قد عجزوا عن تحقيق المطمح البشرى إلى الايمان واليقين :

أما الدين فقد كانت المسيحية الغربية على النحو الذى صيغت فيه بعيداً عن مفهومها الأساسى عاملا خطيراً فى تعويق النهضة ، ومقاومة العلم ، وتأليه الانسان ، ووضع الخطيئة أمامه كحاجز ضخم .

ثم جاء التفسير المادى للتاريخ فعجز أن يقدم له حلا لمشكلته ، ثم جاءت الفلسفة فتخبطت تخبطاً شديداً ودفعت الانسان دفعاً إلى أحضان المادية القاسية وساقت الناس إلى تعمق الشك فى القيم الدينية والأخلاقية ، وجاء العلم فعجز عن أن يحقق للبشرية شيئاً فى مجال الايمان والتيقن .

كان هذا اليأس من كل المقررات التى فرضت نفسها هو دافع حركة الرفض والغربة التى استطارت باسم الهيبية .

والهيبية هى صيحة اليأس الكامل والعودة إلى عصور الكهوف والغابات وشواطىء الأنهار بالعرى والسلبية ورفض المجتمع ، والالتجاء إلى العقاقير والمخدرات التى تدفع إلى الذهول والاستغراق . وسقوط كل قيم الروح والكمالات الانسانية والاتجاه نحو الجنس وعبادة الجسد ، ومعارضة الحضارة والعمل والنظام ، وإنكار فطرة الزواج والأسرة ، وفهم الحرية على أنها الانطلاق الكامل من كل قيد واللاأدرية والخوف من الموت ، ضد العقل والروح معاً ، وضد القيم والتاريخ .

ويرى بعض الباحثين : أن الهيبية فلسفة جديدة ويردونها إلى خلاصة فلسفات الشرق والقديم من وثنية ومجوسية (مانو وبوذا وزرادشت) .

ولما كانت الهيبية تهدم كل شىء وتحطم كل القيم فانها تقف عند ذلك دون أن توجد بديلا لما تقوم به .

غير أن القائمين من وراء الهيبية وثورة الشباب يحاولون أن يعطونها مدداً جديداً حين يدعون إلى توجيهها نحو اليوجا والفلسفة الهندية القديمة التى تقوم على وحدة الوجود والبوذية بمفهوم النرفانا، ومعنى هذا أن تقوم الهيبية على وهم آخر ، يستمد من الفلسفات الوثنية التى حطمت شخصية الانسان فى الماضى ، ودفعته إلى الغرق فى لجج وأوهام النسك والتصوف ومسائل الكشف والحلول والاتحاد وذلك ما يمكن أن يصل به إلى مفاهيم الروحية الحديثة التى هى إحدى دعوات اليهودية التلمودية ، ومن هنا تجرى محاولة تقديم إبطال الوثنية القدامى كنماذج للبطولة الجديدة .

الفصل السابع

فلسفة وحدة الحضارة

أو « الحضارة الواحدة »

يحاول الفكر البشرى أن يطرح فى مجال الحضارة مفهوماً فلسفياً تاريخياً يقول بأن العالم لم يشهد غير حضارة واحدة : هى حضارة البحر الأبيض المتوسط ، هذه الحضارة التى تتصل من القديم بالفينيقيين ، والبابليين والحيثيين والآشوريين والكلدانيين والآراميين وغيرهم ، وهى التى لم تلبث أن أصبحت حضارة يونان ورومان ثم دخلتها عناصر عربية فى فترة من فتراتها ثم لم تلبث أن عادت مرة أخرى إلى أوربا ويرى أصحاب هذه الدعوة أن هذه الحضارة قامت على ثلاثة قوائم هى الفكر اليونانى والنظام الرومانى والدين السامى .

هذا الرأى يحمل لواء الدعوة العنصرية من أجل خلق تصور بأن الحضارة التى ظهرت فى شرق البحر الأبيض المتوسط وغربه واحدة ، اتصلت فى العصر القديم ثم اتصلت فى العصر الحديث مرة أخرى حيث الحضارة الغربية سائدة مسيطرة والشرق كله مطحون تحت جناحها بالسيطرة والتبعية . وهى فى محاولة إبراز دور الشرق فى القديم إنما تركز على كل العناصر الوثنية من تراث بابل وآشور ومصر وترى أنها أعطت اليونان ثم عاد اليونان والرومان فسيطروا على هذه المناطق ألف سنة .

حتى الدين السامى الذى يجعلونه عنصراً من عناصر هذه الحضارة الواحدة

يرده أصحاب النظرية إلى « عناصر وآثار تعود إلى أصول هندسية وفارسية ومصرية غير أن الساميين صهروها بحرارة أرواحهم فنفوا منها الدغل فانجلت الخرافات والأساطير عن دين حي فعال بعث فى قلب الإنسانية الرجاء والأمل» وهو تصوير بجحف للأديان الكبرى المنزلة التى إتخذت من هذه المنطقة قاعدة ومنطلقاً لعطاء البشرية كلها .

وكأنما تقصر النظرية التى يرددها جورج سارتون فى كتابة :

(Tle unity and Xinersity of the medilarr anean world)

كانما تقصر العطاء والتبادل والحركة بين محورين لا غيرهما :

محور اليونان أو روما فى الغرب ومحور فينيقيا أو لبنان فى الشرق فاليونان والفينيقيون هم وحدهم حملة لواء الحضارة فى مجال الملاحة والتجارة والثقافة . كانت فى يد الشرق ثم تسلم اليونان زمامها فى أوائل القرن الخامس للميلاد . بعد أن مضى على بشها نحوا من ألفى سنة ومن ثم كان البحر الأبيض مجالا للتنافس اليونانى الفينيقى حتى قام الأسكندر فنشر لواء الثقافة الهيبية فامتدت حتى أواسط آسيا والهند ، ثم جاء الرومان فجمعوا هذه المنطقة كلها فى ظل الإمبراطورية ثم قامت الكنيسة بأعباء التبعية لما تداعت الحضارة الرومانية .

ثم جاء الإسلام ودخل الغرب معترك التاريخ .

غير أن جورج سارتون وغيره من دعاة الحضارة الواحدة يقفون أمام دور الإسلام وقفة بعيدة عن واقع التاريخ وحقائقه ، فيها كثير من الظلم والإنتقاص للدور الضخم الذى قام به ، وللتغيير الجذرى الذى أدخله على الفكر والتاريخ والجغرافيا .

ذلك أن النظرية الظالمة تقول أن دور العرب لم يعدو أن يكون : نشر ماورثوه من الفرس ، وما اقتبسوه من البيزنطيين والأقباط وما أخذوه من

النصارى واليهود وصابئة حران الوثنية ، ولم يكن عملهم أكثر من أنهم حملوا لواء الحضارة الواحدة : لواء حضارة البحر المتوسط ، وزادوا عليها ونشروها في أنحاء أمبراطوريتهم من الأندلس غرباً إلى الصين ومن بحر الخزر إلى منابع النيل » .

ذلك أنه الخطأ الفادح التي يحاول أن يصور الحضارة الواحدة « الفينيقية الهلينية » وقد احتوت العرب واستولت على المسلمين، فدخلوا في مجراها وصبوا فيها ما كانوا قد استقوه من حياة الثقافات الأخرى ، على حد تعبير « أنيس فريحه » ، ولذلك فإن دور العرب الذي قاموا تجاه هذه الحضارة : لم يزد أن يكون في تقديرهم عن الدور الذي قام به من سبقهم من شعوب المتوسط (كالإيجيين والفينيقيين واليونان والرومان) .

وكأنما لم يكن دور العرب والمسلمين دوراً شاملا وقيادياً ومختلفا كل الاختلاف عن كل الأدوار ، بل كان فيصلا بين عهدين وعصرين في تاريخ الإنسانية كلها .

ويرى أصحاب هذه النظرية أن العـــرب « لم يدخلوا التاريخ العالمي إلا عندما خرجوا من الصحراء ودخلوا في حوض البحر المتوسط وساروا في مجرى حضارته » بل أن ظلم النظرية يتجاوز هذه الدعوى إلى دعوى أشد عنفاً وقسوة حين يقول : أن العرب بعد أن خرجوا من الصحراء قبل ثلاثة عشر قرناً ووجوههم مصوبة نحو الغرب لا الشرق ولم يكن للصحراء أثر محسوس في ثقافتهم وحضارتهم » .

والحق أن العرب قد استمدوا وجودهم الفكري من محور « مكة » الأصيل الذي بدأ به ابراهيم وانتهى به محمد صلى الله عليه وسلم وليس محور مكة هو الصحراء بالمعنى الذي تصوره هذه الكلمة ، ولكنه هو مهبط وحي الرسالة

التى بدأت بحنيفية ابراهيم السمحاء واكتملت برسالة الإسلام الخاتم التى جاء بها محمد . فالصحراء بهذا المعنى هى التى أهدت الإنسانية أروع معطيات الحق والتوحيد . ومن هنا فإن المسلمون والعرب لم تطرف لهم عين فى الاتجاه نحو الكعبة فى مكة فهى قبلتهم فى الصلاة . وهى قبلتهم فكرياً وروحياً وثقافياً . ومن هنا فإن أثر الصحراء بهذا المعنى كان محسوساً فى كل مقدرات حياتهم منذ يوم بزغ ضوء الإسلام وإلى اليوم وإلى آماد بعيدة لا حصر لها .

(٢)

هذه النظرية تحاول فرض الاستعلاء العنصرى الأوربى الغربى من خلال منطلق استعمارى وسيطرة ثقافية وتغريب واحتواء ولكنها فى نفس الوقت تحاول إعلاء مفهوم يحاول أن يسيطر على الفكر العربى نفسه ويحتويه وهو نظرية الأجناس والعنصرية اليهودية التلمودية التى فرضت على التوراة بالتحريف لإقرار مفهوم السيطرة المستمدة من مفهوم « الشعب المختار » الذى يحاول أن يرفع نفسه فوق أجناس الأرض جميعاً من خلال أسطورة لم تتحقق علمياً ومن خلال واقع يريد أن يفرض نفسه على كل مقدرات التاريخ والعلم والصحافة والثقافة المعاصرة بالتزوير والتحريف . والإضافة والحذف . ومن الحق أن يقال أن الإسلام جاء فاصلا بين عهدين : وأنه قد صحح كل مفاهيم التوحيد والدين الحق والشريعة والأخلاق ووضعها فى الصورة النهائية .

ومن المعروف أن كل ثمار المعرفة الإنسانية إنما جاءت بها الأديان السماوية المنزلة ثم اختلطت بالفلسفات والتفسيرات البشرية ثم لم تلبث المفاهيم الأصيلة أن انحرفت واستعلت مفاهيم الفكر البشرى وسيطرت بالوثنية والتعدد والعنصرية وعبادة الأجساد والأبطال وإعلاء العقل أو الوجدان على النحو الذى عرفته الفلسفتين اليونانية الإغريقية والحلولية الشرقية . وكذلك انحرفت الأديان السماوية عن مضامينها الأصيلة انحرافاً خطيراً فظهرت نظرية : إله الجنود عند

اليهود والأبوة الإلهية عن المسيحية ، ومن وراءها نظريات إنكار البعث والالتزام الأخلاقى ممثلا فى القول بوحدة الوجود وغيره من انحرافات .

ولذلك فقد جاء الإسلام راسماً المنهج الربانى الذى يهدى الإنسانية إلى التوحيد الحق ويحرر العالم من زيف نظريات الفكر البشرى ، ومن اضطرابها وفسادها .

ومن هنا فإن ما جاء به الإسلام لم يكن فى الحق كما صوره جورج سارتون وغيره من دعاة نظرية الحضارة الواحدة : لم يكن كل ما قدمه الفكر الإسلامى هو ما ورثه العرب من الفرس وما اقتبسوه من البيزنطيين والأقباط أوما أخذوه من النصارى واليهود وصابئة حران الوثنية . ذلك لأن معطيات الإسلام إنما جاءت سابقة سبقاً بعيداً عن ما يحاولون الإشارة إليه مما ترجم إلى الفكر الإسلامى من فلسفات ، فقد استكمل الفكر الإنسانى منهجه الأصيل ومضمونه الواضح المستمد من القرآن قبل أن تترجم الفلسفات . ولم تزد الفلسفات الفكر الإسلامى شيئاً ، بل لعل الفكر الإسلامى بذاتيته الأصيلة قد استطاع أن يتحرر من منطق اليونان ووثنية الفرس وتعدد الهنود وغيرهم ، وظل قادراً على أن يقدم للبشرية منهجاً صادقاً متكاملا من القرآن ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . أن ما ورثته البشرية من الفرس والبيزنطيين والنصارى واليهود وصابئة حران الوثنية إنما هو ذلك الحصاد الذى واجهه الإسلام بالحق وقال فيه كلمته النافذة الحاسمة .

(٣)

إن المراجعة الحقيقية لتاريخ الحضارة فى الشرق يرتبط بهجرة ابراهيم عليه السلام حوالى ١٧٥٠ قبل الميلاد والتى تمتد تاريخيا إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرن السابع بعد المسيح ، والتى تمتد جغرافياً من العراق إلى سوريا إلى مصر إلى الجزيرة العربية والتى مرت من خلالها مختلف الأديان السماوية المنزلة

وقامت فى ظلها الحضارات الأشورية والكلدانية والفينيقية والآرامية وكلها عناصر ترجع إلى أصل واحد هو ابراهيم كما أن كل الأديان القائمة اليوم ترجع إلى أبناء ابراهيم : إسماعيل وإسحق ومن هنا فإن الحضارة قد بدأت فى فرع ابراهيم الذى يقطن مناطق سوريا وبين النهرين والذى كانت عناصره قد هاجرت أساساً من الجزيرة العربية وتشكلت فى شمالها ثم كانت رسالة محمد فى الفرع الاسماعيلى الذى يرتبط بهجرة إبراهيم إلى مكة ورفع قواعد البيت وإقامة دين الحنيفية والتوحيد الذى جدده محمد ﷺ ومن الحق أن يقال أن هذا العالم بحدوده الجغرافية والفكرية هو عالم الحنيفية والعروبة وهو نفس العالم الذى حاولت أن تصوره دعوة إبراهيم فى ذريته القائمة بالحق والتوحيد . غير أن تياراً حاول أن يصارع هذه الدعوة : ذلك هو المحاولة اليهودية والتلمودية لتحريف التوراه والخلق تصور عنصرى قائم على مفهوم الاستعلاء من خلال أسطورة « شعب الله المختار » وإن المراجعة الدقيقة للعهد للقديم تكشف تبايناً واضحاً بين اليهودية وبين مفهوم الدين الحق وتعارضاً عميقاً حيث يكشف العهد القديم عن عنصرية واضحة واستعلاء صريح . يخالف مخالفة صريحة مفهوم الإيمان بالإله الواحد حيث الناس جميعاً أمة واحدة لافضل لأحد على أحد ولاجنس على جنس إلا بالعمل .

غير أن اليهودية التلمودية لم تلبث أن حرفت التوراة وأزالت هذا المعنى من الحنيفية السمحة واستبدلته بمفهوم [العنصرية] وقد أوضح هذا المعنى الدكتور إسماعيل راجى الفاروق حيث يقول فى بحثه عن مقارنة الأديان : « إن التوراة قد صهرت الحقائق التاريخية فى قالب يؤكد العنصرية أما القرآن فقد قدمها فى كتاب يؤكد الحنيفية . ولكن المسألة ليست مجرد اختلاف وجهة النظر بين الكتابين ، فالتوراة يوماً ما هى أيضاً قدمت الحقائق من وجهة نظر الحنيفية ، إلا أنها غيرت نفسها على مرور الزمن وهذا دليل على أن الحنيفية أو الخبر التاريخى كما قاله القرآن الكريم هو الحق ، فوجود الحنيفية فى التوراة بشكل محرف دليل خارجى على صدق خبر القرآن الكريم » ثم

يعنى الدكتور الفاروقى يصور الفرق بين العنصرية وبين الحنيفية فيقول :
« العنصرية : تمثل حزب أو قبيلة من المهاجرين أنفسهم كنوع من أفضل المخلوقات واتباع نظام أخلاقى يقضى بالحفاظ على سلامة عنصرهم وعدم الانصهار فى أى قبيلة أو شعب أو أمة أخرى أما « الحنيفية : فهى تمثل المهاجرين أنفسهم كذوى رسالة يحملونها إلى البشر أجمع ويخصونها بالانصهار فى جسم البشرية التى كانوا ويأهداء – الذين ينصهرون معهم عن طريق المصاهرة والمؤاخاة — لغتهم وثقافتهم ورسالتهم ، لذلك جاءت التوراة بعد أن بلورتها العنصرية يقول : إن إبراهيم هاجر لأن يهوه أمره بذلك ، ولكنها تتعمد السكوت على أمر يهوه ، فهى تقول أنه أمر تلقائى عرضى أى لا سبب له فالله فى نظرها فضل إبراهيم لأنه هو ، وقد فضل ذريته لأنها ذريته بل قطع عهداً (لاميثاقاً) على نفسه بتفضيلها مهما حصل إلى الآن حتى الإله تمثلته كإله هذا العنصر من دون الناس « أما القرآن فجاء يعلن أن الله إله الجميع لاقدرة وقهراً بل حباً ورحمة ، وجاء يؤكد أن هجرة إبراهيم لسبب وجيه « هو التوحيد ، وأن الله أعطى له ميثاقاً بأنه تعالى سيجازيه أحسن الجزاء إذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات وأنه تعالى سيعاقبه أشد العقاب بل سيبدله وقومه إذا لم يحققوا هذه الأمانة « إذن نحن أمامنا نزعتان : نزعة أقلية متخثرة ونزعة أخلاقية متفتحة أخلاقية ، لولا الأولى لما استطاع المهاجرون الذين تابعوا سيرهم إلى مصر الابقاء على عنصرهم فى مصر ولما اضطهدهم المصريون ولولا استمرارها لما كان تاريخ اليهود المعروف فاليهود أبناء هذه النزعة» . هذه النزعة العنصرية هى التى تحاول أن تفرض نفسها على مفهوم الحضارة الواحدة بينما حقائق التاريخ تثبت غير ذلك تماماً : تثبت أن الاسلام جاء مجدداً لدين إبراهيم الحقيقى القائم على التوحيد الخالص .

(٤)

تؤكد المصادر المختلفة أن اليهود حرّفوا العقيدة التى جاء بها موسى وزيفوا

التوراة من أجل إعلاء مفهوم اليهودية التلمودية الذى عرفوا به على مدى العصور : قوامين على الربا والعنصرية وتأليه المال .

وقد صور ذلك أحدهم ول ديورانت فى كتابه قصة الحضارة بأوضح بيان : « يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه على الصورة التى كانوا هم عليه وجعلوا منه إلهاً (هو الاله يهوه) فهو ليس خالقهم بل مخلوق لهم. وفى يهوه صفاتهم الحربية ويهوه إله قاس مدمر متعصب لشعبه ، لأنه ليس إله كل الشعب بل إله بنى اسرائيل فقط ، وهو بهذا عدو الآلهة الآخرين كما أن شعبه عدو الشعوب الأخرى » ومن خلال هذا التحريف نشأت نظرية الشعب المختار وفكرة السيطرة على العالم «وتغلغلت فكرة الشعب المختار فى أعماق النفسية اليهودية حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الديانة اليهودية بحيث أنها تصبح والعدم سواء اذا جردت منها »[٢] ومن هنا كانت انطلاقة السيطرة على أساس أن المال هو الإله الحقيق : على حد تعبير كارل ماركس حين يقول ان المال هو اله اسرائيل المطاع وامامه لا ينبغى لأى اله أن يعيش»[٣].

ومن هنا كانت محاولة اليهود فى فرض هذا الاله على العالم كله فإذا تحقق ذلك كان نصراً ساحقاً لليهود . ومن هنا تحاول اليهودية التلمودية أن تفرض نفسها مصـــدراً للحضارة منذ فجر التاريخ واحتواء كل ما قامت به الأمم المختلفة فى منطقة الشرق من خلال دين ابراهيم . وتجرى تحريف التاريخ بما يوافق هذه الغاية .

ويجرى هذا التحريف مجارى عدة : فهو يحاول أن يستوعب الفكر الاغريق

---

(١) ول ديورانت قصة الحضارة ص ٣٤ ج ٢

(٢) فؤاد محمد شبل : فلسفة الحضارة

(٣) ماركس : المسألة اليهودية

الوثنى القديم ويستعيده من جديد، كما أنه يجرى تجديد الدعوات السابقة للإسلام كالفينيقية والأشورية والبابلية والفرعونية والوثنيه العربية الجاهلية.

ويحاول إنكار رحلة إبراهيم إلى الجزيرة العربية ومايتصل بهـا من بناء الكعبة وقيام مايتصل بنبوة إسماعيل وقيام دعوة التوحيد فى مكة قديما.

ومن هنا يبدو إعلاء العنصرية اليهودية التى قاومت دعوة المسيح عيسى الذى جاء برسالته داعياً إلى مقاومتها وشجبها. لقد دعا المسيح عيسى إلى هدم العنصرية اليهودية وحذر منها.

وقد جاء القرآن بالقول الفصل فى هذه القضية كلها. فأعلن أنه نبوة إبراهيم وملكه ليست بنوة دم أو ميراث وإنما هى بنوة فكرة وايمان: وقد قررت الأديان كلها (بمافيها اليهودية والمسيحية) شجب العنصرية وجعلت موضع التفاعل بالعمل وأن نسب إبراهيم نسب عمل بما آمن به وهذا مايصوره القرآن فى قوله [وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال أنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال: لاينال عهدى الظالمين].

فضلا عن إشارة القرآن إلى أن إبراهيم لم يكن يهوديا ولانصرانيا وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده، ومن كل هـذا يتقرر أن الحنيفية السمحة هى التى شادت هذه الحضارة التى عرفها الشرق كله والتى قامت أساساً على التوحيد ثم إنحرفت عنه من خلال الدعوة العنصرية التى قادها اليهود فأفسدتها إفساداً شديداً وغلبت عليها الفكر البشرى بوثنيته وآلهته ثم جاء الإسلام مجدداً لدعوة التوحيد ومحرراً لها من عنصرية اليهود وتعدد النحل الأخرى.

(٥)

ومعنى هذا أن الدعوة الحنيفية التى دعا إليها إبراهيم والأنبياء من ملته جميعاً إنما كانت تقوم على التوحيد الخالص وعلى نشر رسالة خلقيـة «تقوم

على المساواة والعدل وغيرها من القيم الثابتـــة الأزليـة الأبدية » .

كانت هذه المنطقة الجغرافية من النيل إلى الفرات والجزيرة العربية هى منطلق هذه الدعوة إلى العالم كله ، ومن هنا كانت وحدة هذه المنطقة تاريخيا ولغوياً وعقديا وفكرياً وسلوكا وخلقاً[١] .

غير أن هذه الدعوة حين أفسدتها العنصريه اليهودية ، تجددت من بعد فى بيئة عربية خالصة - يقول الدكتور الفاروقى: « لما أراد العبرانيون أن يجعلوا من أنفسهم طائفة قائمة بذاتها متميزة ، ثارت روح العروبة لتصون قيمة من أعلى القيم فى رسالتها وهى إنعدام الطائفية » .

« وجاءت المسيحية لتؤدى هذا الجانب الايجابى أداءاً صريحاً (جانب مقاومة التمايز) .

ولكن هذا الآداء عندها كان أميل إلى الانحصار فى الذات ، وكان لابد من تكملة تخرج هذا الجانب الايجابى إلى دنيـا العمل ليتحقق للأخلاقية وجودها الظاهر إلى وجودها الباطن فكان الاسلام ويقول : ونلاحظ أن أبناء العروبة وحدهم هم الذين أخذوا بالفكرة من حيث هم أمة بأسرها ، أما عند سواهم فقد توقفت الفكرة عند قلة من الأفراد .

لذلك لم تكن هذه الفكرة أساساً لحركة ثقافية بعيدة المدى إلا عند العرب أما عند سواهم فقد كانت تجىء هنا وهناك على لسان هذا الفيلسوف أو ذاك دون أن يكون لها صدى فى تيار الحياة العقلية الجارية ، ولكن ماهى هذه الرسالة التى حملها العرب باسم الحنيفية أولا ثم زيفتها العنصرية اليهودية ثم حملوها مرة أخرى باسم الاسلام ؟

---

(١) راجع الدكتور إسماعيل راجى الفاروقى فى بحثه عن العروبة الحنيفية .

يجيب على هذا الدكتور الفاروقى :

« القول بوحدانية القيم »

وهو أمر تفرد به العرب دون سواهم : ووحدانية القيم هى وحدانية الله، وهذه الوحدانية هى إدراك عربى صميم طرأ على الوعى العربى مصطحبا جانبه الأخلاقى منذ نشأت حركة العروبة (يقصد الحنيفية الابراهمية) فى الماضى السحيق .

«على حين ان غير العرب من الشعوب قد لبثت قرونا حتى بعد أن أخذت بالوجه الدينى من تلك الوحدانية قبل أن يدرك جانبها « الخلقى » ، وأعنى بوحدة المعيار بين مختلف الناس بغض النظر عن أجناسم وألوانهم «ولب هذه الرسالة هى أن الله موجود وأنه واحد ، أما وجوده فمعناه عند العقل العربى وجود القيم وجوداً مستقلا عن الإنسان ووجوده ، أعنى أنها ليست من صنع الإنسان يضعها كما تقتضى ظروف عيشه ، ومعناه كذلك عند العقل العربى أن حيـــاة الانسان على هذه الأرض لم تكن عبثاً ، أما كون الله واحداً فمعناه عند العقل العربى أن القيم تحمل معياراً واحداً لا يتأثر باختلاف الزمان والمكان «فالمعيار واحد بكل إنسان أنى كان وحيثما كان ، فليس لكل مجموعة من الناس معيارها الخلقى ومعيارها الذى تقيس به الحق بل الخير خير بالنسبة لكل البشر والحق حق بالنسبة للناس أجمعين .

« فالقول بوجود الله ووحدانيته إذن هو فى صميم الاعتراف بموضوعية القيم وتخليصها من قيود النسبية التى تقر إختلاف المعايير باختلاف الظروف

« فالانسان أمام الله هو الإنسان لا اختلاف بين فرد وفرد إذا ماقيس الأفراد بمقاييس الأخلاق الذى هو مقياس الحق .

« هذا ما يميز العرو عن سائر أهل الأرض جميعاً ، ذلك باعتقادها أن

القيم الأخلاقية حقيقة مبعوثة إليها من السماء هداية لها فى سيرها ، على أن تلك القيم لم ترسل إليهم دفعة واحدة بل أرسلت على دفعات بواسطة الأنبياء ، من آدم إلى محمد ـ وكانت الرسالة الخلقية تزداد على مر الأيام قوة وجلاء كلما إزداد الوعي العربي لها » ا . هـ

* * *

ومن هذا التصور السليم الصحيح الناضج يبين أن العرب بالاسلام لم يكونوا قطعة غيار فى الحضارة الواحدة ، ولم يكونوا جزءاً منها ، ولم يكونوا حملة علوم قديمة وفلسفات وثنية لتقديمها مرة أخرى ، بل كانوا واجهة عريضة خاصة ، مختلفة كل الإختلاف متباينة كل التباين ، تفرق فرقاً واسعاً بين فكر وفكر ومفهوم ومفهوم وحضارة وحضارة .

وانها كانت تجديداً لمفهوم التوحيد الخالص الذى سفت عليه رياح وأعاصير فردمته وأفسدته وحرفته وحولته إلى وثنية وعنصرية ومادية .

وفى ضوء حقائق التاريخ نجد أنه من العسير أن يقال أن هناك حضارة واحدة فى حوض البحر الأبيض المتوسط فإنه منذ جاء الإسلام فقد انشطر هذا الحوض وقامت حضارة لها طابعها وذاتيتها وتشكيلها الروحى والفكرى والنفسى والاجتماعى ومن خلال الاسلام أقامت حضارة لهـــا مضمونها الاجتماعى ولها نظريتها الخالصة ولها منهجها فى المعرفة ، ومنهجها العلمى التجريبى الذى قدمته إلى البشرية كلها وقامت عليه الحضارة الحديثة .

لقد قامت الحضارة الاسلامية على نحو معجز عجيب فى خلال أقل من مائة عام من حدود فرنسا إلى حدود الصين فشكلت منهجاً جديداً مغايراً بل معارضاً فى كل مضامينه لمفاهيم الفكر البشرى الذى قامت عليه حضارة اليونان والرومان والفرس والحضارة الغربية الحديثة من بعد .

ويصدق فى هذا ما أورده العلامة علال الفاسى فى بحثه عن تفسير التاريخ حين قال :

إن للتاريخ فى نظر الإسلام مرحلتان :

(أولا) مرحلة العمليات التاريخية التى سبقت بعثة الرسول وهذه لم تكن إلا تمهيدا لإبلاغ الإنسان رشده عن طريق إكمال الدين بوجود محمد خاتم المرسلين .

ولم يكن « محمد » بدعا من الرسل فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات إصلاحية تشمل كل بقاع العالم ولكنها لم توفق إلى البقاء وأصابها الانحراف الذى يستوجب أن تجدد وتصلح لتفتح آفاق التقدم الإنسانى، فكان لابد أن يبعث الرسول الخاتم الذى يضع الإنسان فى جو الرشد المبنى على العقل والروح والقلب والجسم فكل ما سبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة هى وجود الرسول نفسه وبذلك يصبح ماضى الأمة وكانه ما قبل التاريخ ، أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الإسلامى .

(ثانياً) المرحلة الثانيةهى نهاية التاريخ الدنيوى والوصول إلى عالم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من خير أو شر وبهذا الامتداد التاريخى إلى ما بعد الموت يزول كل تناقض ممكن بين غاية التاريخ وبين أسباب عملياته » ا.هـ .

ومعنى هذا أن هناك حضارتان : حضارة واحدة سبقت الاسلام على النحو الذى أرادها لها أصحابها من إقامتها على أسس الفكر البشرى وحصيلته الضخمة من الوثنيات والأساطير ، وهى الحضارة الوثنية .

وحضارة التوحيد التى بدأ بها الاسلام مجدداً دعوة الله القديمة الحنيفة فى هذه الأمة إلى التوحيد والأخلاق . ومن هذا يبدو زيف دعوى القول بأن

العرب كانوا جزءاً من حضارة البحر المتوسط القديمة والجديدة . ومرحلة من مراحلها .

(٥)

بل أن الأمر أبعد من ذلك كثيرا ، فان الاسلام كان له أكبر الأثر فى التاريخ الغربى وفى الحضارة وقد اعترف الغربيون بأن ظهور الاسلام هو الحادث الانسانى العظيم الذى غير مجرى التاريخ وأنه هو الحد الفاصل بين القرون الأولى والقرون المتوسطة .

وقد شهد بذلك صفوة من الباحثين فى مقدمتهم (هنرى بيرين) فى كتابه (محمد وشارلمان) فقد نوه بأن الاسلام كان القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأوربى حتى ليمكن أن يقال أن العصر الوسيط ، والنهضة الحديثة ثمرتان من ثمار جهود الاسلام .

فلم تكد تهب ثورة الاسلام وتسير ركائبه إلى أراضى الرومان حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار . « وأنه قد قامت دولة جديدة وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوربا من المشرق والجنوب فاضطرت ملوكها أن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالى من أوربا فى العصر الوسيط وإبان العصر الحديث .

« أما الجزء الجنوبى من أوربا فلم تقع فيه إلا معركة بواتيه التى انتصر فيها شارل مارتل على جيش الأندلس فلولا ظهور الاسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة وان انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق،ولظل البحر الأبيض بحراً رومانيا ولما قامت الثورات القومية التى خلقت دول أوربا الحديثة ولا الثورات الفكرية التي تمخضت عن الحضارة الراهنة .

الفصل الثامن

الفلسفة الروحية الحديثة

تقوم الفلسفة الروحية الحديثة على طرح ايدلوجية جديدة عن طريق عالم الروح بعيداً عن اللون والدين والمذهب السياسى . وتقوم على أساس فكرة جديدة عن الله ومشيئته .

وهى ترى فى دعاة الروحية انهم مرسلون كالأنبياء ، وان كانت تعاليمهم أرق . ويرى أصحاب الفلسفة الروحية أن الأديان على اختلافها قد أوحيت فى أزمان مختلفة لأمم خاصة .

ومعنى هذا أنها مما لا يصح الركون إليه فى كل دوار البشر وجميع أجيالهم

وأصحاب الفلسفة الروحية لا يقرون الكتب السماوية (القرآن والانجيل) وقد يستعملون نصوصاً منها يحرفونها عن مواضعها فى سبيل إقناع البسطاء .

وتدعو الفلسفة إلى الاخاء والحرية والمساواة (شعار الثورة الفرنسية) المستمد من الفلسفة الماسونية وتقوم الفلسفة الروحية الحديثة من حيث ظاهرها على محاربة المادية والالحاد وإثبات إستمرار الحياة بعد الموت ولكنهم يتخذون من ذلك وسيلة إلى القول بأن رسل الله وانبياءه ليسوا إلا وسطاء بين الله وخلقه . وإن هذه الرسالة قائمة لا تنقطع .

وتقرر الفلسفة الروحية أن لب الدين بذل الخير لخلق الله ولا حرج على الناس فيما وراء ذلك . وأن طقوس الأديان ليست إلا أساليب لبلوغ هذه

الغاية. وأن باب التوبة مفتوح بعد الموت. وأن النار والجنة حالة عقلية أو حالة نفسية. أو هما واقع يحسمه الفكر ويصبغه الخيال.

* * *

وتدعو الفلسفة الروحية إلى التجرد من التكاليف والشعائر الدينية[١].

وبالجملة فان فلسفة « الروحية الحديثة » هي محاولة « لانتزاع الشخص من دينه وقوميته وصبه في قالب جديد من العالمية أو الكونية. وهي تستخدم لذلك مختلف الوسائل حتى أنها تستخدم الدين في هدم الدين ».

ومما يقوله فلاسفة الروحية أن الانسان خالد على الأرض وأن الوحي لم ينقطع بوفاة (محمد صلى الله عليه وسلم) وأن الأنبياء ليسوا إلا وسطاء ».

وأخطر دعواهم محاوله التمهيد لعصر جديد وما يسمونه «تهيؤ العالم للقرآن الجديد الذي تأتي به الأرواح لينقذ العالم من حماة الصراع والشرور » وتقوم مفاهيمهم على تأويل الآيات القرآنية تأويلا عجيباً توصلا الى منهجهم.

« وهم ينكرون القيامة على ما يفهمها العلماء لأنهم يعتقدون أن الأرض خالدة وأن الانسان خالد فيها، ويرون أن القيامة قيامتان :

قيامة عدل وقيامة نقمة. أما قيامة العدل فهي قيامة الحياة على هذه الأرض كما يعيشها الآن، أي حياة الصراع بين البشر، أما قيامه النقمة فهي اليوم الذي ينعم الله فيه على الأرض فتسودها الروحية بتعاليمها ويسود (آدم) الجديد في عالم لا يحكمه إلا السلام »[٢].

* * *

(١) راجع دكتور محمد محمد حسن في بحثه : الروحية الحديثة حقيقتها وأهدافها.
(٢) عبدة الراجحي : في كتابه الشخصية الاسرائيلية.

وقد ظهرت كتابات متعددة تحاول أن تصور الروحية الحديثة بأنها دين جديد، وأنها منظمة لكل البشر، وعن طريقها سوف يوضح سكان العالم الروحى طريقة جديدة للحياة، ويعطوا البشر فكرة جديدة عن الله ومشيئته.

ويأتون بالسلام والطمأنينة الروحية وبسعادة النفس والقلب، ويحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد، وبين العقائد والاديان (١).

* * *

ويرد كثير من الباحثين الفلسفة الروحية الحديثة إلى نفس مصدر الماسونية والثيوصوفية والبهائية. يقول الدكتور محمد محمد حسين : من المعروف أن الصهيونية الهدامة تكمن وراء كل الحركات السياسية والاجتماعية الكبيرة فى القرن الأخير، بل منذ الثورة الفرنسية، ومعنى هذا أن هذه الصهيونية الهدامة هى نفسها التى تخترع هذا الكلام وتنسبه للأرواح.

وواضح من كلامهم عن العلم المسيحى الحديث أنهم يعتبرون المسيحية المأثورة مسيحية تاريخية. وهذه المحاولة نفسها تطبق الآن على الاسلام وقد نجحت فى الهند ويقول : قد لاتكون الصهيونية هى المؤسسة للدعوة الروحية وأشباهها فبعض هذه الدعوات نشأ مستقلا بعيـــداً عن سيطرتهم ولكنهم تمكنوا من التسلل إليه وسيطروا عليه واستغلوه لصالحهم، وقد تكون هذه الروحية من هذا الضرب. والشىء الذى لاشك فيه هو أن الروحية فى وضعها الراهن هى شرك من شراك الصهيونية العالميـة الهدامة وآلة فى أيديهم يسخرونها لهدم المسيحية والاسلام على السواء، وهدم العصبية بكل أشكالها قومية كانت أم دينية لكى يمهدوا لقيام دولتهم الصهيونية التى يتوهمونها وسط أنقاض الخراب العالمى والانحلال الشامل الذى يسهل مهمتهم فى السيطرة على العالم كله على ما يتخيلونه».

---

(١) نفس المصدر (من تقريرات على عبد الجليل راضى)

ويشير الدكتور محمد محمد حسين إلى العلاقة بين الروحية الحديثة واليهودية التلمودية : فيقول إن هناك مطابقة كاملة بين مزاعم الروحية وبين عقائد اليهود في تصور الثواب والعقاب خاصة وكلاهما يعتقد أنهما سيكونان في آخر الزمان على الأرض. وبمثل ما يبشر به (شهود يهوه) بقرب السلام الدائم والنعيم الخالد حين تحكم إسرائيل وتنتصر على أعدائها ويضيف الدكتور محمد حسين قرائن أخرى : ذلك أن أكبر مركز للحركة الروحية الآن هو نفسه أكبر مركز للحركة الصهيونية وهو أمريكا وكثير من دعاة الروحية ومروجيها من المعروفين بصلتهم بكبار اليهود . كذلك يشير إلى سخرية دعاة الروحية بالأديان وبرجال الدين على اختلافهم فلا يبرأ منها إلا اليهود ، فلا تجدهم يهاجمون خرافات التلمود وما ينطوى عليه نصوصه المفتراة على اليهودية من قسوة وخسة وإجرام وهم يهاجمون الكنيسة الكاثوليكية خاصة لما هو معروف من شدة عدائها لليهود .

* * *

ومن القرائن التي تربط بين الروحية الحديثة والحركات الهدامة التي تقدمها الصهيونية العالمية : تركيزهم على أسماء الفراعنة من قدماء المصريين والهنود الحمر من قدماء الأمريكيين فهم يعمدون إلى هدم الإسلام عن طريق تمجيد الوثنية الضالة الكافرة ، وتصوير هؤلاء الوثنيين بعد موتهم متمتعين بطمأنينة ونفوذ لا يتمتع بها المتدينون بالإسلام والمسيحية .

(٣)

لا ريب أن القول بالروحية كطريق ومنهج فكر وحياة يتعارض مع مفهوم الإسلام القائم على ترابط الروحية وإعادته تحت لواء التوحيد الخالص .

ذلك أن الاتجاه إلى الروحية وحدها إنما ينصر أحد الجانبين ويعلي إحدى الكفتين فيحول دون التوازن والموائمة .

ومن أخطر المفاهيم : القول بأن الإنسان روح لامادة وهو من الخطأ بما يماثل القول بأن الإنسان مادة لاروح ، فالحق أن الإنسان مادة وروح . ولاريب أن أخطر ما تقوم عليه فلسفة الروحية الحديثة : هو تناسخ الأرواح والقول بأنه ليس هناك فناء للدنيا وليس هناك بعث ولا حساب .

وهى فى هذا المعنى تقوم على مذهب وحدة الوجود الذى يقول : إن الله والعالم شىء واحد ، ولا ريب أن فكرة تناسخ الأرواح وخلود الدنيا وإنكار الجزاء هى نفس مبادىء الماسونية مصاغة بأسلوب جديد ، وهى إلغاء لرسالات السماء .

وكذلك إنكارها الجنة والنار والعذاب والثواب إذ تحاول أن تصوره بأنه معنوى ويذهب قادة الروحية الحديثة إلى الدعوة للتحرر من كل القيم والعقائد :

« لاتعبدوا أنفسكم بكتاب واحد ولامعلم واحد ولامرشد واحد ، فولاءنا لا الكتاب ولا الدين ولا العقيدة ولكن للروح الأعظم وحده » وهم يذهبون إلى ماتذهب إليه الفلسفة المادية من قدم المادة :

فهم ينكرون فكرة بدأ الخليقة أو نهايتها : (ليس حقاً أن الكون كان معدوماً ثم بدأ فجأة إنما الكون كان دائماً موجوداً ، نحن نعرف الكون لابداية له ولا نهاية ، ويفاضل دعاة الروحية الحديثة بين الصلاة والعبادة وبين مساعدة الضعفاء ، فيرون إن ذلك أكثر تديناً من أى عبادة أو صلاة . وذلك الاتجاه واضح فى الفلسفات المادية التى تحول عن العقائد عن الأخلاق .

* * *

ولعل أخطر اتجاهات فلسفة الروحية المدنية : هى الاتصال بأرواح الموتى : يقول الدكتور محمد محمد حسين : « إن إطلاق الاتصال بالموتى وجعله فى متناول كل إنسان والاستعانة به فى علاج مرضانا وفى شئون دنيانا المختلفة إفساد للحياة

التى يقوم بعض عمرانها على التنافس واستباق الميزات ، وعلى المحاولة المتصلة الدائبة المتكررة فى سبيل التفوق وفى التغلب على الصعاب والانتصار على مصادر التعب والقلق ومن بينها المرض . وهو كذلك إبطال للحكمة فى خلق الموتى والحياة وما قدر الله سبحانه وتعالى وقضى من إقامة الحجاب بينهما لحكمة يعلمها تنتظم بها حياتنا فى الدنيا وآخره . ولا ينبغى أن يغيب عن البال إن فى عالم الخفاء شريرين ومفسدين وكفاراً وضالين (وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا : الجن ١١) وإن معرفة الأحياء والأموات والجن والإنس محدودة، بحدود الزمان والمكان الذى لم يحيطوا به ولا سبيل إلى الإحاطة به ، فالله سبحانه هو وحده الذى أحاط بكل شىء علماً . فمن استنجد بهم واستمدهم وعاذ بهم فقد أرهق نفسه وغامر بها فى المهالك وعرضها للشركاء (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) ومن عاذ بالله وتوكل عليه فهو حسبه سبحانه وتعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ولا سلطان لشرار خلق الله من الجن والشياطين عليه : (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) .

(٤)

« قد يخفى على كثير من الناس أن الروحية الحديثة التى تعتمد على استحضار أرواح الموتى أو ما يسمونه (Spiritualism) هى فى حقيقة الأمر شعبة من العلمانية لأنها تقوم على الدعوة إلى اخضاع عالم الغيب للتجريب فهى تلبس مسوح العلم وتصطنع اسمه حين تزعم أنها تجرى التجارب على الاتصال بأرواح من ماتوا وتدعى إن هذا سبيلها إلى رد الناس عن تيار المادة الطاغية والواقع أنها ليست حرباً على المادية كما يزعم أصحابها ولكنها إغراق فيه وإمعان فى التمسك به لأنها لا تقنع بإخضاع المحسوسات للمنهج التجريبى ولكنها تتطاول الى ماوراءها تريد أن تخضعه للتجربة واذا سلم الناس بذلك انتهى الأمر إلى إنكار كل مالا يمكن ثبوته عن هذا الطريق » .

وتعد الروحية الحديثة واحدة من الدعوات التي يحركها الصهيونية العالمية لتبشر عن طريقها بما تسميه « المجتمع الجديد » ومنها البهائية والثيوصوفية . فهي تهدف إلى القضاء على المجتمع القديم في لغته وآدابه وفنونه ونظمه وانماط حياته وخلقه ودينه وكل شيء فيه وهي خطوة من خطواتهم لاستيعاب من لم تستوعبهم المذاهب المادية، وهي تركض ركضاً الى هدف (العالمية) الذى يخططون له .

الفصل التاسع
الثيوصوفية

من المذاهب التي ابتعثها الفكر البشرى مجدداً ما أطلق عليه اسم الثيوصوفية: أى الصوفية الجديدة . وهى احدى محاولات اعلاء مفاهيم الفكر الوثنى القديم الذى عرفته فلسفات الهند وخاصة فى القول بالحلول . وقد جاءت فترة من فترات الفكر الغربى فى حيرته داعياً الى التماس مفاهيم البوذية والفلسفات الهندية القديمة ، ثم تجدد هذا فى العصر الحاضر من خلال تطلعات الفلسفات الوجودية والهيبية وقد جاءت فلسفة الحلول ووحدة الوجود قريبة من الفكر الغربى المسيحى وملتقية بها فدعاة الثيوصوفية يقولون : انه « اذا كان المسيح قد أسمى نفسه الهاً فذلك لأنه يعتقد أن ملكوت الله ليس خارجاً عنا اذ هو حال بنا ونحن آلهة مثله ، وما أرواحنا الا قبس أو شرارة من تلك الروح العامة الشاملة للكون » . ويمثل هذا يقول سلامه موسى وميخائيل نعيمة وفلاسفة المسيحيه المعاصرون.

والمعروف أن الفكر الإسلامى لا يقر هذا المفهوم ويعتبره نوعاً من الانحراف عن المفهوم الصحيح لله والتوحيد الذى يقرر أن الله سبحانه وتعالى مستقل عن العالم وهو خالقه وأن هناك واجب الوجود وهو الله (تبارك وتعالى) وممكن الوجود وهو هذا العالم وان فكرة وحدة الوجود أو الاتحاد أو الحلول أو غيرها من الفلسفات انما تستهدف القضاء على قيمة أساسية من قيم الإسلام وهى المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى الذى يستتبع المسئولية والجزاء الأخروى بعد البعث والحساب وهو ماتنكره الفلسفات الهندية والثيوصوفية .

هذا فضلا عن أن المعرفة عن طريق الثيوصوفية انما تقوم على أساس

الشعور بالباطن أو بالإلهام . وهو ما يتعارض مع مفهوم الاسلام الذي يقوم على أساس منهج متكامل من العقل والوحي ، معا .

ويمكن القول بأن ابتعاث الثيوصوفية انما هو خيط من مخطط متكامل ، يرتبط بالروحية الحديثة والبهائية ، فهي تعتمد أساساً على كتب البراهمة والبوذيين والمصريين الفراعنة والقبالة والأحاديث اليهودية وما يقوله المعتقدون بمناجاة الأرواح وتنادي الثيوصوفية بما تنادي به كل الدعوات التي انبثقت عن فكرة العالمية اليهودية ، فهي تدعو الى الاخاء العام بين الناس : دون تمييز بين العناصر والمذاهب والطبقات والجنس واللون وتتخذ نوادى الثيوصوفية وجماعاتها نفس مناهج المحافل الماسونية ، « فلا يسأل أحد عن أرائه الدينية عند الانضمام اليها ولا يسمح له بالتعرض لتلك الآراء .

وتحاول الفلسفة الثيوصوفية : أن ترتبط بمفهوم بشرى عالمى هو وجود حياة واحدة ذاتية المنشأة خالدة عامة الوجود ، وتبنى على ذلك القول بأن الإنسان خالد وتجرى الفلسفة الثيوصوفية فى نطاق مادعا اليه الفيلسوف اليهودى (سبينوزا) من أن الكون كل واحد ، وان كان مكوناً من أجزاء ، وان الله يشمل هذا الكون وأن كل جزء من الكون يعبر عن الله .

وهذه النظرية تتعارض مع المفهوم الاسلامى والتي جاءت بها الأديان المنزلة عامة وهو أن الكون موجود منفصلا عن الله . وأن لله سبحانه وتعالى وجوده الحق القائم بذاته المستقل عن الكون المادى .

والمعروف أن وحدة الوجود بهـــذا المعنى الذى تدعو اليه الفلسفة الثيوصوفية هو حجر الزاوية فى الديانة الهندوكية فى مواجهة التوحيد فى الاسلام والتثليث فى المسيحية ، وقد ذهب الحلاج وابن عربى الى مثل هذه المعانى تأثراً بالفلسفات الهندية وغيرها فعارضوا مفهوم الاسلام الصحيح وناقضوا قيمة

من أعظم قيم الإسلام وهى التوحيد ، ومن أكبر أخطاء دعاة مثل هذه المذاهب ، هو الخلط بين الأديان أو محاولة إيجاد وحدة بينها على أساس مفاهيم ليست هى من أصول الدين الحق : ولقد نشأت مثل هذه الدعوات الصوفية الفلسفية فى البيئات التى تعمق فيها مفاهيم التوحيد كالهند وفارس ، وقد إتجه الفكر الأوربى فى العصر الحديث إلى التطلع لمفهوم الروحية نتيجة لضخامة التحدى الذى قدمته العلوم وما ألقته من شكوك نحو الأديان والعقائد والغيب وقد كان الأوربيون يستطيعون أن يلتمسوا مفهوم الدين من الإسلام ولكنهم لأسباب كثيرة منها الحقد والتعصب قد آثروا الإتجاه نحو الهند فدعا شونبهور إلى دراسة الصوفية الهندية وخاصة مبدأ بوذا الذى كان يقول بإماتة الشهوات حتى تصل النفس بعد مجاهدتها إلى حالة (النرفانا) التى لا يشتهى فيها الإنسان شيئاً ، غير أن الصوفية الهندية لم تستطع أن تروى غلة الصارى أو تحل الأزمة التى واجهها الفكر الغربى الذى لم يلبث أن اندفع مرحلة أخرى أشد عمقاً نحو المادية . ولا ريب أن احياء هذه المفاهيم من جديد من خلال مفاهيم الأفلاطونيين القدماء ، والفلسفة البوذية ، هو عودة إلى «جو» الغنوصية القديمة التى اختلفت فيها التعاليم اليهودية والنصرانية والأفلاطونية والمجوسية .

وما أطلق على تشكله اسم النيوبلاتونزم (الأفلاطونية الجديدة). ويرد بعض الباحثين ظهور الثيوصوفية إلى يعقوب بوهم المتوفى ١٦٢٤ الملقب بالفيلسوف التيوتونى الذى أقام خليطاً وثنياً خطيراً فيه النار والنور التى دعا إليها المجوس ، وفيها النور والمحبة وعصارات أخرى من مانى وبوذا كنفوشيوس وفيثاغورس وأفلاطون . وأهل هذا المذهب يعتقدون بالحلول أو التجسد والتقمص .

* * *

ولقد قاوم الفكر الإسلامي مثل هذه المفاهيم وخاصة ما يتعلق بالحلول

والفناء ووحدة الوجود وكشف عن مدى الأخطار التى تترتب عليها خروجاً بالإنسان عن المسئولية الأخلاقية وانصرافا عن الجهاد فى سبيل الله ذلك أن الإعتقاد بالحلول يسقط التكاليف كلها ومن بينها الجهاد ، وأن مثل هذه الدعوة إلى الحب المندوكى وهو حب الفناء تصرف أصحابها عن الاحتفاظ بما يسمى الجماعة الإسلامية التى دعا الإسلام لصيانتها ودفع الإعتداء عنها عن طريق الكفاح والجهاد .

ولا ريب أن الرهبانية التى تقوم على الحب الإلهى تناقض فكرة الجهاد فى سبيل الله تماماً كما تعارض مبدأ الزواج وتكوين الأسرة » .

ولا ريب أنه معنى وحدة الوجود (يؤدى إلى إنكار الثواب والعقاب أو ينكر مفهومه الإسلامى الواقعى فيراه نوعا من وخز الضمير ومن هنا يستوى الخير والشر، وينفتح الطريق أمام إباحة كل المحرمات .

الفصل العاشر

الفلسفة البهائية

الفلسفة البهائية هى إنبعاث جديد للباطنية القديمة التى شكلها الغلاة من مجموعة فلسفات مختلفة ونحل منوعه فهى مزيج من أخلاط الديانات البوذية والبرهمية الوثنية والزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلام ومن إعتقادات الفلسفة الصوفية والباطنية ».

وهى محاولة لخلق مذهب يحتوى على جميع رغائب فرق العالم والمؤامين بالجديد وتذويب الأديان (المنزلة اليهودية والمسيحية والإسلام) ، فى مذهب واحد يقوم على أساس ما يتفقون عليه جميعاً وهو التوراة ودين موسى .

وتقوم الفلسفة البهائية على التأويل شأنها شأن الدعوة الباطنية القديمة وتستهدف أساساً تأويل نصوص الشريعة ، وتغيير أحكام الصلاة والصوم وإبطال الحج ، كما أنها تنكر معجزات الأنبياء موسى وعيسى ومحمد وتقول البهائية بقدم العالم .

وتصف نفسها بأنها نبوءة تقوم على ظهور مخلص للعالم تتجلى فى هيكل البشر وتذهب البهائية إلى الإدعاء بأن الأنبياء استروا الحقائق تحت شعار الإشارات .

وتستهدف من التأويل تحويل القرآن والسنة وصرفهما عما يراد بهما من حكمة وهداية والزعم بأن شريعة البهائية ناسخة للشريعة الإسلامية وهى تدعو إلى مساواة الرجال والنساء فى الميراث وتعارض الجهاد وتدعو إلى نزع السلاح

وإلى إنكار مقاومة العدو ونشر السلام العام ونبذ العصبيات الوثنية كما أنها تنكر البعث والجنة والنار وتأول ما جاء عنهما فى القرآن فتقول أن الجنة والنار فى الكتب المقدسة حقائق مرموزه .

وهم ينكرون إعجاز القرآن وانه من عند الله كما ينكرون صفات الله .

وقد حاولت البهائية أن تنسب نفسها إلى بعض فرق الشيعة غير أن علماء الشيعة هاجموها وحكموا بكفر دعاتها وإرتدادهم .

ويرد الباحثون والعلماء الفلسفة البهائية إلى أنها ثمرة لمحاولات خصوم الإسلام والمتآمرين عليه التى إمتدت خلال ألف سنة .

وانها صورة جديدة لمفهوم قديم ومذهب من مذاهب الإنتقاض على الإسلام وفقا لمخطط المجوس الذين استهدفوا إضعاف شوكة الإسلام فلم يجدوا أسلوباً أوفق لذلك من تأويل الشريعة على وجوه تعود إلى قواعد أسلافهم ومن هنا كانت هذه المحاولات ذات البريق الذى يغرى الشباب الذى لم تتحقق له أرضية صلبة من مفاهيم الإسلام ، ومن ذلك قولهم : العمل على تغيير رسالة الإسلام باسم الإسلام وإيجاد دين آخر غير الدين الأصيل كما تتلقاه الصحابة والتابعون والسعى فى التغيير حتى لا يبقى من الإسلام إلا اسمه . ويقوم تحريف الباطنية على تفسير المصطلحات المعروفة فى اللغة العربية تفسيراً مخالفا لحقيقتها .

ولقد كان اليهود هم أولى الفرق التى عمدت إلى حمل لواء دعوى التأويل وذلك حين قال فيلسوفهم (فيلون) بتأويل التوراة ذاهباً إلى أن كثيراً من مضامينها إنما هى رموز ترمز إلى أشياء غير ظاهرة ثم حملوا من بعد مثل هذه الدعوه إلى الأديان ، وكانت الباطنية فى القرن الرابع وغيره من أقسى خصوم الإسلام غير أن علماء المسلمين من أمثال الغزالى وابن تيمية كشفوا أوراقهم وزيفوا دعواهم ، ودحضوا نظريتهم .

ومن أهداف الفلسفة البهائية : مهاجمة اللغة العربية الفصحى التى نزل بها القرآن والدعوة إلى ما يسمونه اللغة النوراء ، وذلك على أساس أن اللغة العربية هى وعاء القرآن ولغة العبادة والثقافة للمسلمين فضلا عن أنها لغة العرب كافة ولغة الفكر الإسلامى كله .

(٢)

أن مراجعة تاريخ البهائية ليكشف عن دوافعها كما يكشف عن بواعثها .

ومن النظرة الأولى نجد أن يهود إيران هم أول من دخل فى حركة البابية بشكل جماعى ففى أربع مدن وخلال أمد قصير دخل منهم ٣٨٥ يهودياً .

ومن الماسونية تصدر جولد زيهر المستشرق وروج لهذه الحركة .

ومن المبشرين فى الغرب اهتم بها لورد كرزون ـ استلين كاربنتر ، براون ، فامبرى ، الكونت جوبنيو ، البروفسور جيمس ، وغيرهم كثيرون .

أما عباس البهاء فقد أنعمت عليه الحكومة البريطانية بأعلى ألقابها (فارس الامبراطورية البريطانية) تقديراً له على ما أبداه من الكرم والإكرام للجنود البريطانيين فى فلسطين (وكان مقيما بحيفا خلال الحرب العالمية الأولى) . وقد احتفل بدفنه فى فلسطين باحتفال كبير حضره هربرت صمويل المندوب السامى البريطانى اليهودى الأصل .

وقد كشفت الأحداث كثيراً من بواعث البهائيين ودوافعهم ، وكان أخطرها هو إنعقاد المؤتمر العالمى للبهائيين فى إسرائيل عام ١٩٦٣ فظهر بوضوح الرابطة الأكيدة بين الماسونية والبهائية دين اليهودية التلمودية وبين هذه الفلسفة التى استمدت مفاهيمها فى الأغلب كلها من الكابالا اليهودية .

وأبرز ارتباط بين البهائية واليهودية التلمودية هى الدعوة الى عالمية الأديان

وقد استجاب البهائيون لأهـداف الصهيونية فى تحريم الجهاد على أتباعهم وقد كشف أحد البهـــائيين فى التحقيق الذى أجرى معهم هـذا المعنى حين قال :

« إنه لو أجبر على حمل السلاح فى مواجهة إسرائيل لأطلقه فى الفضاء وأن ذلك هو شعار البهائية »[1] . « وقد أحل البهائيون الربا بإيعاذ من اليهود » وقد اتخذت البهائية أساليب الماسونية ونظمها ومحافلها وهياكلها ، وقد تركزوا فى أدنه وسالونيك فى تركيا وهى المناطق التى تذجر بالدونمة والتى حملت لواء الماسونية ومن خلالها ظهرت حركة تركيا الفتاة التى كان لها أبعد الأثر فى تدمير الرابطة الإسلامية بين العرب والترك وفتح الطريق إلى فلسطين لليهود بعد أن حجبهم عنها السلطان عبد الحميد خـلال مدة حكمه . كما استوطن البهائيون حيفا وعكا خلال الاحتلال البريطانى لفلسطين لتعضيد الصهيونية العالمية والوجود اليهودى فى الأرض المقدسة .

كما أن هناك علامة التقاء ومشابهة أخرى تدل على وحدة المصدر ، ذلك هو اتخاذهم شعار الماسونية (حرية — إخاء — مساواة) .

وقد كشفت مصادر البهائيين عن أن مبادئها مستوحاة من التوراة (العهد القديم) وأن عباس الملقب بعبد البهاء قد أدخلها ضمن العقيدة البهائية وقد عملت البهائية على تقويض أركان العروبة فى فلسطين وتشير المصادر إلى أن عبدالبهاء كان ماجناً مفرطاً فى مجونه وقد تكشف ذلك إبان زيارته لسويسرا وانجلترا وفرنسا ، ذلك « لأن من أساس دعوته التحرر من كل شىء ، حتى العرى مباح لدى البهائية وكان يشيد بالأفكار المجوسية ويندد بدعوة الأنبياء ويصفهم بأنهم أصحاب أوهام وخرافات أفسدت عقائد الشرق » .

---

(١) جريدة الأخبار ١٦/٣/١٦٧٢

وقد كانت نبوءة البهائية بظهور زعامة تجدد العالم بمثابة إشارة لقرب حلول السيطرة اليهودية ممثلة فى الحركة الصهيونية .

(٣)

إن محاولة البهائية فى أن تصبح ديناً عالمياً كانت من المحاولات التى ظاهرتها قوى كبيرة وأموال ونفوذ ومع ذلك فان كل ذلك عجز أن يحقق لها بعض ما تريد :

وفى هذا يقول العلامة فريد وجدى : « إن طموح البهائية إلى أن تكون ديناً عاماً يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم هو مما يقضى بالعجب ، لأنها ليست بدين سماوى ، وليس فيها من الأصول والمبادىء ما يلفت العقول إليها بعد أن بالغت فى عرض نفسها على الأمم ، فأين هى من الإسلام الذى بنى أمماً قوية . ومدنيات فاصلة فى خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال على مثل دعوته الأولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون ومنهم برناردشو أن مبادىء الإسلام توشك أن تعم العالم أجمع . « ويقوم الإسلام على أصلين ضمنا له النعيم والخلود : هما موافقته للفطرة واعتماده على العقل والعلم ، فأين البهائية من هذا الموقف العلمى الحق وهى تقوم على أصلين أحدهما عتيق غامض قال به أفراد من محبى السبح فى الخيالات وهى تصوير ذات الله بصور المخلوقية . وثانيهما صرف الألفاظ عن ظواهرها بجال فسيح للظنون والأوهام والخبط .

« إن كل تجديد فى مجالات النظم الاجتماعية والتطورات الفعلية وكل نجاح يحققه دين أو نظام يكون مناسباً للقدر الذى يحمله إلى الناس فى الوفاء بالحاجات الماسة للأمم والشعوب .

« تدعى البهائية أنها أتت للعالم بجديد فى الأصول ولم يدر فى خلد المصلحين قبلها كاتحاد الأديان وترك العصابات واتحاد الأجناس والسلام العام ومساواة المرأة بالرجل .

« أما ما سموه باتحاد الأديان فقد سبق إليه الإسلام وأسسه على أقوى الأصول وحاطه بأحكم الدلائل ، فقرر أن أصل الأديان كلها واحد ، وأن الخلافات التى بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الأوهام ، فالإسلام يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضاً ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفريق بينهم » .

« إن البشرية ليست فى حاجة إلى دين جديد بعد الإسلام فانه استكمل جميع شرائط الدين العام .

الفصل الحادي عشر

فلسفة التربية الغربية

قامت فلسفة التربية فى الفكر الغربى فى ضوء التحول من الفكر المسيحى إلى الفكر المادى . وتبلورت فى صورتها النهائية فى مفاهيم ديوى ودوركايم وتقوم أساساً على ما قرر فرويد ومدرسته فى النفس والجنس وهى مفاهيم تقوم فى أساسها على حرية التربية وإطلاقها من كل قيد ، ورفع الرقابة والتوجيه عن الأجيال حتى فى أقل المراحل تعرضاً للأخطار وتستمد هذه المفاهيم جوهرها من افتراض فرويد الذى كان موضع معارضة زملائه فى نظرية التحليل النفسى وهو اعتبار الجنس مصدراً أساسياً لكل الدوافع والغايات البشرية . وكذلك فيما ذهب إليه فرويد افتراضاً ولم تؤيده التجارب العلمية والإحصائية مما أشار إليه من آثار الكبت التى بالغ فى تقدير أخطاره حتى أوصلها إلى الجنون. ولقد عمدت دعوات تحرير التربية من سلطان الدين فى أوربا إلى فصل الدين عن التعليم نهائياً والحيلولة دون رجال الدين وبين المناهج على نحو قطعى فى نفس الوقت الذى أضافوا فيه الفلسفات المادية من أجل تخريج أجيال لا صلة لها بالدين أو القيم الروحية إطلاقا ثم تشكلت مفاهيم الأخلاق على النحو الذى يفترض تطور الأخلاق بتطور المجتمعات ومن هنا فقد أصبحت فلسفة التربية منعزلة تماماً عن مفهوم الدين والأخلاق .

هذا بالإضافة إلى ماجرى تحقيقه من تدريس الجنس وإذاعة الأدب المكشوف وقصص الغرائز وكل ما من شأنه أن يحول دون اعلاء الرغبات

أو التسامى بها . ثم اتصل هذا بانتقال عمليات التربية من مجال الأسرة إلى مجال المدرسة كلية وذلك نتيجة تسليم الأمهات العاملات أطفالهن إلى دور الحضانة .

يقول الكسيس كاريل فى كتابه : الإنسان ذلك المجهول .

« لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة باستبدال تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالا تاماً ، ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن أو مطامعهن الاجتماعية .

« إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التى يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرة ، لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى طبقا للقوالب الموجودة فى محيطه » .

(٢)

ما مفهوم التربية الغربية ، وما هى فلسفة التربية الغربية ؟

لندع واحداً من أبرز ممن تعلموا فى الغرب يحدثنا عن هذه الفلسفة هو الدكتور فاضل الجمالى :

« إن نظم التعليم الغربية قدتكون فى الغالب مبنية على فلسفات ذات صفة ثنائية أو انشطارية (Dualists) فهى فلسفات تفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفرد عن الجماعة .

فالدراسات العلمانية مثلا قد تؤدى بسهولة إلى اتجاهات فكرية مشككة أو مادية أو ملحدة أو عدمية [وفى نشأة الشاب المسلم على هذا الطراز من التفكير ينشأ غريباً عن مجتمعه ويعيش فى فـــراغ روحى] نحن نعتقد أن الفلسفة الانشطارية أو الثنائية ــ فى التربية الغربية تصبح لعنة فى حياة الإنسان حين

ينفصل الدين عن الدولة ، والروح عن الجسد والفكر عن العمل والعلم عن الدين . « إن التربية الغربيـــــة فضلا عن حاجتها إلى الوحدة والترابط يعوزها الانسجام والتوفيق بين نواحى الوجود أيضاً ، « إن الغرب قد أنجب علماء عظاماً وأخلاقيين كباراً وفنانين مبدعين وأدباء مجيدين ، كل واحد يمتاز فى حقل اختصاصه ولكن الواحد منهم قلما يعنيه التوافق والانسجام مع المجموع .

« كل واحد يتعمق فى حقل اختصاصه بدرجة متناهية بدون أن يكون له تماس مع الاختصاصات الأخرى ، أو اكتراث يوجه نظر أصحابها .

« فالعالم مثلا لا يهمه كثيراً مصير القيم الأخلاقية . والسياسى والإدارى قد يصوغ مقاييسه الأخلاقيةالعملية الخاصة به .

« وتربية الفكر قد لاتسير جنباً إلى جنب مع بناء الأخلاق الفاضلةوتقديم الذوق الجميل .

« وفى التربيـــــة الغربية اللادينية خطر جسيم ينجم عن نسيان خصائص الإنسان الروحية والاكتفاء بالتأكيد على نواحى حياته الجسدية والاجتماعية والسياسية والفكرية .

إن أهم نقائص التربية الغربية هو فقدان الانسجام بين المتطلبات الزمنية للانسان والمتطلبات الخلقية الروحية » .

(٣)

تعد نظرية «ديوى» هى أبرز النظريات المطروحة كأساس للتربية فى الفكر الغربى والتى جرت المحاولات المتعددة لنقلها إلى الفكر الإسلامى وتقوم فلسفة ديوى أساسا على نظرية دارون فى التطور العلمى والتى تذهب إلى أن جميع الكائنات الحية قد نشأت عن تركيب عضوى بسيط وتطور مع الزمن .

وإن الأجناس الحية فى حالة تطور دائم تفرضها متطلبات المحيط من أجل البقاء . وإن العالم فى حالة تغير وتطور دائمين بما ينفى فكرة وجود نظام أزلى ثابت بل عالم لا يعرف الاستقرار مع الدعوة إلى الإيمان بطاقة الإنسان الفكرية وقدرته على وضع الشرائع وبناء المؤسسات التى تنظم حياته وتقوم فلسفة ديوى فى التربية على صفة التجريبية التى تتخذ الاختبارات البشرية مصدراً للمعرفة والقيم وقياساً لها[١] . والنظرية على هذا النحو تتعارض تعارضاً كاملا مع مختلف المفاهيم الأساسية للفكر الإنسانى فهى تنكر الرسالات السماوية والبعث والجزاء والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى . وتنكر عالم الغيب . فهى بذلك تعلن ماديتها الخالصة هذا بالإضافة إلى عشرات التجارب التى أثبتت عجز الإنسان عن الخروج من أهوائه الخاصة لوضع تشريعات تحميه من التحديات المختلفة التى تفرضها الغرائز والشهوات والمطامع .

(٤)

تستمد التربية فى الفكر الغربى مفاهيمها من قيم الفلسفة الغربية بعد أن انفصل الفكر عن مفاهيم اللاهوت القديمة وقد صبغتها تيارات عديدة كانت بمثابة الأسس والدعائم ومعالم الطريق والإشارات الموجهة :

(أولا) من ناحية الدين : فقد ثارت أوربا على الدين بمفهوم المسيحية الغربية والكنيسة وجاء ذلك فى أعقاب الثورة الفرنسية التى قصدت أساساً إلى تحطيم الفاصل بين المسيحى واليهودى فى المجتمع الأوربى ومنه انطلقت حركة الفكر الغربى على أيدى من أسموا أنفسهم المحررين أو المنورين فكانت حملتهم الأولى على رجال اللاهوت باقصائهم عن مجال التعليم كلية أو إخراجهم من البلاد كما حدث بالنسبة لرجال اللاهوت المسيحى فى فرنسا الذين طردوا منها وسمح لهم

---

(١) مجلة الأبحاث ، م ١ سنة ١٩٥٩

بمباشرة نشاطهم فى المستعمرات . ولم يتردد (جول فرى) أكبر من حارب وضع الكهنوت فى فرنسا ووضع القوانين التى تحدد ساحة عمل رجل الدين على أساس حرمانهم حق فتح المدارس من أن يقر عملهم بالتبشير خارج فرنسا لتوسيع نفوذ فرنسا .

والمعروف أن مفهوم التربية تحول بهذا تحولا خطيراً فقد انتقلت مناهج التعليم من أسلوب اللاهوت مباشرة إلى الأسلوب العلمانى القائم على مذهب دارون ومفاهيمه التى استمدها رجال المذهب فى مجال الاجتماع .

والمعروف أن مفهوم الدين قد انتقل فى عدة مراحل حتى سقط بعد ذلك نهائياً . من هذه المراحل مرحلة ما يسمى بدين البشرية ودين الطبيعة وفى خلال هذه المرحلة فصلت الأخلاق عن الدين وأقيمت لها معايير مستقلة .

وكان ذلك إيذاناً بإعلاء مفهوم التطور المطلق وفى أحضانه ظهرت فكرة نسبية الأخلاق وقد كان لذلك أخطاره البعيدة المدى فقد استتبع ذلك القول بانتهاء الحياة بالموت وبذلك جرت محاولة لإسقاط المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى للفرد القائمين على أساس الإيمان بالبعث والجزاء فى الآخرة .

وكان ذلك فى مجال التربية بعيد المدى إذ أنه يوحى بالحرية المطلقة فى السلوك دون تقدير لأى عامل من عوامل الضبط أو الإعلاء أو التنظيم الذى لا يقوم إلا فى ظل « التزام الخلق » .

(ثانياً) كان لمذهب النفعية أثره البعيد فى توجيه التربية : فلم يعد للقيم النفسية والأخلاقية والروحية أى قيمة مستقلة . فقد راجت فى أوربا من خلال انحسار الدين المسيحى فلسفة النفعية أو المنفعة (Unilarism) وعلى أساسها قام بناء الحضارة ومنها انبعث فلسفات ديوى ووليم جيمس مما أطلق عليه « البرجماتية » .

(ثالثاً) سيطر مفهوم : أنه ليس فى الدنيا أعظم من الإنسان وليس فى الإنسان أعظم من العقل وبذلك سقطت من الفكر الغربى قلعة الإيمان بالله خالق الإنسان .

وكان لإعلاء العقل وتقديس العلم أبعد الأثر فى أصول التربية التى تتجه إلى إلغاء جوانب الحياة الأخرى : كالغيب كله ومايتبعه من أساليب ومفاهيم وأصول فى المعرفة يعجز العقل أن يتقدم إلى مبادئها ويضل وحده .

(رابعاً) سيطر مفهوم بقاء الأصلح . وهو المفهوم الذى دعا إلى احتكار الضعفاء والملونين وأصحاب البلاد المستعمرة مع إباحة التخاص منهم وإعلاء الجنس الأبيض صاحب أمانة الحضارة على مختلف الأجناس الملونة وبذلك هدمت فى التربية الغربية قاعدة الاخاء البشرى والرابطة الانسانية العالمية .

(خامساً) يسيطر على التربية الغربية مفهوم تنمية الجسم بمفهوم إطلاقه الغريزى نحو الجنس والعناية بالجسد وتجميله وعبادته دون تقدير للجوانب الأخرى النفسية والروحية والخلقية ودون إيجاد التوازن بين الجسم والعقل والقلب وذلك فى مقابل تهذيب الغرائز وإعلائها وضبطها فى مفهوم التربية الاسلامية .

(سادساً) غلبة الطابع المادى على التربية نتيجة لغلبة الطابع المادى على الفكر كله وعلى الحياة الاجتماعية والحضارة :

فالحياة تقوم على أساس تمجيد القوة المادية ومن هنا غلب طابع الصراع والحروب والسيادة وفى هذا يقول أحد علماء التربية :

« إذا كان العالم يسير اليوم متشائماً نحو الحرب والدمار فلأنه قد أنشأ نفسه

على أساس تربية فلسفتها البقاء للأصلح وقوامها العنصرية ، ويرى بعض الباحثين أن دين الغرب اليوم هو المادية :

ويقول جون جنتز : « أن الغربى يعبد البنك ستة أيام فى الأسبوع وفى اليوم السابع يتوجه إلى الكنيسة » .

وواضح أن طابع اليهودية التلمودية : ذات الأساس القائم على الربا وعبادة العجل الذهبى قد سيطرت سيطرة كاملة على مفهوم الفكر وبالتالى على مفهوم التربية وتنشئة الأجيال الجديدة .

(سابعاً) وبالجملة فإن مفهوم التربية يقوم على فصل كامل بينها وبين الدين والأخلاق من خلال تفسير الدارونية للتطور المطلق وتطبيق تشريحات الحشرات والحيوان على الانسان ومن خلال نظرية فرويد القائمة على أن الجنس هو مصدر التصرفات البشرية جميعاً . وأن الموت نهاية الحياة فليس هناك جزاء أو مسئولية أو التزام أخلاقى ومن خلال إعلاء الجنس الأبيض على الأجناس وعلى أساس الفصل بين المفاهيم والقيم من خلال القول بالتخصص، والقول بأن الأخلاق مرتبطة بالعصور والبيئات وأنها متغيرة لا ثابتة . ومن خلال مفاهيم إطلاق الشباب دون التوجيه وتصوير الأب بصورة العدو الأكبر وباسم رفع الوصاية عن الشباب وإطلاقه فى حرية ليشق طريقه .

(٢)

التربية فى مفهوم الإسلام

أما التربية فى مفهوم الإسلام فإنها تعد بمثابة وسيلة بناءة لاعداد الانسان من حيث هو فرد ومن حيث هو فى نفس الوقت جزء من المجتمع ، وفق منهج شامل قوامه الايمان بالله والعمل فى الأرض، جامعاً بين الحركة والخلق، والعقل

والقلب ، والدين والدنيا ويقرر الاسلام أن الانسان يولد خيراً لا شريراً وقد ربطت التربية الاسلامية بين التربية والتعليم على أساس تقدير واضح بأن العلم وحده لا يكفى مالم تصحبه تربية الذوق والعقل والروح ، وتتسم التربية الاسلامية بالشمول : وتتضمن تربية الأفراد تربية كاملة من النواحى العقلية والخلقية والبدنية ، ثم تربية الأفراد من خلال المجتمع ، تربية أخوية تعاونية قوامها المحبة والايثار .

وهى تركز على الايمان بالله وتجمع بين الايمان بالانسانية وبالأمة وبالعلم والعمل والحرية . وتعد الأخلاق ركيزة أساسية فى مختلف مجالات الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية على أساس أن التربية الخلقية هى مصدر الحصانة فى مواجهة المغريات والانحرافات . ويمكن أن نركز مفهوم الفكر الاسلامى فى التربية على هذه الأسس :

١ — الجمع بين العلم والخلق ٢ — تربية الفرد فى جوانبه المختلفة (عقلا وقلباً وجسماً) ٣ — استغلال استعداد الطفل وميوله الفطرية والغريزية ٤ — أهمية أثر القرآن فى تهذيب الطفل وإطلاق لسانه وتحسين عبارته ٥ — تهذيب النزعات الغريزية كالشهوة للطعام والاثرة .

٦ — اعتبار الأخلاق سابقة فى الأهمية عن العلم ٧ — تطهير النفس من الرذائل والنقائص قبل البدء بالتعليم ٨ — غرس الأخلاق وتكوين الفضائل والمثل العليا باعتبارها هى العمل الأول ٩ — كل تربية لا يكون أساسها أخلاق فهو تربية ناقصة .

* * *

فقد استهدف مفهوم التربية فى الفكر الاسلامى بناء مجتمع سليم متعاطف متوازن ببناء أفراده وبناء الأخلاق كأرضية أساسية للعلم والثقافة .

(٢)

لما كانت التربية تجسيد كل ما تعتز به الأمة من قيم مؤمنه وإنسانية أصبح من الطبيعي أن تتجسد فى التربية « روح الأمة » ، والفصل بين التربية والدين إذا صلح كنهج فى الغرب ، فإنه لا يصلح فى البيئة الاسلامية التى يجعل من الدين والأخلاق مقومات أساسية والتى لم يكن الدين فيهـا معارضاً للنهضة أو للعلم أو التقدم . ذلك أن العامل الأول الذى دفع الفكر البشرى فى الغرب إلى تفريغ التربية من مفهوم الدين وإقصاء رجال الكهنوت عن المدرسة ، إنما اتصل أساساً بذلك الخلاف العميق الذى قام بين الكنيسة والنهضة العلمية . غير أن التربية الغربية اندفعت فى طريقها من خلال مفهوم مادى خالص ، فدفعت الأجيال إلى التحرر المطلق من كل القيم والعقائد والضوابط ، التى من شأنها أن تحمى الشخصية الانسانية من الانهيار والتدمير .

هذا فضلا عن الإسراف فى نظام التخصص ، الذى قضى على قيـــام الأساس الرابط الجامع بين الجوانب المختلفة التى يتشكل منها المجتمع والإنسان ذاته بوصفه روحاً وجسداً فى نفس الوقت . ومن هنا كان إنكار الجوانب الروحية والأخلاقية والعقائدية من العوامل البعيدة المدى فى النتائج التى ترتبت على ذلك بظهور آفات التمزق والضياع والعبث والغربة وتسلط تيارات الانحراف والتحلل التى أسرفت فى التماس مصادرها من مفاهيم فرويد ودوركايم وسارتر وغيره .

(٣)

يبدو التباين واضحاً بين منهج الفكر الإسلامى بوصفه الفكر الإنسانى وبين منهج الفكر البشري بوصفه الفكر المادي في مجال التربية فى نقاط عديدة ، أهمها :

١ — إن التربية الإسلامية تأخذ الإنسان أخذاً شموليا (روحياً وجسدياً) وترسم له طريقاً من الضوابط التى تحميه وتدفع عنه الأخطار .

بينما يجرى الفكر الغربى وراء نظرية زائفة هى نظرية : رفع الالتزام والتوجيه عن الإيفاع والشباب وإطلاقهم إطلاقاً كاملا وتصوير رابطة الأبوه والأستاذية ومعين التجربة فى صور عدوانية ، فى محاولة لعزل الأجيال الجديدة عن الأصول والجذور أياً كانت .

٢ — يقرر الإسلام مبدأ الأخوة والمفهوم الإنسانى والرحمة بالضعفاء وينكر فوارق اللون أو الجنس ويتمثل البشر جميعاً وقد جمعتهم رابطة إنسانية كاملة بينما تنظر مفاهيم التربية الغربية إلى الناس على أساس :

(١) استعلاء الجنس الأبيض صاحب السيادة .

(٢) احتقار الأجناس الملونة والدعوة إلى إبادتها .

(٣) إقامة العلاقات بين الناس على أساس مذهب المنفعة .

٣ — من أخطر ما يتسم به الفكر الإسلامى أنه يقيم منهج المعرفة على أساس : العقل والقلب معاً .

فلا يعلى العقل إعلاءاً يخرج به عن وظيفته واستطاعته وطاقاته ، ولا يقدس العلم بل يرى أنه أحد ميادين الفكر والحياة . ولا تنظر إلى المحسوس والملموس وحده ولكنه يؤمن بعالم آخر هو عالم الغيب ، فيه الوحى ورسالات الأنبياء وفيه الآخرة والجزاء .

٤ — يقيم مفهوم التربية فى الإسلام الحياة على أساس « التقوى » لا على أساس المادة ويرى أن الحياة الدنيا دار عمل ، وبناء وتشييد ، ولكنه ليس

للمطمع المادى ولكن لإقامة نظام الكون . ويرى الإنسان فيها مستخلف فى الأرض لله تبارك وتعالى ومسئول وصاحب أمانة ، ومحاسب على أمانته ،والعلم عنده مرتبط بالإيمان بالله ، وبإعطاء الانسانية ليدفعها بعيداً عن الصراع والاستبداد والعبودية، بينما تربى مفاهيم الفكر الغربى النشء على أساس تمجيد القوة المادية والاستعلاء بالعنصرية ، وتقيم عامل المادية أساساً لمعاملاته وتغالى فى إبراز طابع « المصرفية الربوبية » .

(٤)

وصف جولد زيهر مذهب الاسلام فى التربية فقال :

يلبغى أن نوقن بأن فى مذهب الاسلام قوة صالحة توجه الانسان نحو الخير، إن الحياة المتفقة مع التعاليم الاسلامية حياة أخلاقية لا غبار عليها ، ذلك أنها تتطلب الرحمة نحو جميع مخلوقات الله والوفاء بالعهود والمحبة والاخلاص ، وكف غرائز الأنانية » .

* * *

ويرى الباحثون الذين عقدوا المقارنة بين التربية الاسلامية والتربية الغربية إن أبرز مميزات الاسلام : أنها بعيدة عن الثنائية والانشطار فهى لا تفصل الدين عن الدولة ، ولا الروح عن الجسد ولا الفكر عن العمل ولا العلم عن الدين .

يقول الأستاذ فاضل الجمالى « أن الاسلام لا يفصل الدين عن الدولة ، ولا الدين عن العمل ولا العلم عن الأخلاق ، بل يجب أن تتفاعل كلها وتتحد وفق قوانين طبيعية وأخلاقية ذات مصدر إلهى .

والمسلم الذى لا يفهم دينه على الوجه الكامل قد يقع فريسة للفلسفة الانشطارية الثنائية التى تمارس فى الغرب » .

* * *

ويقول « الدين الاسلامى من حيث الأساس ليس مضاداً للتربية الغربية ، بل على العكس فان الروح العلمى والتقنى السائدين فى التربية الغربية وما فى الحياة الغربية من إنجازات إنشائية تشكل جزءاً كبيراً من محتويات الدين الاسلامى ذاته .

ولكن الاسلام يعارض النظريات المتطرفة والميول اللا إنسانية . والتراخى الأخلاقى » .

(٥)

تقوم التربية الاسلامية على المسئولية الفردية وعلى الالتزام الأخلاق .

وقد استمدت التربية الاسلامية جذورها من القرآن : فالقرآن المنزل من عند الله هو الذى قدم للاسلام أسلوب التربية : والعقل وحده يكون عاجزاً عن وضع الخطة المثلى للتربية ، ولذلك فان مفاهيم التربية فى الفكر الغربى قد كشفت عن محاذيرها وأخطارها وآثارها البعيدة المدى فى الأجيال الجديدة . وأبرز أساس التربية الاسلامية هى الفطرة الانسانية التى جبل الناس عليها :

« فطرة الايمان بقوة أسمى » ومن هنا ترتكز التربيةالاسلامية على أساس الايمان الكامل بالله والالتقاء بالأخوة مع البشر جميعاً .

وتستهدف التربية الاسلامية ممارسة المسلم للخير والبر والعمل النافع دون حاجة إلى القانون ، استمداداً من إيمانه العميق بالله وحسابه وجزاءه .

وكذلك فى انصرافه عن الشر والاثم والظلم والأسوة الحسنة هى أساس من أسس التربية الاسلامية ، وعملية التطبيق هى عماد التربية : ومن هنا فهى تتعارض مع طوابع التربية فى الفكر العربى البشرى من حيث :

١ — معارضتها للعنصرية وإعلاء الدم والجنس :

٢ — معارضتها التحرر من طابع الخلق والدين .

٣ — معارضتها لاطلاق الشباب دون توجيه أو ضوابط .

٤ — معارضتها لفكرة كراهية الأب والمعلم .

٥ — معارضتها لانتهاء الحياة بالموت والايمان بأن وراء هذه الحياة دار الجزاء والحساب .

لحق: ضوء من الاسلام

ليست هناك نظرة أصدق وأعمق عمقاً فى موضوع (الإنسان) من نظرة الإسلام إليه ، فالفلسفات تقرر أن الإنسان مجرد حيوان وبعض الأديان القديمة تقرر أنه آثم بحكم ولادته البوذية - والهندوكية تقول أنه مجبور بالتناسخ ، بينما ينظر الاسلام إلى الانسان نظرة متكاملة قوامها المادية والروحية معاً ، وهو يحيطه بسياج من الضوابط حتى لايكون عبداً لأهوائه وشهواته ، بل قادر على أن يرتفع عليها بعد أن يمارسها فى إطار كريم هو الشريعة . وهو يحيطه بكل مايحول بينه وبين الإنحلال والانهيار والضعف فيدعوه إلى السيطرة على شهواته والتحرر منها والاعتدال فيها .

ويقرر الاسلام أن مهمة الإنسان فى الحياة هو عمارة الأرض والاستخلاف وعبادة الله . وهذه المهمة تختلف عن فكرة القائلين باذلال الجسم وطلب الفقر والاقتصار على العبادة والسعى للآخرة بترك الدنيا . ويرى العلماء المسلمون أن التكسب بالدنيا وإن كان معدوداً من المباحات إلا أنه واجب من أوجه .

(٢)

والاسلام يعترف بالرغبات البشرية ولايدعو إلى كبتها ولكنه يدعو إلى ضبطها ويقف بها عند حد متقارب وسيط يحققها ويحول فى نفس الوقت دون خطر الاسراف فيها أو خطر مجافاتها كلية مع تقدير خطر الإسراف والمجافاة على الكيان الانسانى ومن ثم على المجتمع البشرى كله . ولاريب أن النظرة الإسلامية للجنس تختلف تماما عن نظرة الفكر البشرى التى تقرر أن الجنس ثمرة خطيئة حواء وآدم ، والمعروف أن تحريم الزنا في الاسلام لاينبعث عن

كراهية الجنس بل عن إحترام الجنس وتنزيهه عن العبث وإرتفاع بشأن المرأة عن أن تكون أداة لمتعة الرجل .

(٣)

ويقيم الإسلام قاعدة التوازن بين مختلف القوى فى الإنسان :

الروح والجسد ، والعقل والقلب ، فيحول دون الكبت والانطلاق وبين الإباحية والرهبانية وبين الترف والحرمان . فهو لا يقر المادية المغرقة ولا الروحانية المطلقة . بل يوفق بينهما فى تناسق وتوازن وموائمة تجعلهما متصلين بالإنسان نفسه من حيث هو جسم وروح ، وهو كذلك يوازن بينه كفرد وبينه كعضو فى المجتمع . وبذلك يمكن تفادى إنحرافات الشطط والتطرف ويقضى على مايسمى بالصراع أو التناقض ويحفظ الاسلام للانسان وجوده بعيداً عن الانهيار والتدمير الذى يفرضه الانطلاق أو الجمود والتحجر الذى يفرضه الكبت .

(٤)

أما مفهوم الحرية فهو فى مفهوم الاسلام : التحرر من ربقة التقاليد ومن الجهل ومن العقائد الفاسدة وفى مقدمتها الوثنية والتعدد ، أما القول بأن الحرية هى الانطلاق من جميع الضوابط والنظم والحدود فإنه ليس من مفهوم الاسلام ولن تكون الحرية مطلقة فى أى نظام أو مجتمع ، لأنه لاشىء فى الوجود مطلق من كل قيد ، والمجتمعات تحول بتكامل قيمها ومفاهيمها دون أن تكون عرضة لإطلاق الحريات بغير حدود .

فاذا ماجاءت بعض الفلسفات المادية لتصور الحرية على هذا النحو فانما هى تكشف عن هواها ودفين غرضها ، ذلك لأنها تقدم مايتعارض مع طبائع الأشياء وما يضاد الفطرة ، ومايتحدى النواميس والقوانين التى قام عليها الوجود.

(٥)

وحدة الوجود

لا يقر الإسلام نظرية وحدة الوجود ولكنه يقر مفهوم الثنائية والتقابل ذلك « أن فى الوجود ثنائية ولكن ليس بين طرفى الثنائية انفصالية » بمعنى «أن الله خالق وأن هذا الوجود مخلوق له ، ولكن لافراغ بين الخالق وبين هذا الوجود المخلوق له » وأن الإنسان جسم وروح ولكن لا إنفصال بينهما فى حياة الإنسان نفسه »[١].

وهنا مقطع الخلاف الواضح والتمايز الكبير بين الإسلام والفكر البشرى الذى يذهب إلى أن هناك فراغ بين الله والانسان فى هذا الوجود ، أو أن هناك وحدة وإمتزاج بين الله والانسان أو بين الله والكون . أو نتيجة الاعتقاد بأن الإنسان جسم فقط ، بينما الإنسان جسم وروح ، ذلك أن الإنسان بدون روح هو هيكل أجوف ، ومفهومه على هـــذا النحو يجعله أقرب إلى الحيوان فى سلوكه وتصرفه .

* * *

ويقرر الاسلام « أن الوجود كله يقوم على مبدأ الثنائية أو مبدأ التقابل : الخالق فيه هو الله سبحانه وتعالى والمخلوق فيه طبائع الكائنات المختلفة » .

والله جل شأنه مجرد عن الجسمية والمادية ، وطبائع الكائنات خليط من الروحية والمادية ، الله روح خالصة تقابله هذه الطبيعة المادية التى تجلت عنه والتى شاءها سبحانه لمخلوقاته وكائناته . هذه الكائنات بدورها منها المادة وفيها الروح وهى مزيج مما يرى ويدرك بالبصر ، ومن شىء آخر لا يرى ولا يدرك إلا بالعقل

---

(١) الدكتور محمد البهى — بحثه عن قانون الثنائية والتقابل .

والتصور . » بل أن هذه الثنائية فى هذه الكائنات الطبيعية كما تتمثل فيما يتصل بالجسم والروح معاً . تتمثل فى الحياة والموت ، (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) وتتمثل فى القوة والضعف .

« هذا التقابل : أو الثنائية سنة الوجود كله فهو مخلوق وله خالق والخالق روح خالصة والمخلوق مشوب بالمادة » .

ولاريب أن وحدة الوجود تحاول القضاء على حرية الإرادة والقول بالخير والشر والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى .

(٦)

من أخطر النظريات التى أقحمت على العقائد [فكرة الحلول] التى تنقض مفهوم الاسلام الشامل فى وحدة الله ، وتنزيهه ، وهى لكونها تستتبع فكرة التناسخ تجعل من الله موجوداً متنقلا وذلك يتنافى مع ثبات صفاته تعالى كالبقاء والقيام بالنفس ، فالمسلمون يرون هذه المفاهيم ضربا من تحريف الاسلام ، وهذا الانحراف يحاول أن يخرج الاسلام عن مفهومه الشامل وينحو به نحو الزهادة والانصراف عن الحياة العامة ويقصره على أساليب المجاهدات ومايسمى بالصفاء الروحى للفرد .

وأن فكرة الحلول إنما تشبه تأليه المسيح عيسى وهذا مايغرى الغربيين بهذه النظريات ومايحاول طرحه من شبهات فى أفق الاسلام الرحيب الصحيح .

(٧)

لقد أصبح معروفا الآن فى مجال البحوث العلمية : خطأ النظرة المادية الخالصة إلى الإنسان على النحو الذى تحاول الفلسفات الاجتماعية التى تتعلق

بالنفس والأخلاق أن تصوره وهى تختلف فيما بينها إختلافا واسعاً فى مضامينها وفى تناولها للأمور .

فالانسان غير خاضع للقوالب العلمية المادية ، لأنه جسد وروح وعقل وقلب ، ولذلك فان منهج دراسته يجب أن يكون شاملا ومتكاملا .

ذلك أن النظرة المادية إلى الانسان على أنه جسد ومادة ، وتطبيق مناهج العلوم المادية أو النظريات التى طبقت على الحيوان ، عليه ، تجعل البحث عاجزاً عن الوصول إلى الحقيقة . ذلك أن الانسان بالاشارة إلى الحيوان يختلف إختلافاً كبيراً وله قوى أخرى تجعل تطبيق أحكام الحيوان عليه لاتوصل إلى النتائج الحقيقية . ومايتميز به الانسان عن الحيوان من عقل ووجدان جعلته مناط المسئولية والالتزام والجزاء يجعل الفارق بعيداً .

(٨)

يغيب عن هذه المذاهب أن العلم والأخلاق وجهان متلازمان بالضرورة للبناء الحضارى لأن العلم إذا تجرد من إطار الأخلاق تحول نحو الشر والباطل كذلك فإن من المقرر أن هناك رابطة أكيدة وعميقة بين العقيدة والأخلاق فى الاسلام ، والقرآن أصل الأخلاق الاسلامية وليس هناك إنفصال بين النظرية والسلوك العملى .

والأخلاق فى الاسلام يقوم على قاعدة التقوى ، والتقوى هى أس الأساس فى مفهوم الحياة اتقاءاً وامتناعاً لكل ماحرم الله رحمة بالانسان واجتنابا لكل شر ومعصية ، واتجاها فى نفس الوقت إلى الانفاق والرحمة والسماحة — والتقوى صفة عامة لكل أعمال الانسان فى مختلف المجالات فهى دعوة إلى العمل الايجابى الرائد وليست شرعة سلبية ، للعزلة والانفصال عن المجتمعات .

(٩)

البعث والجزاء

أن مفهوم البعث والجزاء هو أساس مكين من أسس الاسلام التى تعارضها نظريات الفكر البشرى التى تدعو إلى وحدة الوجود أو الحلول أو تقيم الحياة على أساسها القائم والذى ينتهى بالموت وهذه المفاهيم من شأنها أن تفسد عبرة الحياة وإقامة الإنسان فيها إفساداً كاملا وتفتح أبواب الشهوات والمطامع على مصاريعها، وتسقط المسئولية والتبعة والالتزام الخلقى إسقاطاً كاملا .

فالتبعة والجزاء مع البعث والحساب : حقيقة جوهرية يقيمها الاسلام إقامة واضحة ولا يسقطها أبداً ، ويضعها دوما نصب الأعين والعقول والافهام ، ويجرى من خلالها كل أعمال الدنيا .

ولا ريب أن الإيمان بالجزاء والبعث عامل قوة وإيجابية ، ودافع بناء وحركة وليس عامل جمود أو تخلف ، وليس مما تقر العقول والألباب أن تكون الحياة بغير غاية أو يكون الإنسان فى هذه الحياة هملا بغير رسالة أو خلق إعتباطا أو وجد مصادفة (كما تقول فلسفات الفكر البشرى) ومن الحق أن الحياة ليست عبثا وليست النفس ضياعا ولكنها رسالة ومسئولية وهى حقيقة وتبعه ثم هى بعد ذلك بعث وجزاء .

هذه الحقيقة فى الأصل تابعة من الفطرة ، ولكن الفلسفات الوثنية التى أنكرت الدين جملة قد دفعت بها بعض العقول إلى الضلال والإنحراف .

وحين تتأكد للنفس الإنسانية هذه الحقيقة تنزاح تلك الأزمة التى تحاول أن تغرقها فى تيه مضلل .

ونحن نؤمن بإصالة التدين وفى أرضنا نزلت الأديان ومن هنا فإننا نتجاوز هذه الأزمة : ولاشك أن الفطرة الإنسانية فى أعماقها تستطيع بالوحى والإيمان أن تلتمس طريقها إلى الدين الحق ، وتتصل بخالقها الأوحد ، ولاشك أن الإلحاد أمر طارىء على النفس وليس من طبيعتها .



الباب الخامس

الأديان ومقارنات الأديان

الفصل الأول : مقارنات الأديان والدين المقارن



الفصل الأول

مقارنات الأديان والدين المقارن

من العلوم المستحدثة التى ظهرت فى العصر الحاضر : علم مقارنة الأديان وهو علم إنبعث أساساً من مفهوم النظرية المادية وحاول أن يخضع تاريخ الأديان كله للنظرة المادية التى تقف أساساً موقف المعارضة من عالم الميتافيزيقا ومن الغيب كله .

ذلك أن الفكر الغربى حين انحرف عن المسيحية لم يلبث أن واجه حاجة الأمم إلى الدين فحاول أن يدعو إلى ما أسماه بالدين الطبيعى والدين البشرى ودين الإنسانية وما إلى ذلك من دعوات استهدفت أساساً التحرر من الدين السماوى .

ولقد أصاب الدينان اللذان عرفهما الفكر الغربى إنحرافات شديد أخرجتهما عن أصولها الأصيلة التى جاء بها أنبياء الله موسى وعيسى عليهما السلام .

ولقد كانت الأديان بهذا الإنحراف عن مفاهيمها الأصيلة قد عرضت نفسها لحملة نقد ضارية مهما أريد بها من هجوم على الدين ذاته فان خروج هذه الأديان عن مضامينها الأولى ، وتجاوزها فى وضع قيم ونظريات بعيدة عن الفطرة ولا تقرها الطبيعة البشرية أو يقتنع بها العقل الإنسانى ، كل ذلك عرض هذه الأديان بصورتها التى فرضت على الجماعات ، إلى نقد شديد وكان ذلك سبباً أساسياً فى حملة المعارضة لها والخروج عليها ، ثم جاء دعاة المذاهب

والأيدلوجيات فاستغلوا ذلك كله حتى جاءت عبارة أحدهم وهو كارل ماركس بقوله انها ديانة الكلاب الذليلة الضالة . ثم جاء الخلاف العنيف ومن بعده الصراع الشديد بين مفاهيم المسيحية ومفاهيم اليهودية . وهو مايصوره كثيرون وفى مقـــدمتهم سارسكى حين يقول : نحن نكره المسيحية وحتى أحسن المسيحيين خلقاً نعده أشر أعدائنا. ذلك أنهم يبشرون بحب الجيران والعطف والرحمة وهذا يخالف مبادئنا والحب المسيحى عقبة فى سبيل النهضة ويتصل بهذا ما يذهب إليه المؤرخون من أن أوربا لم تنهض حقيقة إلا بعد أن تخلت عن المسيحية (الغربية) وأن هذه النهضة جاءت على رأس القرن الخامس عشر أى بعد ١٤٠٠ سنة من ظهور المسيح ، وبعد ألف ومائة سنة من دخول الدولة الرومانية فى المسيحية .

وأن أوربا نفسها لم تعتنق روح المسيحية التى تنكر الحرب وتنكر مطامع الحياة الدنيا — فى هذا يقول أحد الباحثين: «ان تاريخ المسيحية أمامنا شاهد عدل فمنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا خضبت أقطار الأرض جميعاً بالدماء باسم السيد المسيح ، خضبتها روما وخضبتها أمم أوربا كلها والحروب الصليبية إنما أذكى المسيحيون أوارها . » وظلت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوربا خلال مئات السنين قاصدة أقطار الإسلام تقاتل وتحارب وتهرق الدماء ، وفى كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للإستيلاء على بيت المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدسة . « أفكان هؤلاء البابوات جميعاً هراطقة ، مسيحيتهم زائفة ، أم كانوا أدعياء جهالا لايعرفون أن المسيحية تنكر القتال على اطلاقه ، أم يقولون : تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام فلا يحتج على المسيحية بها .

وقد رأى ما رأت تلك العصور الوسطى المظلمة حين وقف اللورد اللنبى ممثل الحلفاء يقول فى بيت المقدس فى سنة ١٩١٨ حين استيلائه عليه أثناء الحرب الكبرى : اليوم إنتهت الحروب الصليبية .

(٢)

كان الهدف الأصيل لحملة لواء دراسة الأديان من قديمة ووثنية وأرضية إلى إثارة جو من الشبهات حول الأديان السماوية المنزلة ومحاولة إظهار الأنبياء فى صورة المصلحين أو النوابغ وتزييف موقفهم الحقيق وصلتهم بالوحى والسماء، ذلك لأن هذه الدراسة قد صدرت من منطلق مادى أساسى لايعترف بوجود عالم الغيب الذى قررته الأديان السماوية وكشفت عنه .

وجل ماوجه إلى الأديان إنما دخل فى حلبة الصراع بين المسيحية واليهودية وعندما يقول فولتير أورينان بأن الأديان مخالفة للإنسانيـــة لأنها سببت الاضطهاد وسفك الدماء ، أو أنها ــ أى الأديان ــ مخالفة للعقل لأن منها أسراراً لا يستطيع العقل أن يفهمها إنما يقصدان ديناً معيناً وفكراً وتاريخاً مثبوتاً فى الكتب وليس فى حاجة إلى كثير من التوضيح .

ولا ريب أن خصوم المسيحية كانوا من وراء هذه الحملات ليصلوا إلى القول بأن الفكرة الدينية من شأنها أن تحول دون الإنطلاق إلى آفاق التحرر العقلى والاجتماعى والاقتصادى والعلمى » ، ولقد كانت مفاهيم المسيحية الغربية وتاريخ صراع الكنيسة مع العالم الغربى فى ذهن أمثال ماركس وسارتر وفرويد وهم يكتبون جيعاً فلسفاتهم فضلا عن تغرضاتهم الواضحة كيهود وصهيونيون فانهم إنما كانوا يصدرون عن واقع أوربا وتاريخها وأن الذين حملوا لواء هذه الدعوات لم يضعوا الإسلام فى حسابهم ، ولم يكونوا قد راجعوا مفاهيمه أو تاريخه ، لعلهم لم يعتبروا أن هناك (عالم) يدرس ويقتن غير الغرب .

ولقد كان من الطبيعى أن يكون هدف هذه الحملة على الأديان عن طريق علم الأديان المقارن أن تصل إلى القول بأنه لابد من بديل لهذه العقائد المرفوضة .

وأن يعرض هذا البديل عن أنه الحضارة نفسها أو العلم نفسه .

ومن هذا يبدو كيف أن دراسة الأديان فى الفكر الغربى قد بعدت عن الانصاف والحقيقة ، بينما لم يفعل المسلمون مثل ذلك فى دراساتهم .

ويشهد بذلك شاهد من أهله : يقول هاملتون حب :

أن العرب أكثر إنصافاً فى دراسة الأديان ، فقد كان كتاب العرب يذكرون المخالفين بكل حرية وفى كتاب طبقات الأطباء لإبن أبى أصيبعة وطبقات الحكماء لإبن القفطى وطبقات الأدباء لياقوت وفى الوافى بالوفيات للصفدى وفى تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ، أمثلة واضحة لهذا التسامح فقد ترجم المؤلفون للنصارى واليهود والسامريين والمجوس وكأنهم أبناء ملة واحدة .

ولقد كتب أبو الريحان البيرونى عن أديان الهند فى القرن الخامس من الهجرة فلم يمس عاطفة أحد من أهلها ، كأنه إذ كتب عن نحله يوهمك انه هو أحد أبناء تلك النحلة لتلطفه فى وصف شعائرها .

(٢)

واجه «الدين» حملة ضخمة من التشكيك من خلال المفهوم المادى الخالص الذى طرحته حركة التنوير ، وقد حاولت هذه الفلسفات القول « بأن الدين ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، لم ينزل من السماء ولم يهبط به وحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها »(١) .

فذهبت بعض المذاهب إلى القول بأن الدين وسيلة وليس غاية فى ذاته وانه وسيلة توصل إلى غاية أهمها معرفة الله ، ومن هنا فهم يرون أن كل وسيلة توصل إلى معرفة الله يمكن أن تعتبر ديناً ، وقد جرت المحاولة لوضع « الفكر الحر » فى مواجهة الدين ، من حيث أنه موصل إلى هذه الغاية فهو دين جديد .

---

(١) طه حسين عن دوركايم .

ومن هـذا المنطلق حاولت مقارنات الأديان أن تصل إلى هدف خطير : هو أن الدين بهذا المفهوم ليس إلا علاقة بين الفرد وبين الله ولا شأن له بالمجتمع مطلقاً . وأن المجتمع إنما يقوم على القوانين الوضعية .

ثم تصل هذه الدراسات إلى أبعد غاياتها حين تقول أن الأديان ليست شرائع ولكنها أعراف قديمة جرت عليها الأقوام[١] .

(٤)

وتحاول دراسة مقارنة الأديان أن تجدد مفاهيم الاغريق الوثنية التي جاء بها أفلاطـــون حين قال أن الأديان لم تمنع انتشار الشرور ولم تردع الخلق عن ارتكاب أنواع الموبقات . وأن الأديان اتخذت وسيلة لارتكاب أعظم استبداد . وأشار إلى دعوة سقراط في الفصل بين الأخلاق والدين التي قام به .

(٥)

وقد وجدت هـــذه الدعوة معارضة شديدة من أصحاب الدراسات الموضوعية الجادة فقد أكد البحث أن أمة ما لاتخلو من الدين وان خلت من العلم أو الفن وأن أي حضارة من الحضارات الكبرى كانت مرتبطة بدين وأن الحملة التي وجهت للأديان إنما قصد بها معارضة النظام الغربي المسيحي من خصومه الذين يطمعون في القضاء عليه ، ومن خصوم الأديان الذين يرون فيها عاملا خطيراً يحول دون تحقيق أهدافهم في الربا وإقامة الدولة العالمية التي لاتتحقق إلا بتدمير كل القيم الانسانية ، وقد أشارت أبحاث ضافية إلى أن الدين هو إحدى ضرورات الانسانية وأرسخ عمد البشرية وأن بلوتارك في العصور القديمة أكد هذا حين قال: « من الممكن أن نجد مدناً بلا أسوار وبلا ثروة وبلا آداب وبلا

---

(٢) اسماعيل مظهر (العصور — يونيه ١٩٢٩) .

مصارح ولكن لم ير إنسان قط مدنية بلا معبد أو لا تمارس العبادة ، ولم ير قط إنساناً خلواً من الدين ، وقال الباحثون أن الدين طور من أطوار الزمن البشرى وأن الدين حاجة من حاجات النفس ، وقد عارض تويلبى نظرية الدين المقارن ودعا إلى إرجاع الحق المهضوم للدين ، كمنقذ البشرية وكطريق للتحرر ، وقال أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بقيام الدين مرة أخرى ، وإن إنقاذ الحضارة المعاصرة سيكون فى يد الدين ، وأكد عدد من الباحثين الحقيقة التى تقول أن الدين مؤسسة اجتماعية لا يستغنى عنها أي مجتمع بشرى . وأن فكرة الدين متأصلة فى نفوس البشر بحيث لم يقم مجتمع بشرى فى العالم إلا وهو مشبع بفكرة الدين ، وقال ماكس موللر : إن الدين قوة من قوى النفس وخاصية من خواصها ، وقال بليامين كونشتان : إن الدين من العوامل التى سيطرت على البشر وأن التحسس الدينى من الخواص اللازمة لطبائعنا الراسخة . ومن المستحيل أن يتصور ماهية الانسان دون أن يتبادر إلى ذهننا فكرة الدين .

وقد أكد علماء الإجتماع أن الدين من أهم القواعد التى قام عليها بنيان المجتمع البشرى ، وقال سوندربلوم: فى كتابه مختصر تاريخ الأديان : إنه لم يعثر فى أى مكان على قبيلة أو شعب ليس له طقوس مقدسة أو أنه لم يؤمن بكائنات عليا وأن الذين ادعوا بوجود شعوب وقبائل لا تدين بدين إنما استندوا فى دعواهم إلى ملاحظات غير صحيحة ويقول كارو . إن من قواعد الدين الأصلية :الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وحاطها بعنايته وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنسانى وأكد كثيرون ملاشاة فطرة التدين فى الإنسان بل أكدوا أن هذا الميل سيأخذ فى النمو رويداً رويداً . وإن فطرة التدين ستلازم الإنسان مادام له عقل يميز به بين القبح والجمال . ويقول أرنست رينان فى كتابه تاريخ الأديان : من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ،

ولكن يستحيل أن يتلاشى التدين بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الإنساني فى المضايق .

(٦)

كما وضح أن الأزمة الدينية التى مرت بها أوربا والفكر الغربى ومنها انطلقت إلى العالم كله تثير الشبهات إنما كان مصدرها اضطراب مفهوم الدين كما طرحته المسيحية الغربية مناقضاً للعقل معارضاً لمنطلق الحياة، حاثاً على الزهادة والروحية الخالصة ولذلك جاء من أكبر نتائجه وتحدياته رد الفعل بالدعوة إلى المادية الخالصة وظهور ما أطلق عليه بالبشرية والدعوة إلى الإيمان بالإنسان بدلا من الإيمان بالله ثم خلق الصراع بين الدين والعلم وقد جاء ذلك كله استمداداً من أن المسيحية ليست إلا منهجاً من مناهج اللاهوت ، تقتصر على الروحية الخالصة وأنها لم تقم فى الأصل على نظام مجتمع ومن هنا فإن هذه الشبهات عندما نقلت إلى المسلمين كانت غريبة عليهم متعارضة مع مفاهيمهم ودافع دينهم وتاريخه حتى ليمكن أن نقول بصدق : إن كل ما وجه إلى الدين من حملات وما تعرضت له أبحاث الدين المقارن إنما هو موجه إلى الأديان التى عرفتها بيئة الغرب ، وأن هذا التعارض بين مفاهيم اليهودية التلمودية والمسيحية الغربية هو تعارض أساسى بين المادية والروحية وبين الربا والرهبانية . ومن ناحية أخرى فإن الفكر الدينى على النحو الذى عرفته أوربا (بكهنته وكنيسته وطقوسه) لم يكن قادراً على إعطاء النفس البشرية منطلقها إلى الحضارة والنهضة ، وكذلك فإن أوربا لم تستطع أن تمضى قدماً إلا بعد أن تحررت من نفوذ هذا الدين وقيوده .

(٧)

ولا ريب أن كتاباً من الغرب كثيرون عارضوا نظرية مقارنة الأديان ،

بما تحمل من أخطاء وأهواء . وقرروا : أن الأديان أساس الثقافة وأن كل ثقافة مشتركة بين الناس تنبع أول ما تنبع من عقائدهم الدينية . وأن المسيحية هي الأساس الأول للثقافة الأوربيـة بقدر ما كانت الهندوسية بالنسبة للثقافة الهندية[1] .

كما عارض الباحثون الفكرة التي طرحتها مقارنة الأديان من أن الناس كانوا وثنيين في الأصل ثم عرفوا التوحيد .

كما سقطت نظرية تعليل انتشار الدين بالظروف المادية فقد سقطت تنبؤات المعارضين للدين الذين أعلنوا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر أن عهد الدين قد انقضى وأن بقاءه على الأرض مرتبط ببقاء السذاجة العامة ذلك أن الدين لم يلبث أن كسب نفوذاً جديداً في مجالات كثيرة وأهمها في مجال العلم نفسه .

فقد عجز العلم الحديث أن يحل للناس مشاكلهم أو يرد على أسئلتهم الحائرة . وتبين أن العلم لم يزد على أن يكون دراسة لظواهر الأشياء ، وأنه لابد لمعرفة الكون والله من مصدر آخر غير العلم : هو الدين ولقد تبين أن العلم ليس هو التحدي القائم إزاء الدين ولكنها الفلسفة ، ذلك أن العلم استطاع أن يؤكد حقيقـة الدين ولا ينفيه ، أما الفلسفات فهي التي طرحت مختلف المفاهيم التي واجهت الدين بالتشكيك وأوجدت ذلك التعارض والخصومة .

ولم تكن نظرية دارون هي التي زعزعت الأديان ولكن تفسيرها الذي قام به خلفاء دارون وكانوا يقصدون به هدفاً بعيداً .

---

(١) ت . س . اليوت .

(٨)

ولعل من أخطر ما واجه الدين نظريات التفسير المادى للتاريخ وما تبعها من أمثال نظرية المادية الجدلية التى ترى أن الدين ليس إلا نظاماً خلقته الطبقات الظالمة، وقد غالى كارل ماركس فى حملته على الديانة المسيحية زاعماً أنها هى التى بررت الرق والاستعباد . وقد شعر لينين بأن الدين أكثر الاعتقادات رسوخاً وأنه هو الرابطة التى تجمع بين كل الآراء والاعتقادات الأخرى فهاجمه بقوة ثم هاجم الكنيسة الكاثوليكية لأنها كانت آلة بين القياصرة ولأنها قاومت الحركات الثورية أثناء الحرب الأهلية .

* * *

وقد أشار ارنولد توينبى فى كتابه العادة والتغيير : إلى صراع الأيديولوجيات للدين فقال : إن التدين جزء من الطبيعة البشرية . الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير دين من نوع ما ، فلقد ترتب على تراجع الدين عن موقفه فى أوربا بعد أن قامت ديانات بديلة تسمى المذاهب الفكرية أو الإيدلوجيات الفردية أو الرأسمالية أو الجماعية أو الشيوعية أو الوطنية أو القومية . إن الحرب التى تستعر بين الأيدلوجيات المعاصرة والأديان العليا السماوية هى أخطر بالنسبة لمستقبل البشرية من المشادة بين الشيوعية والرأسمالية .

الشيوعية إصرار على العدالة الاجتماعية فيه تضحية بالحرية ، والرأسمالية تضحيتها بالعدالة فى سبيل الفردية ، إن كل منهما يؤيد جانباً على حساب الجانب الآخر ، وكلا النظريتين مادية ، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان صراعهما معاً ، وكلتاهما فى صراع مع الوطنية أو القومية .

إن نقطة ضعف الإيدلوجيات هى منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان ، فبعد أن حررته الأديان من

عبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجه إلى الله وحده ، عاد الإنسان إلى سجن المجتمع ، وبعد أن كان فى علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة فتضاءل ليصبح نملة اجتماعية فى مجتمع النمل . « لقد استطاعت الأديان أن تعلم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعيـة ولـكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار . والإيدلوجيات لا تستطيع أن تنسيه هذه الحقيقـــة لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحى الذى منحته إياه الأديان « وجدت الأديان لتحرر الإنسان من اسار المجتمع وبصفة مباشرة أمام مسئولياته استطاعت الأديان أن تمنح معتنقيها هداية لا تستطيع أن تجاريها فيها الإيدلوجيات الحديثة. لقد منحته الاطمئنان والمساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح. منحته الراحة الروحية وحررته من سجون المجتمع!.

« لاغنى للإنسان عن الدين ولن تستطيع أن الايدلوجيات أن تحل محل الدين لأنها تمنحنا التعصب والتباغض بدلا من المحبة والتعاون .

« انها قد تمنحنا لقمة الخبز ولـكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحى .

(٩)

إن دراسة الدين دراسة علمية صحيحة بعيداً عن أهواء الدعوات والحركات التى تقودها جماعات تدعو إلى الحـكومة العالمية أو الصهيونية أو الايدلوجية المادية أو التفسير الاقتصادى للتاريخ: هذه الدراسة من شأنها أن تـكشف حقائق كثيرة: إنها تـكشف أول ماتـكشف إن فى العقل البشرى ميلا إلى التوحيد فهو يطلب دائماً الوحدة لا التنوع . ويرى علماء الاجتماع المحدثين عدم جواز بقاء مؤسسة تستند إلى الـكذب والزيف لتدوم وقتاً طويلا وأن تظل على حيـوية عظمى وقد أشار كثير من الباحثين إلى أن التحديات التى تواجه الدين فى العالم المعاصر: إنما تتمثل فى موجتين كبيرتين[١] :

---

(١) راجع بحث دكتور عمر حليق — الرسالة م ١٩٥١

(الأولى) المادية التى لاترى فى الدين إلا تخلصاً من الواقع ولجوءاً إلى التحذيرات الروحية التى أبرز مافيها أنها توجه السلوك الإنسانى توجيهاً سلبياً إزاء مشاكل الحياة.

(الثانى) موجة التحليل من القيم الدينية التى بدأت فى أوربا الغربية فى القرن الماضى وتتزعمها اليوم الحضارة الأمريكية.

والموجتان تأخذان نظرية «التفسير المادى للتاريخ» أساساً لها وتضيف إليها عنصراً من أخطر العناصر فى السلوك الانسانى وهى تركيز النشاط الفكرى والنفسى فى حرية الغريزة والأهواء.

(١٠)

إن أصدق نظرية فى مقارنة الأديان تقوم على الفصل بين الأديان السماوية والأديان الوضعية الأرضية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى: النظر إلى مقدرة هذه الأديان السماوية فى المحافظة على قيمها الأساسية خلال التاريخ أو عجزها عن ذلك، وتغلب الأهواء عليها.

ولقد ثبت أن اليهودية دين أمة وقوم وأن المسيحية آخر أديان اليهود وأن المسيح آخر أنبيائهم، وان تعديلا كثيراً دخل على الدين الذى أنزل على موسى والدين الذى أنزل على المسيح، أما الإسلام فقد احتفظ بقدرته الفائقة على سلامة تعاليمه وكتابه.

فضلا عن أن الإسلام تميز بأنه الدين الخاتم وانه دين البشرية كلها وأنه جمع بين العقيدة والشريعة والأخلاق وأنه شكل مجتمعه من اللبنة الأولى وانه جعل التوحيد حجر البناء الأول وانه عصارة الدين الحق الذى أرسل الله به الأنبياء والرسل منذ فجر البشرية وانه قام منذ اليوم الأول فى بناء منهج حياة وأنه هو الذى دفع المسلمين إلى العلم فكان مصدر المنهج العلمى التجريبى ومن

هنا فقد استطاع بهـذا المفهوم والمنطلق والتاريخ أن يتفادى كل ما وجه إلى الأديان من نقد وما أصابها من إنحراف فقد ساير الفطرة وأقام من الالتزام الأخلاق أساساً لمنطلقاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وقد أفسح الإسلام للعقل سبيلا ، وأقام للبرهان حجة وجعل التفكير فريضة ، وبذلك عجز أمثال فولتير أن يصفه بأنه كان مخالفاً للإنسانية أو مجافياً للعقل، كما كان فى واقعه معارضاً لنظرية الفصل بين الدين والمجتمع . كما انتفت عنه قضية الصراع بين الدين والعلم وأصبح عسيراً أن تطبق نظرية نقد الأديان ومنهاج المقارنة بينها على الإسلام .

* * *

ولقد عجزت أى نظرية فى مقارنات الأديان أن تضع الإسلام فى موضع المقارنة مع الأديان التى سبقته للاختلاف الواضح بين واقعها وأصلها وبين ما احتفظ به الإسلام من قدرة على تماسك الأصل بالواقع خلال أربعة عشر قرناً دون تحريف وبغير أوان يصيب النص القرآنى أدنى تبديل .

(١١)

من أكبر القضايا التى أثارها دعاة المنهج المادى فى الدين المقارن : مسألة الخلاف بين الدين والعلم والواقع أن خلافاً ما لم يقع بين الدين والعلم وإنما وقع الخلاف بين اللاهوت والعلم .

يقول إسماعيل مظهر : أن الصراع بين الدين والعـلم مستحيل فطرة واجتماعا . وإنما الصراع بين اللاهوت والعلم :

تلك الفجائع التى يرويها التاريخ خلال القرون الوسطى ، ما سبب محاكم التفتيش لتحرق وتقتل تحت عنوان الهرطقة والخروج على الدين .

« لم تبلغ الخصومة بين العلم واللاهوت من الشدة ما بلغت فى القرون الوسطى بين أحضان النصرانيــــة فإنك لا تعثر فى تاريخ الأديان كلها على تاريخ يشابه تاريخ مذاهب اللاهوت النصرانى فى قيامها فى وجه العلم أزماناً طوالا بل قروناً متعاقبة .

« والسبب فى هذا أنه قامت لدى اللاهوتين فكرة ثابتة فى أن العلم لا يجب مطلقاً أن يبشر بشىء فيه أقل مخالفة لظاهر ما جاءت به الأسفار المقدسة والمتون ورسائل الحواريين » .

وقد أشار بعض الباحثين إلى مدى الخطأ الذى وقعت فيه الكنيسة بالنسبة لأصل الإنسان وتقيدها بالقصة الواردة فى التوراة .

* * *

ومن الحق أن يقال أن هناك نزاعاً نشأ بين الدين والعلم فى أوربا ، أما بين الدين الذى هو الإسلام فان أمراً من ذلك لم يحدث وفى هذا يقول الشيخ عبد العزيز جاويش :

[إذا تحدثوا عن تاريخ النزاع بين العلم والدين فيأخذونه من غير تاريخنا، وإذا ذكروا سيئات وضع السلطة فى أيدى رجال الدين فانما يتكلمون عن محيط غير محيطنا وماض غير ماضينا] .

ولقد يقول الغربيون بالخلاف بين الدين والعلم أما المسلمون فلا يقولون بذلك :

فعلماء العلم من أمثال دكتور على مصطفى عبد الرازق يقول :

أن العلم يعنى بالحقائق الموضوعية وأن الدين يعنى بالقيم الروحية ولكن

طلب العلم فى ذاته مبنى على قيمة روحية هى حب الحق ، فطالب العلم طالب حقيق ، ولذلك كان الدين (أى الإسلام) مشجعاً على طلب العلم ودافعا إليه . ولذلك كان الواجب على علماء الدين ورجال العلم أن يتعاونوا و يتناصروا فى خدمة الحق وفى خدمة الفضيلة فان فى تعاونهم وتناصرهم رخاء البشر وسعادتهم .

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : لست من القائلين بأن العلم كان يوماً من الأيام يناهض الدين ، ولم يحض الدين على معاداة العلم بل على العكس أن الإسلام يدعوا إلى حرية البحث وصراحة التفكير والتسامح الذهنى .

العلم والدين اليوم يتكاملان وأستطيع القول بأن العلم فى الأيام المقبلة سيخطو نحو الدين خطوات جريئة .

(١٢)

إذن فلماذ تأجيج هذا الصراع وتأريثه الدائم :

« إن الخشية من الأديان ظهرت فى دساتير الأمم الحديثة فى الغرب بهدفين :

(الأول) هدف من وراء اليهود الذين كانوا يرون أن النص على الدين سيكون المسيحية ومن هنا سيكونون فى الدرجة الثانية .

(الثانى) كان الدين نفسه قد فقد مركزه الضخم بعد الحملات الضخمة التى وجهت إليه وبعد مواقفه التاريخية فى تأييد الملوك والأمراء والإقطاع . فضلا عن موقفه من العلم .

« لذلك حرص الأوربيون على أبعاد الدين دفعا للحرب التى استمرت طويلا وللصراع الدينى الذى وقع بين المذاهب الدينية . وقد وجهت إلى المسيحية الغربية شبهات كثيرة منها أنها لا تفى بحاجة النفس الإنسانية ولا تحقق غاياتها وأنها تحرم الكثير وتدعو إلى الزهد .

ولكن هذا كله يجد مواجهة صحيحة ويختلف اختلافا بينا إذا عرض بالنسبة للعالم الإسلامى أو بالنسبة للمسلمين والعرب أو بالنسبة للإسلام ، وموقفه من العلم أو من وحدة الأمم أو من النهضة .

ولكن محاولة تطبيق مثيل للغرب على الإسلام إنما هو هدف أساسى من أهداف الاستعمار والصهيونية وهو إبعاد الإسلام عن المجتمع وإبعاده عن السياسة وإبعاده عن القانون لأنه أداة مقاومة ضخمة وسبيل إلى الوحدة الجامعة .

[خاتمة]

نظرة عامة إلى موقف الاسلام من الفكر البشرى

إن هدف هذه المحاولة عبر سبعمائة صفحة كاملة هو تقرير حقيقة واحدة هى أن الإسلام له ذاتيته الخاصة التى لا تحاكم إلى أى فلسفات أو مناهج الفكر البشرى .

وإن الإسلام ليس دينا كسائر الأديان ولكنه حركة اجتماعية واسعة تشمل الإعتقاد والدولة والنظم الاجتماعية والأخلاق فقد خلق الاسلام العرب خلقاً جديداً ودفعهم إلى الآفاق يحملون رسالته .

وإن النظر الفلسفى الخالص لا يمكن أن يكون أساساً للفكر الإسلامى ولا يمكن الوصول إلى الحقائق الأولية إلا عن طريق الوحى .

وإن الفلسفة ليست قرينة الوحى ولا مناظرة له فهى لا تزيد عن كونها استخداما للعقل .

كذلك فان الاسلام جاء حاكما على الناس والمدنيات والأمم ولم يجىء محكوما بهم وليس الاسلام مطية ذلولا لتبرير النظم والأيدلوجيات ، فضلا عن أن الاسلام ليسا شيئا يؤخذ منه ويترك بما يبرر هذا المنهج أو ذاك ، ولكنه نظام متكامل له مقوماته المستقلة التى تخضع للأهواء والأغراض ، ولقد جنب مفهوم التوحيد فى الاسلام المعارف الاسلامية من الانقسام إلى دينى وعقلى .

وسمة الإسلام الواضحة هى الارتباط العضوى بين العقيدة والعمل،وليس

الدين هو مجرد المعرفة بل هو التطبيق أيضاً . ذلك أنه لا فاصل بين العقيدة وبين أداء المسلم لها . والربط قائم دائما بين الإسلام والإيمان دون الفصل بينهما . ممثلا فى التوحيد بين السلوك وهو المظهر الخارجى والإيمان وهو المفهوم المستكن فى أعماق النفس :

أى الربط بين التصديق بالقلب وعمل الجوارح .

وأن نظرية فصل الدين عن الحياة وعن الفكر فى الغرب على النحو الذى يوصف بالعلمانية : هو أمر له ظروفه الخاصة فى مجتمع الغرب ، نتيجة مواقف تاريخية وآثار وقفها الدين هناك من التقدم والعلم .

(ثانيا) إن الدين ظاهرة اجتماعية أصيلة رافقت البشرية منذ أول نشأتها فلم تخل جماعة من دين ، ولذلك فان القول بأن البشرية بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد هو افتراض باطل لا توجد من الأدلة الصحيحة ما يؤيده ، بينما توجد الأدلة التاريخية والعلمية ومصادر الوحى ما يؤكد أن الدين فطرة بدأت مع الإنسان وأن البشرية عرفت التوحيد ثم انحرفت عنه .

فالحقيقة الأولى فى الدين : هى التوحيد وليس الوثنية ، هى عبادة الله الحق وليس عبادة الأصنام ، وقد تأكدت هذه الحقيقية فى القرآن، وكشفت عنها كثير من الحفريات والأبحاث الأنثروبولوجية ، بحيث لم يعد معها مجال لأى شبهة أو إثارة تؤيد تلك النظرية الزائفة التى رددتها أبحاث اليهودية التلمودية هذه الحقيقة تبطل كل ما أذاعه خصوم الأديان من القول بتدرج البشر من معتنق قوامه : السحر والكهانة والتنجيم والتمائم والطقوس إلى عقيدة التوحيد ذلك أن الإنسان بالقطع واليقين بدأ موحداً ، وآدم عليه السلام أول البشر هو أول من حمل رسالة التوحيد إلى الناس .

أما السحر والكهانة والتنجيم والتمائم فتلك هى تحولات الإنسان من

التوحيد إلى الوثنية تحت تأثير الانحراف عن الدين الحق .

(ثالثاً) لقد جاء الإسلام بالحقيقة الكبرى الناصعة فقرر أن الإله واحد ونفى كل أنواع التعدد ، وقرر أنه لا يشبهه شيء من خلقه ولا يسعه شيء من ملكه . وقرر أنه متصف بالكمالات كلها منزه عن النقائض كلها ، وقرر أن العقل الإنسانى يستطيع إدراكه ومعرفة كنه ذاته وحقيقة صفاته .

ولقد تناول القرآن كل الشبهات التى لصقت بمعنى الألوهية من أردان الأمم السابقة فكشف عن زيفها ونقض خطأها وإنحرافها ، وخلص إلى ذلك من طريق علمى قائم على الحجة والبرهان ، ومتصل بالفطرة البشرية الصافية ، ثم تناول صلة الإنسان بالله وكيف أن الإنسان مربوب لله ، وأن الله مع الناس أينما كانوا وأنه هو الذى يهديهم الطريق إلى الحق ، ويقبل توبتهم إذا انحرفوا عنه .

لقد جاء القرآن مصححا لجميع الشبهات وأنواع البلبلة والزيف الذى وقعت فيه الديانات المنحرفة والفلسفات الخالطة سواء ما اتصل بما كان قبل الاسلام وما تجدد منه بعد الاسلام .

(رابعاً) أعلن القرآن فكرة الخلق من العدم وأن الله خالق وأنه خلق هذه الأكوان كلها من لا شيء ، وأوجد هذا العالم كله من العدم وبهذا أنكر القرآن فكرة قدم المادة وقدم العوالم . وكما أعلن بدأ الزمان فقد أعلن نهايته ، وبذا أنكر سرمدية المادة وعدم فنائها .

وإذا كان القرآن قد أنكر قدم المادة فقد أعلن حدوثها وحدوث[1] العالم ، وهنا ينتقل القرآن من الميتافيزيقا إلى الطبيعة ، فقد خلق الله الأرض وموج البحر وأقام الجبال وخلق هذا كله ليكون إطاراً لحياة الانسان الذى خلقه الله ليكون مستخلفاً فى الأرض والمثال الأكبر للقدرة التى لا تحد .

---

(١) رجعنا فى هذا الى أبحاث الدكتور النشار وقدمنا نصوصا كاملة .

وقد طلب القرآن من المؤمنين أن لا يتجاوزوا حقائقه وان حقائقه كافية بذلتها لكى تمنح النفس الانسانية الحقيقة الكبرى التى لا مرد لها ، والتى هى غاية كل شىء وهى الحق تبارك وتعالى .

وقدم القرآن الحقائق التى لا مجال للعقل أن يرتادها أو يصل اليها وترك للعقل الوصول إلى الحقائق التى تتصل بالمادة والتجربة .

ولقد أعلن القرآن وحدة الله وعليته ، مقابلا لكل تفكير سابق عن فكرة الله ، وزيف كل تصور لله سبحانه من تصورات الفلسفات سواء أكان صانعاً أو محركا .

وخلق الله آدم من مادة الحياة (الطين) وقد وضع فيه الفضيلة والخطيئة وأنزله الأرض لكى يقيم الحياة .

خامساً : ورسم القرآن للفكر الانسانى أبعاد الغيب مما لا يستطيع العقل أن يصل إليه وقدم منهجا كاملا فيما يتعلق بالله والكون والانسان .

« فالله هو الخالق الحق القادر الحكيم الذى ليس كمثله شىء لا تدركه الأبصار وهو مبدع بالمعنى الحقيقى ، ليس شيئا مما يتصورون مما تقول الفلسفة تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

« فليس الله صورة مفارقة ولا هو محرك أول غير متحرك وليس مثالا بين مثل يشمل على عالم وراء السماوات من غير أن يكون له دور حقيقى فى ايجاد هذا العالم وتدبيره ، كما يؤخذ من مذهب أفلاطون ، وليس روحاً أو قـــوة سارية فى الكون المادى كما يزعم الفلاسفة ، بل هو صانع مدبر منزه عن صفات هذه الأشياء الحادثة المتغيرة ، متعال عن تشبيهات المشبهين وتجسيد المجسدين من أهل المذاهب الأخرى . والعالم : صنع « حادث » فى ذاته وفى نظامه وهو مظهر للحكمة والرحمة وهو الدليل القريب الظاهر على وجود الله وهو على عظمته عالم صغير وراءه عوالم كبيرة .

« والإنسان : أعظم الكائنات وأرقاها من حيث المرتبة واجتماع صفات الكمال الممكنة للمخلوقات ، فيه نفحة من خالقه ، وهو كائن كريم له فى الدنيا رسالة تترتب على ماله من عقل وقدرة وإختيار وإدراك لمعنى الحق والخير والأمر والنهى وليس بالكائن الساقط أو المعاقب ، ولا هو كائن عارض فى هذا الكون ، بل هو محور الكون المادى وخليفة فى هذه الأرض ليعمرها باسم الله مهتديا بإرشاده على أساس العلم بالحق وإفاضة الخير والبر وحياته ممتدة قبل هذه الدنيا وبعدها ، وهو هنا يؤدى رسالة ويحمل أمانة ويجاهد ويكافح ، يخضع الطبيعة ويجاهد نفسه ، فى داخل خطة الخالق الحكيم ، ثم ينتقل إلى عالم آخر : هو عالم الحساب والجزاء بعد عالم الاختبار والابتلاء »[١] .

سادساً : كذلك قرر الإسلام « النبوة » والوحى وجعلها من الحقائق الثابتة ، ولقد ثبت أن العلم علمان : علم لاتستطيع الإنسان أن يصل إليه بقدراته الذاتية ولكن هذه القدرات تستطيع أن تفهمه وتؤمن به وهو عالم الغيب بكل مايتصل به ولذلك كان الوحى وكانت النبوة وكانت الكتب السماوية دليلا على ذلك العلم ، وفى نفس الوقت أتاح الله للإنسان أن يعمل بعقله فى مجال اكتناه أسرار الأرض والبحث عن خيراتها وثمارها من أجل عمرانها .

ولذلك فقد تأكد أن العقل غير كاف وأنه لابد من الحاجة إلى النبى ، الذى يرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل المعاد والجزاء ويكشف عن وجوه الأشياء التى تدرك بالعقل : حسنها وقبيحها ، ومن هنا كانت ضرورة النبوة والوحى للبشرية[٢]

ولما كان الإنسان وسيظل فى حاجة إلى هداية الله فقد جاءت النبوة والرسالة لتضعه دائماً على الطريق الصحيح كلما انحرف ، ولتوجه طاقاته إلى الخير

---

(١) بتصرف من نص للدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده .

(٢) من نص للأستاذ محمد المجذوب .

فهو عاجز بمفرده عن الأمن وعن الهداية وفى حاجة دائماً إلى هذه الحماية والتوجيه حتى يستطيع أن يلتزم حدود الله وضوابطه .

سابعاً : من أكبر مقررات الاسلام التى تعد فيصلا عميقاً بين فكر وفكر : حرية الإرادة والمسئولية الفردية .

ومفهوم هذه العقيدة الأساسية فى بناء الفكر الإسلامى أن الله لم يجعل الانسان مكرها على فعل شىء ولاترك شىء ، ولكنه أراده سبحانه أن يكون عاقلا ومنحه تمييزاً وإختياراً وعقلا مدركا جعله به مكلفاً مختاراً بالتكاليف الشرعية ، أى جعله حراً يفعل مايختار وهذه الحرية قد أرادها الله له ومنحها له فهى من إرادة الله فلا يأتى العبد شيئا ولايذره إلا بعلم الله وقدره .

وأن معنى تقدير الله للأشياء ، إنما هو جعلها بمقدار مخصوص ونظام محدود وهو ربط أجزاء الكون ربطاً محكما دقيقاً لاتفاوت فيه بحيث لايصطدم فيه شىء بآخر ولايتناقض جرم مع غيره .

فالمسلم يؤمن بأن له إرادة حرة وأن له مسئولية على تصرفاته وله حساب وجزاء فى اليوم الآخر بعد البعث والنشور .

ومازالت عقيدة القضاء والقدر من أعظم معطيات الاسلام وقد كانت وستظل مصدر الانتصارات العظيمة التى حققها المسلمون خلال تاريخهم الطويل .

ثامنا : جاء الاسلام بفكرة رئيسية هى فكرة « الحق » فى كل شىء : فى التوحيد والمعرفة والكون والحكم على الأشياء ، ولقد أقام الاسلام منهج المعرفة على أساس الحق ، معارضاً للجمود والتقليد : « أن الظن لايغنى عن الحق شيئا » ، « قل هاتوا برهانكم » كما يحارب الهوى ويطالب بالدليل والبرهان ويقرر مسئولية الانسان عن وسائل المعرفة التى وهبها الله له .

[ولاتقف ماليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا].

تاسعاً : كان موقف الاسلام بالنسبة للإنسان غاية فى السلامة والانصاف والفهم الدقيق وأبرز معالم هذا الفهم الدقيق ترابط الروح والمادة فيه: يقول ليوبولد فايس (محمد أسد) « أن الاسلام من دون الأديان السامية جميعاً يعتبر روح الانسان ناحية واحدة من شخصيته وليس ظاهرة مستقلة : وبالتالى فإن نمو الانسان الروحى فى نظر الاسلام ، مرتبط إرتباطا لا إنفصام له بجميع نواحى طبيعته الأخرى ، أن الدوافع الجسمانية جزء متمم لطبيعته فهى ليست نتيجة أى خطيئة أولى ، ذلك المفهوم الغريب عن تعاليم الاسلام، بل قوى إيجابية وهبها الله للإنسان فيجب أن يتقبلها أو يفيد منها بحكمه على أنها كذلك ، ومن هنا فإن مشكلة الانسان ليست فى كيف يكبت مطاليب جسمه ، بل كيف يوفق بينها وبين مطاليب روحه بطريقة تجعل الحياة مترعة وصالحة . أن جذور هذا التوكيد الايجابى للحياة الانسانية ، إنما يوجد فى النظرة الاسلامية القائلة بأن الانسان مفطور على الخير . بخلاف الفكرة المسيحية التى تقول بأن الانسان يولد مكسوا بالخطيئة الأولى أو العقيدة الهندوسية التى تقول بأنه منحط ونجس أصلا ويجب أن يتخير عبر سلسلة طويلة من التناسخ نحو الكمال . بخلاف ذلك كله يقول القرآن الكريم « ولقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » أى فى حالة من الطهارة لايمكن أن تفسد إلا من طريق السلوك السيء من بعد « ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا » .

عاشراً : ومن هنا فان الانطوائية والتشاؤم والرهبانية وفكرة الهروب من الحياة لاتجد لها مكاناً فى مفاهيم الاسلام لأنها تتعارض مــــع السماحة والانفتاح الذى يتسم به ، فضلا عن إعترافه الواضح بالغرائز ومنطلقاتها وإن دعا إلى ضبطها وتحريرها من الفساد .

حادى عشر : من وجوه الاختلاف والتباين بين الاســـلام والأديان ، مسألة الرموز .

فالرموز فى الاديان وهى الصور والتماثيل والأشكال والأدوات التى ترمز إلى جوانب رئيسية من العقيدة نفسها كالصليب فى المسيحية ونجمة داود فى اليهودية والصور وغيرها .

فقد خلا الاسلام من هذه الرموز خلواً تاماً ، لأن طبيعته كعقيدة قائمة على التوحيد المطلق والتنزيه الكامل لله سبحانه وتعالى عن أى تصوير أو تشكيل أو رمز مادى فإذا وجدت رموز فى الملابس أو الرايات فإنهاليست من الاسلام ودخيلة عليه .

ثانى عشر : لايقر الاسلام مفهوم البطولة القائم على الوراثة أو الجنس أو اللون ، وإنما يجعلها مرتبطة بالعقيدة فالفكر الاسلامى هو الذى أعاد تشكيل النفس الاسلامية وهو صاحب الأثر العميق فى بناء بطولة عمر وعثمان وعلى وخالد ، نتيجة التحول الخطير الذى أدخله الاسلام إلى عقولهم وقلوبهم وأنفسهم وبما غير من الموروث والطبائع وبما صاغها من جديد . أن منهج لومبروز فى تكوين البطل وإعتماده على الموروثات هو أشبه بالتفسير المادى للبطولة لأنه يعتمد على التركيبات المادية فى الانسان ، وليس على روحه وفكره .

ثالث عشر : الفكر الاسلامى المنبثق من الاسلام ، ليس هو الفكر الغربى الهليني ولا الفكر الشرقى الغنوصى وهو ليس مركباً للفكرين وليس حلقة إتصال بينهما بل هو فكر مستقل له طبيعته الذاتية الخالصة المتحررة من الوثنية والثنائية والتعدد .

وأن أهم مايتميز به الاسلام هو أنه لايفصل بين الدينى والدينوى ، ولقد هدم الاسلام بحقيقة واقعة وتاريخية الافتراض الذى يقول بأن الدين يدفع

الإنسان بعيداً عن النضال والعمل ، ذلك أن الاسلام كان عاملا هاما فى بناء الحضارة الإنسانية وفى حركات التحرر والتقدم .

رابع عشر : كان للإسلام أثر بعيد المدى فى الفكر الغربى كله فقد فتح الطريق إلى عديد من خطوات التحرر والأصالة . فالاسلام هو الذى أعطى لوثر وكالفن مفاهيمهما فى تحرير الفكر المسيحى الغربى وهو الذى كان مصدر الحملة على عبادة الصور والطقوس فى الكنائس وهو الذى أعطى الغرب مفاهيم الفروسية ومعانى المروءة والنخوة ونصرة الضعيف ونجدة الملهوف وكان له أثره فى ظهور أدب التروبادور — والإسلام هو الذى قدم للبشرية المنهج العلمى التجريبى الذى صدرت عنه الحضارة الغربية كما قدم منهج المعرفة المتكامل الجامع بين الروح والمادة .

وقد رفض الإسلام الخرافات الوثنية وتعدد الآلهة وطابع الإباحة فى التراث اليونانى كما حرر الفكر الأوربى من وثنية الفكر الإغريقى وقد كان أبلغ كفاح المسلمين فى تاريخهم كله هو : كفاحهم من أجل تحرير الفكر الاسلامى من هيمنة الثقافات الوافدة والعقليات الغربية سواء أكانت يونانية أو مجوسية أو غربية .

خامس عشر : من أبرز أوجه الخلاف بين الإسلام والأديان أن الإسلام هو الذى صنع المجتمع الإسلامى بينما إحتوت المجتمعات الأخرى القائمة فعلا أديانها التى إعتنقتها والإسلام لا يعترف بطبقة معينة يمكن أن تسمى رجال الدين لها نظام خاص أو حقوق معينة أو نفوذ من أى نوع ولكن هناك علماء متخصصون فى العلوم والعقائد .

سادس عشر : عقيدة البعث والجزاء فى الاسلام ركن أساسى ومنطلق أساسى للأخلاق والمسئولية الفردية . والبعث والجزاء فى الاسلام جسمانى

وروحانى معاً متميزاً بذلك عما فى عقائد كثيرة ممن تنكر البعث جملة أو تجعله روحانياً صرفا .

وتعد عقيدة البعث والجزاء الركن الثانى الاسلام بعد التوحيد وهى نبراس العمل فى الحياة كلها .

سابع عشر : أن الاسلام لا يحاكم بواقع المسلمين ولا يحاكم بفترة الضعف التى مرت به ، لأن المسلمين فى هذه الفترة كانوا قد إنفصلوا عن جوهر فكرهم.

والاسلام عقيدة وتاريخ ، أما العقيدة فهى الأصول الثابتة التى يتحاكم إليها ماضيهم وحاضرهم ، أما التاريخ فإنه قد سار خطوات مع العقيدة ثم إنحرف عنها فهو لا يعتبر مصدراً من مصادر الحكم على العقيدة نفسها ، بل تعتبر العقيدة حكما على تاريخ المسلمين ، إتصالا بها فى مجال التقدم أو إنفصالا عنها فى مجال التخلف .

ثامن عشر : أن الاسلام لا يقف فى وجه العلم ولا تقدم الحضارة حين يقف عند حدوده وضوابطه التى ترفض التطور فيها ، إنما يقف الاسلام أمام إتجاه العلم إلى أعمال الابادة ، ويدعو إلى تحرك العلم فى إطار الأخلاق . ويوجهه إلى نفع البشرية وحل مشاكلها وشفاء أمراضها وتحويل الخبرات الكامنة إلى رزق ييسر الحياة ولا يقف الاسلام أمام الحضارة بوصفها مدنية ولكن يقف أمام جوانبها الهدامة كالخمر والربا واستعباد البشر والزنا والتحرر الكامل من قيم الأخلاق وضوابط المجتمعات .

١ – مصادر البحث

أولا : القرآن الكريم

ثانياً : الجامع الصحيح للإمام البخارى .

٢ – المراجع العامة

منهاج السنة لابن تيمية

المحلى لإبن حزم

تاريخ الأمم والملوك للبطرى

فتوح البلدان للبلاذرى

مقدمة ابن خلدون

العواصم من القواصم للقاضى بن العربى

الفصل فى الملل والنحل لابن حزم

رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده

إحياء علوم الدين للغزالى

٣ – مراجع

محمد فريد وجدى : دائرة المعارف الإسلامية

أحمد حسين : الإسلام ورسوله بلغة العصر

لانجـــة : تاريخ المـادية

د. محمدعبد الهادى أبو ريده : بحث عن الاسلام والأديان (بجلة عالم الفكر)
د . محمد أحمد الغمراوى : العلم والدين
محمد قطب : الانسان بين المادية والروحية
جوان كوماس : خرافات عن الأجناس
عبد الحميد العبادى : الاسلام والمشكلة العنصرية
أنور الجندى : القيم الأساسية للفكر الاسلامى
جون كارل فلوجل : الانسان والأخلاق والمجتمع
د صبرى جرجس : التراث الفرويدى
د . توفيق الطويل : المثل الأعلى فى فلسفة الأخلاق
محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية
د . أحمد شلبى : مقارنات الأديان : اليهودية : المسيحية
ول ديورانت : قصة الحضارة
د . محمد وصفى : الارتباط الزمنى
د . عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفة اليونانية
د . عمر فروخ : العرب والفلسفة اليونانية
أبو الحسن الندوى : رجال الدعوة والفكر
أحمد أمين : ضحى الاسلام
د . على سامى النشار : مناهج البحث عن مفكرى الاسلام
د . يوسف العش : روح الحضارة الاسلامية
محمد عبد الله عنان : الحركات الهدامة
محب الدين الخطيب : الرعيل الأول
الكلبى : كتاب الأصنام

أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم
د . اسماعيل راجى الفاروقى : الملل المعاصرة فى الدين اليهودى
ابن الجوزى : نقد العلم والعلماء
د . محمد بديع شريف : الصراع بين الموالى والعرب
عبد المتعال الصعيدى : القضايا الكبرى فى الاسلام
الشهرستانى : الملل والنحل
المودودى : ترجمان القرآن
حسن البنا : الرسائل الجامعة
محمد المبارك : المجتمع الإسلامى
انور الجندى : مقدمات العلوم والمناهج

آفاق البحث

صفحة

صفحة